

فيحاء السامرائي سوناتا الغراب



رواية



سم ٧٧

سوناتا الغراب

المؤلفة: فيحاء السامرائي الكتاب: سوناتا الغراب (رواية)

صدرت النسخة الرقمية: جزيران/ يونيو 2025
صدرت الطبعة الأولى عن (لندن للطباعة والنشر) - 2022

- الناشر: «ألف ياء AlfYaa»
- الموقع الإلكتروني: www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ «ألف ياء AlfYaa»
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- «ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب



-
- تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداود
 - لوحة الغلاف للفنان: علاء بشير، بموافقة شخصية من الفنان

فيحاء السامرائي

سوناتا الغراب

رواية

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المحتويات

7	(1)
21	القرارورة الأولى: عن طفولة وحيد فريد نعمان
27	القرارورة الثانية: عن عامر جاسم
37	القرارورة الثالثة: عن فترة الجامعة
41	القرارورة الرابعة: عن الجبل
47	القرارورة الخامسة: العودة إلى بغداد
61	القرارورة السادسة: عن دمشق
69	(2)
73	الجارة
79	القرارورة السابعة: عن الجارة
87	(3)
95	ورقة آلاء
119	القرارورة الثامنة: ورقة وحيد عن آلاء
139	(4)
141	الورقة التاسعة: عن مونيكا
157	(5)
163	القرارورة العاشرة: عن محمود الطافح ولفقة مكّي
185	(6)
189	قرارورة وحيد: عن نبيل بهنام توما
215	أوراق أخيرة متفرقة
229	(7)

(1)

في صحيفة محلية مجانية تركها راكب على مقعد العربة،
قرأتُ هذا الخبر على نحو سريع:

"اكتشاف جثة رجل من أصول عربية... في شقة تابعة
بلدية ويستمنستر.... بعد قيام الجيران بالإبلاغ عن انبعاث
رائحة كريهة.... وجدت الشرطة جثة متعفنة منذ زمن
طويل.... وقامت بنقلها إلى المشرحة للتعرف على
صاحبها.... من أجل تبيان سبب الوفاة....".

(انتبه للفجوة)، عند نزولي من القطار، سمعت نداءً مسجلاً
يدعو لأخذ الحذر من الفراغ الموجود بين العربة والرصيف.

عند خروجي من نفق محطة قطار شارع أجور، داهمني
هواء بارد ينبئ بقدم خريف مبكر، حمل معه نسيماً منعشاً
خجولاً، اشتهى أن يكون عاصفة لكنه لم يجزؤ.. أعجبني هذا
التعبير الذي خطر على بالي بغتة وجعلني ابتسم، وقع نظري
على رجل راح يطارد قبعته، بعد أن طارت من فوق رأسه
على الرصيف.

أعدتُ قراءة الرسالة في تلفوني النقال، لكي أتأكد من العنوان:

(احضرْ غداً عند الساعة العاشرة صباحاً على العنوان المرفق، للترجمة في قضية رجل عراقي وجدناه ميتاً في شقة رقم... بينفولد رود.. أن دبليو ...).

بحثتُ عن خارطة المنطقة في الهاتف، وجدتُ أن الطريق للمكان المطلوب يتطلب المرور بقلب شارع العرب، كما يُطلق على أجورُ رود، من جهته الأقرب إلى منطقة ميدافيل.

صوت فيروز ينطلق متهادياً من مقاهٍ معظم روادها من العرب.. رجال يجلسون بمواجهة الشارع متطلعين نحو المارة، يبدون وحيدين حتى لو كانوا مع آخرين، غير أبهين بما يجري حولهم ولا مندمجين في مجتمع هم فيه.. سحنات مهمومة، نظرات تائهة زائغة، كأن وجوههم سهو وتوهم، ووجودهم في هذا المكان غلطة قابلة للإصلاح، يحسبونه أمراً مؤقتاً ومؤجلاً منوطاً بتوفر ظرف ووقت مناسبين، حتى يرجعوا ويعيشوا في بلدانهم من جديد، بيد أنهم لا يعرفون كيف ستحدث تلك الظروف ولا متى سيحلّ ذلك الزمن.. تنشي أسماء محلات ودكاكين بكِّ جارف من حنين لأماكن وهوية، ويضجّ المكان بيافطات ودعايات ترويجية وكلمة حلال.. ثمة صالونات حلاقة عربية، أكشاك بيع هواتف نقالة، مكاتب دلالين لتأجير شقق وعقارات، ومحلات بيع ذهب وصرافة.

حال انعطافي يمينا نحو سوق شعبية في شارع چيرچ، نفذت إلى أنفي روائح متباينة، شواء كباب ونكهات معسل متنوعة من أراكيل منضّدة في الهواء الطلق.. تناهت إلى سمعي أصوات باعة ومتبضعين يسلمون على بعضهم ويسألون عن

الأسعار، انطلقت ضحكة عالية من زبون عند بقالية وأطراف حديث لمارّين بلهجات عربية مختلفة.. اصطفت على جانبي الشارع أكشاك خضار وفاكهة على وشك الذبول، تباع في أوعية نايلون بجنيه واحد، وإلى جانبها عربات تعرض ملابس وحقائب لمشتريين، يقبلونها ثم يمضون في حال سبيلهم.. عند توقفي لمعرفة الاتجاهات، ارتطم بي رجل كان قادماً باتجاهي وعيناه على هاتفه النقال، مضى دون أن يعتذر.

عزّجتُ على جهة اليمين نحو شارع بينفولد، امتثلتُ أمامي بنايات سكنية تابعة لبلدية ويستمنستر، طلعتُ السلم إلى الطابق الأول، رأيت أبواباً مطلية بنفس لون الدهان ومرقمة بأرقام متسلسلة، تشرف على ممر مشترك طويل.

عند الشقة التي في الركن، لاح لي شريط نايلون يوضع في موقع أي حادث لمنع الناس من الاقتراب، وقف عنده ثلاثة رجال يحتسون القهوة، اثنان منهم بملابس شرطة والثالث بملابس مدنية.. تقدمتُ نحوهم وعزّفتهم بنفسي، رحبوا بي وأعطاني أحدهم قناعاً واقياً لأكّمْ أنفي به، ربتُ آخر على ذراعي مكتفياً بالابتسام، تهيئتُ ولا أدري لماذا انتابني شعور بالرهبة عند فتح الباب، ولما وطأت قدمي عتبة الشقة، تحوّل شعوري إلى اشمزاز ونفور، جراء روائح عطنة قوية آتية من الداخل، إلّا اني تبعثُ الرجل المدني الذي كّم أنفه بمنديل سميك حين دخولنا.

في مدخل الشقة، تعثّرنا بكومة مطبوعات لمطاعم أكل سريع وشركات هواتف وأسواق مركزية.. أنار المحقق المصباح لنبصر طريقنا في الممر المعتم، سرعان ما اتسعت دهشتي وانتابني ذهول لما رأيت حولي على جدران الممر

وعند غرفة نوم تقابل المطبخ؛ كتابات متداخلة، رسوم غريبة بشعة، تخطيطات غير مألوفة لنساء ورجال.. على الأرض، تراكمت محتويات أكياس قمامة مفتوحة من مخلفات أكل متفسخ و نفايات، كما وتناثرت في المطبخ أيضاً؛ علب طعام بلاستيكية وصحون قذرة متعفنة، قوارير فارغة، أوراق ممزقة ومجعدة، كتب باللغة العربية وملابس مكدسة ومتناثرة، حشرات وعناكب نسجت بيوتها بإتقان واطمئنان من سقف المطبخ حتى الممر.. فوضى عارمة لم أشهد مثيلها في حياتي كأنها لوحة حيّة عبثية، بيد أن رائحة الشقة العطنة كانت أكثر ما أزعجني في تلك اللحظة، لاحظ المحقق قرفي وردة فعلي فقادني إلى مكان آخر عند نهاية الممر.

- هنا وجدنا الجثة، أو ما تبقى منها

صالة صغيرة الحجم، تتوسطها كنبه جلدية زيتونية اللون وبجانبها كرسي فخم، أمامه طاولة خشبية صغيرة عليها بعض الأشياء؛ نظارة، علبة سجائر، ولّاعة، منفضة على شكل قوقعة فيها عقب سيجارة، ويوجد تحتها وصفا طبية متأكلة ومخرّمة بحروق دائرية صغيرة ربما بفعل السيجارة.. لا وجود للفوضى في تلك البقعة بتاتاً، كأن هذا الركن لا يمتّ بصلة مطلقاً، إلى الآخر المبعثر والقذر عند الجزء الأمامي من الشقة. أفقتُ من ذهولي على صوت المحقق، مشيراً بيده إلى غرفة ثانية تشرف على الصالة:

- لا يوجد في تلك الغرفة أيضاً أي كتابة أو شيء قد يخدم التحقيق، سترها في غاية الترتيب والنظافة، ما عدا غباراً تراكم على أثائها في الأشهر الماضية، نظن أنها تعود إلى مالك الشقة.

تطلعت نحو الغرفة، لاحظت لعيني مكتبة تحتوي كتباً منظمة بترتيب مبهر، بجانبها سرير نوم مغطى بمفرش قرمزي اللون، وعلى ركن الحائط، شاهدتُ مكتباً صغيراً وأنيقاً فوقه لوحة شهيرة.. انتبهت إلى صوت المحقق:

- المطلوب منك كمترجم معتمد، ترجمة ما هو مكتوب على جدران الممر وغرفة النوم وعلى الأبواب، عرفنا بعض الكلمات الإنجليزية التي ترمز إلى تنظيمات إرهابية متطرفة.. كما توجد أوراق عديدة في قواريير وعلب زجاجية وبلاستيكية، وأوراق أخرى على الطاولة في الغرفة السابقة، نريد منك ترجمتها أيضاً.

ضغطتُ على أنفي بقوة هذه المرّة لتلافي الرائحة القوية التي لم تنفع معها الكمامة، أومأت برأسي موافقاً دون أن أتفوه بكلمة وكنت أريد الخروج بأسرع وقت لأتنفس هواءً نقياً.. نددت عني صرخة عفوية، حينما خطف من بين قدمي بغتة فأر كبير وجرى نحو المطبخ.. رفعت بصري نحو جدران الممر، صوّرت ما هو مكتوب عليها قدر ما أستطيع.. دخلنا بعد ذلك إلى غرفة النوم الصغيرة عند المدخل لنرى الفوضى نفسها؛ ملابس وأوراق مجمعة مبعثرة على الأرض، سرير غير مرتب، كتب متناثرة، ملابس نوم، علب طعام بلاستيكية فارغة، علب سردين وتونة خاوية، حشرات وقذارات لفضلات بشرية.

جاء المحقق يحمل صندوقاً، ولسان حاله يفصح عن رغبة شديدة في أن تنتهي مهمته بأسرع وقت، ليتمكن من الخروج من هذه المزبلة:

- لقد تحفظنا على هذه القوارير والزجاجات وما فيها من أوراق، خدمة لسير التحقيق.

- هل ثمة شك بأنها حادثة وفاة عادية؟

- نزن ذلك، تصادفنا حالات كثيرة مثله.

شعرت بالحاجة إلى التقيؤ فذهبت إلى دورة المياه، لكنني سمعت صوت المحقق محذراً ألا أذهب تفادياً لرائحة ووساخة بالغتين،، سيجري تنظيفها حتى يتمكنوا من تصوير ما هو مكتوب على جدرانها لاحقاً.

في هذه اللحظة، انتبهت إلى صوت الشرطي خارج الشقة متحدثاً مع امرأة، لمحتها تحشر رأسها من الباب الخارجي، في محاولة لرؤية ما في داخل الشقة، غير أنه طلب منها الابتعاد.. أبلغني المحقق أنها جارة السيد وحيد فريد نعمان المتوفي.

لم أحتمل طول البقاء في الشقة، هرعْتُ إلى الخارج، وسرعان ما أفرغتُ ما في معدتي من فطور تناولته في الطريق، داخل كيس ناولني إياه الشرطي.

وقَعْتُ على استلام عشر قوارير متنوعة الأحجام، تحتوي أوراقاً ملفوفة، وضعوها لي في كيس بلاستيكي كبير وأحكموا إغلاقه جيداً.. ودّعني المحقق بالقول:

- خذ وقتك، يحدث الكثير من تلك القضايا هنا.. نراك يوم الاثنين صباحاً عند الساعة العاشرة، لأخذ إفادة الجارة.

لم أنتبه إلى ما حولي في السوق وفي الشارع من أصوات باعة وراجلين، اتجهت فوراً صوب محطة قطارات الأنفاق، وكان عليّ أن أبدل القطار الرابط إلى الخط الشمالي، ليأخذني إلى منطقة سكني في منطقة هايغيت.

طوال الطريق، حرصتُ على حمل الكيس وما في داخله من قوارير بإحكام، ولا يكاد يغرب عن بالي ما رأيته في الشقة قبل قليل.. ترى ما قصة ذلك العراقي البائس، كيف مات بهذه الطريقة البشعة، ولماذا كان الجزء الأمامي من الشقة قذراً فوضوياً، على العكس من الجزء الآخر الذي بدا نظيفاً ومرتباً؟ سبق أن ترجمتُ للكثير من العراقيين في قضايا خلافات عائلية ومالية، جنح ونصب، وتحايل على إعانات ضمان اجتماعي وغيرها، لكنه لم يسبق لي أن مررت بمثل تلك القضية.. بقيتُ ساهماً حتى وصلت محطتي المنشودة، سرتُ صوب البيت ومازال فكري مشغولاً بأحداث الصباح.

* * *

لم أكتف بغسل وجهي ويديّ، بل مكثت طويلاً في حوض الاستحمام.. بعده، شعرت اني بحاجة إلى كوب شاي ثقيل، كلّمت مساعدتي وأخبرتها بأنني في إجازة، حتى إتمام ترجمة ما تحت يدي من عمل.

وضعت كيس الأوراق على مكتبي وترددت في فتحه، مثل الذي بين يديه مصباح سحري يخشى خروج مارد منه، وإن خرج يختار أي أمنية سيطلب ويختار.. بماذا سأبدأ، هل أقوم بترجمة كتابات الحائط أولاً، ثم أقرأ الأوراق التي كانت محشورة داخل القوارير والعلب، أم أشرع بقراءة القصصات الصغيرة التي وجدناها على طاولة الغرفة الأمامية؟ عجبْتُ من أمري، ما سرّ ارتياحي ومهابتي، هل لخصوصية وأسرار رجل متوفٍ وما أخفت فوضاه من أمور غير سارة، أم لأنه كان عراقياً؟ رغبة وفضول لمعرفة ما وراء حياة ذلك الرجل،

منشورات «آلف ياء» AlfYaa

دفعاني إلى البدء بالعمل وفتح هاتفي الجوال، من أجل تحويل الصور والكلمات إلى الكمبيوتر أولاً.

رحت أتأمل ما ظهر أمامي على الشاشة من رسوم فوق الجدران وخلف الأبواب.. تخطيطات لرجال ونساء، غراب بلا منقار، مصلوب على نسيج عنكبوت، شجرة توت بأغصان غريبة، حزام جلدي على شكل أفعى، نافذة كالحة خلفها قطرات تشبه الدموع، وخربشات أخرى لم أستطع تمييز شيء منها، تخللت كل ذلك كلمات وجمل باللغتين العربية والإنجليزية.

فتحت ملفاً على الكمبيوتر لكي أترجم ما قرأته من كلمات، خلف باب المطبخ أولاً:

(أيها الطائر/ ارجع من حيث جئت إلى العاصفة/ أو إلى شواطئ الظلام/ لا تترك منك في هذا المكان أثراً/ ولا ريشة سوداء تذكر بإفكك المفترى/ عد، ودعني لوحدي.. هل ثمة عطر في الأرض المقدسة؟ أتوسل إليك/ قل الحقيقة وأصدقني الخبر/ أجاب الغراب: لا عود).

عرفت لاحقاً أنها مقطع من قصيدة (الغراب)، للشاعر إدغار آلان بو.

ثمة كتابات أخرى غير مترابطة وغامضة على الجدران: (ديستوبيا وحيد القهر.. من منكم ليس بضرورة؟ كلنا وحيدون ولو كنا معاً.. غراب ولد مسخاً.. هكذا حكّت شجرة التوت.. نافذة تثمر دموعاً.. وحش بكرش.. "كم مات فينا يا أبي حتى نتحمل كل ما يجري حولنا؟".. آلاء القاعدة، داعش، آيسس، أم أي 6.. محمود القمامة.. "وحيد منذ الطفولة لم أك كالأخرين/ ولم أبصر غيري/ كل ما أحببته، أحببته لوحدي"..

عناكب المطار تقبض على عامر.. "لم أكن حاضراً/ لم أكن غائباً/ كنت بين الحضور والغياب، حجراً أو سحابة" .. "لا أملك انتصارات مدهشة، لكنني أستطيع إدهاشكم بهزائم خرجت منها حياً" .. مونيكا معلّمة الإنسانية.. "أنا المنفي من بلد، تبصق العشاق كعقب زائد/ أنا الملفوف بالخوف، كقصيدة تكلّى فقدت شاعرها" .. "لست وحيداً، ثمة أشياء تشكّل خلايا يومي دون ترتيب، على الجدار صمت خشبي ينخر ملكة نحله، فوق الطاولة عزلة رمادية تلسع عوانس يرقاته، وعلى الأريكة زمن يلوّح بأصبع شمعي، هشش، ينهر صغار أفكار، تتنطط في الصالة وتتجمل الأجنحة" .. نبيل آخر النبلاء).

ليس بمُكنتي ترجمة كل تلك الكلمات إلى اللغة الإنجليزية بطريقة تفي بمعانيها، ما سأفعله هو تبيان روحها محاولاً أن تكون مفهومة، لكن ثمة كتابات أخرى متكونة من تراكيب حروف عربية وإنجليزية، تشبه الطلاس وبدون معنى، قررت نقلها كما هي دون تفسير.. أنا على يقين بأن ما أثار رغبة الشرطة واهتمامها، هي تلك الكلمات بالحروف الإنجليزية المتعلقة بداعش وآيسس.

مددتُ يدي نحو الصندوق، أخرجتُ قصاصات متفرقة وجدوها على طاولة في الغرفة.. كتابات تضمنت جملاً مفقودة، كأن سائلاً ما انسكب على بعض سطورها فبدت مثل الكلمات المتقاطعة:

(محكمة)

بعد النظر في... بحكم القانون الوحيد الفريد و..... رسمنا بما هو آت.... نحكم على التالية أسماؤهم.. كل حسب جريمته المنصوص عليها

المتهم الأول: الغراب

بعد التأكد من.....لعنتك الداكنة..... سواد حبرك.....
قررنا نتف ريشك وإخراسه..... من أو النعيق.

المتهم الثاني: فريد نعمان

بعد الاطلاع على أوراقك، وبعد التأكد من إدانتك في
قض..... قررنا أن نربط على جذع شجرة توت، بحزامك
..... في حديقة دارك سرب من الغربان يفتاً..... يقرر
كرشك... تكتب كلمة ... ألف مرة.

المتهم الثالث: رضية عبد القادر

بعد اطلاع هيئة المحكمة على أوراقك..... قررنا التوقيع
على براءتك..... سراحك حالياً شريطة ألا تذرفي مزيداً من
..... مع مراعاة..... من حياة

المتهم الرابع: عامر جاسم

بعد اطلاعنا على أوراقك وملاحظة تأث..... قررت
المحكمة إلى أصقاع سيبيريا..... لمدة شتاءين كاملين
و.....

المتهم الخامس: آلاء بنت فضيلة

بعد الاطلاع على تفاصيل قضيتك وظروفك، وكيف
..... قررت المحكمة و..... داعش.

المتهم السادس: محمود الطافح

..... على أوراقك وبعد قررت المحكمة
تعليقك..... حجزك في غرف..... ومكتظة..... لا يمكن

التنفس..... أو إنترنت لمدة.... سنوات.....تقوم
بغسل.....ما حولك حتى..

المتهم السابع: نبيل بهنام توما

قررت المحكمة براءتك من ومعاقبتك غيابياً على
طبيته.....

تُرفع الجلسات لهذا اليوم على أن يتم استئناف المحكمة لاحقاً
للنظر في قضية المتهم الأول والأخطر، المدعو (مظلوم فريد
نعمان) الذي ستخصص له جلسة كاملة يوم غد.

رُفعت الجلسة)

* * *

حلّ صباح اليوم التالي بعد ليلة مرهقة، كان نومي فيها
مضطرباً.. وبينما كنت في الفراش أفكر بأحداث الأمس
وأستعيد في بالي مشهد الشقة الغربية، رنّ هاتفي فجأة:

- صباح الخير.. ماذا بك، هل أفزعتك، لماذا لم تتصل بي
يوم أمس؟

- أعتذر جداً، انشغلت بعمل ترجمة جديد أخذ مني وقتاً
كثيراً

- هل يعني هذا أن عمالك أهم من مكالمة خطيبتك؟

أخبرتُ سلمى بأنه لا وجود في حياتي لمن هو أعزّ وأغلى
منها، وعدتها بأنّ وقتي سيكون لها تماماً، حالما أفرغ من ذلك
العمل.

ما على مكتبي من أوراق، بدا لي مثل رسائل مبرومة،

يضعها البحارة القدامى في قوارير، يبتّون فيها حنينهم لليابسة واشتياقهم لمن عليها، كاشفين عن أسرارهم ومعبرين عن مخاوفهم من غدر البحر والزمن، يقبلونها قبل أن يرموها في البحر، وفي أذهانهم أمل يصوّر لهم جدواها وأيادٍ حبيبة تتلقفها، يكتفهم أن أحداً ما سيشاركهم بقراءة ما كانوا يفكرون به في دواخلهم من مصائر مجهولة.. ما أن مددت يدي إلى إحدى قوارير وحيد فريد لأفتحها، حتى أحسست بشعور غريب نادراً ما ينتابني أثناء عمل يتطلب مني مهنية عالية دونما مشاعر.. كيف سأترجم لشخص ميت؟ كل ما أخشاه هو أن ما سأقرأه سيكون صادماً، نظراً لطريقة موت الرجل ولما رأيته من فوضى في شقيقته، ومع ذلك لزم عليّ البدء بالقراءة.

من أولويات العمل الآن، هو تصنيف كل هذه الأوراق التي في القوارير، حسب التواريخ والفترة الزمنية قدر المستطاع، لأجل أن تكون قابلة للفهم وللربط.. بحثت أولاً عن تاريخ مكتوب على كل ورقة في القوارير أو إلى ما يشير لزمن كتابتها، لكنني لم أفجح، لذا قررت قراءة كل ما بين يدي بشكل سريع، ثم البدء بما أراه منطقياً من الناحية الزمنية، أو بما يتلاءم وسير التحقيق.. أنا على يقين بأنه ما زالت هناك بعض الأوراق الأخرى أما تالفة أو مفقودة، أكّدت اعتقادي هذا للشرطة يوم أمس، لكنهم طلبوا مني إنهاء ما بيدي الآن، ثم البحث عن كتابات أخرى لو لزمّت الحاجة، لا أظن أن مهمتي لهذه الليلة ستكون هينة، إلا أنني كنت عازماً على المواصلة والاكتشاف.

فرزت ما هو موجود في القوارير العشر، رَقمت كل قارورة حسب موضوعها والفترة الزمنية، بعد أن قرأت ما تحتويه بداية كل ورقة وما تشير إليه بشكل سريع.. قررت قراءة

إحداها، غير أنني ما كنت أظن أنني سأقرأ كل ما لدي من
الأوراق وبمثل تلك الرغبة العارمة، من أجل اكتشاف المزيد
من حكايات مذهلة وأسرار غريبة عن ذلك الرجل الفريد.

* * *

القارورة الأولى

عن طفولة وحيد فريد نعمان

كان من البديهي أن يخرجنا إلى العالم في وقت واحد، لكن أحدهما وبحركة رعونة، لفّ الحبل السريّ على عنق الآخر وخنقه.. وهكذا وُلِدَ طفل تلك العائلة البكر مرتكباً جريمة القضاء على أخيه.

توفي توأمه ساعة ولادته، متيحاً الفرصة لأخيه كي يعيش نعمة أسمىها حياة.. خرج من رحم أمه وحيداً صامتاً، حزنت الأم، وكان نحيبها الموجه أول صوت سمعه وليدها.. تبرّم الوالد، راح يدخّن بشرائه، بكّت والدته بحرقة، كتبوا على قبر أخيه المتوفي اسم (مظلوم فريد نعمان).. وُلِدَ وحيداً مما جعل ذلك سبباً كافياً، لإعطائه اسم (وحيد)، إضافة إلى أن أباه أراد أن يُنادى باسم (أبو وحيد)، تيمناً بلقب مطربٍ أحبه وعشق (وحداني أعيش كده وحداني)، أغنية كان يغنيها كل خميس

حين يعاقر الخمرة.. صار اسمه وحيد فريد نعمان، وأطلقوا عليه فيما بعد أسماء وكنيات عديدة منها؛ وحيد، وحوّدي، أبو وحيدة، أبو اعتكاف، وهيد ومستر نومان.

لا يلبث مظلوم فريد نعمان، يطلع لي من بين حروف أكتبها، محاولاً التعبير بها عن نفسي وإثبات وجودي.. يظل يتحاور معي لفترة طويلة، أعلمه بقول الوالد عن أن الآباء هم من يصنعون الأولاد، وبما أنني صنيعته فله الحق في تربيتي بالشكل الذي يبتغيه، مثلما صنعه جدي من قبل، حتى غدت القسوة والعقاب والتعنيف طرقاً مثلى للتربية.. بقيت لفترة طويلة لا أدرك لماذا يضربني بشراسة ويجعلني أرتعب منه، صار يضرب والدتي أيضاً ويفرّغ جام غضبه في كلينا.

تغني رضىة تهويدة ما قبل النوم لي، (شبيدي على حكم القدر يمّه، يا وحيد يا يمّه)، ثم تروح باكية، أجد الدموع في عين أمي دائماً، أجد أبي غاضباً طوال الوقت، فريد نعمان، مدرّس لغة عربية تقليدي، انتمى يوماً إلى حزب سياسي معارض، له شوارب ستالين وحوارب بريجنيف، اعتقله رجال الأمن يوم كانت أمي حاملاً بنا في شهرها السادس، أخذوه بالبيجاما ليلاً من البيت بعدما اعترف عليه مسؤوله في التنظيم، بقي قرابة ثلاثة أشهر في المعتقل وعذبوه بقسوة؛ علّقوه من قدميه، ركلوا معدته وكليتيه بقوة، ضربوه بالهراوات على أطرافه وظهره، ركزوا ضربهم على ما بين فخذه فأنثفوا عضوه الذكري، بيد انه ظل صامداً ولم يعترف، حتى اليوم الذي جاؤوا فيه بزوجته الحامل وحاولوا اغتصابها أمامه، ساعته فقط أعطى لهم كل المعلومات التي يعرفها عن تنظيمه الحزبي، ووقع على ورقة براءة منه، ومنذ تلك اللحظة كره كل شيء، نفسه، زوجته، وولده الوحيد الذي جاء للدنيا، بعد

خروجه من المعتقل، لزم بيته ولجأ إلى الخمرة.

يدخل أخي مظلوم إلى غرفتي، يجلس عند سريري ويأخذ راحته بالحديث:

- ثمة شبه كبير بيننا يا وحيد، بالشكل فقط، لو شاهدك أحد غيري لما ميّزك عني، بينما يختلف كلانا في الشخصية والطباع.. لا بأس أن يقسو عليك والدك من أجل أن تغدو رجلاً، كما أنك تستحق ما يجري لك لأنك قتلتني وجعلت والدتي تبكي، ومن أجل تفسير تصرف والدي معك، أريد أن أعلمك بأن الآباء يقسون على أبنائهم عندما يفشلون في تحقيق أحلامهم، ولما تتلبسهم الخيبة والانتكاس، وبما أن أطفالهم هم جيناتهم الممتدة وجزء من خلاياهم في جسد آخر، لذلك تراهم يسعون جاهدين وبشتى الطرق، لكي يحقق الأولاد لهم كل ما فشلوا هم في تحقيقه، وأحياناً يعاقبون أنفسهم بأولادهم.

لكن يا مظلوم، قسوته كانت بالغة الوجد، تشبه عنف وحش هائج، يدرك إثرها خطأه فيشعر بالذنب وبإحساس غير مريح كامن في داخله، وعندما يتوجب عليه الاعتذار، يفعل الضد ويقوم بصب غضبه علينا، أنا ووالدتي، لأننا حسب قناعته، كنّا السبب في وضعه الحالي وفي جعله يشعر بضعفه وحماقته، وإن حدث واعتذر بعد أن يهدأ، يأتي اعتذاره فاشلاً وبارداً.

سأحكي لك عما فعله بي فريد نعمان يوماً حينما دخل إلى البيت وشاهدني ألعب بالطائرة الورقية، التي كنت فخوراً وسعيداً بها لأنني صنعتها بنفسي.. أتذكر انه تقدم صوبي، سحبها من يدي، مزقها بوحشية وصار يضربني بحجة اني لم أنه واجبي المدرسي قبل اللعب، لم يكتفِ بذلك، بل عاقبني بأن

ربطني على جذع شجرة التوت العجوز في ركن الحديقة، حيث مأوى غراب ناعق كنت أرتعب منه، راح والدي يصرخ في وجهي: "هل تعرف من أنت، أنت قاتل، قتلت أخاك يوم ولادتك، لو أبقيته حيّاً لكان يلعب بالطائرة الورقية الآن معك، سيفقأ هذا الغراب عينيك".

في اليوم التالي، صنعت طائرة ورقية أخرى لك، ناشدتك باكية: "خذها يا مظلوم، أنا صنعتها لك، خذها ولا تمت، ارجع إلى الحياة، أريدك أن تعيش حتى لا يضربني والدي بسببك".

يغضب والدي لأي سبب، يهددني بعنكبوت كبير يقضم جلدي بأسنان حادة، يفرّق لحمي على حشرات عث وجراد ويترك رأسي ليلتهمه الغراب.. أفزع أنا، تبكي والدتي عند نافذة المطبخ، ينعب الغراب فوق شجرة التوت، يهطل مطر غزير، أرتجف من برد وجوع وخوف، أبيت محموراً وأمي جاثية باكية عند فراشي، أسمع من الغرفة المجاورة أبي ينشج.. أصحو في اليوم التالي، أرى ذلك الرجل المريع، جالساً عند فراشي يتأملني بحزن، أرتعب، يلوح شبح ابتسامة نادمة على وجهه، يكاد فمه يتفوه بشيء ما، غير أن الكلمات تتجمد على لسانه، يوّلّي هارباً من الغرفة دون أن يلتفت إلى الوراء بعد أن يدسّ في يدي قطعة نقدية.. لم أحب أبي يوماً ولم أكرهه، ليس لدي أي مشاعر نحوه، لا أتذكر أنه عانقني أو عانقته أنا، طيلة حياتي.

- رغم أن أبانا يحاول الاعتذار لك بشكل غير مباشر وبصورة خفية وفاشلة، لكنك لا تستحق ذلك، أنت الذي كنت سبباً في خيانتة لمبادئه، أنت سبب فشله في حياته وخيبة أمله، فكيف تريد أن يقوم الوالد بالتعامل ودياً مع من كان

السبب في شقائه؟ أنت ووالدتك من حطّما حياته وجرحا كرامته، وكلما يسرف في القسوة عليكما، كلما يتراكم لديه ذنب أكبر وأعمق، كان يشرب الخمرة لينسى.

ذات يوم رجعتُ إلى الدار فرحاً راكضاً، أبلغته بحصولي على مرتبة الأول على الصف، توقعتُ أن يثني عليّ وأن يحضنني ويقبلني، أمسك نتيجتي بيده، ثبتُّ عيني في وجه منتظراً كلمة أحسنت يا ولد، بدا منقبض الأسارير، يحاول البحث عن أي نقطة ضعف لكي يلومني عليها، قطّب ما بين حاجبيه حينما قرأ درجة درس اللغة العربية، وجد سبباً جيداً لكي يحتدّ عليّ ويؤنّبني: "غبي، تحصل على درجة تسعين وأبوك مدرّس لغة عربية؟ لا عشاء اليوم، ستذهب وتنام قرب صديقك الغراب وإخوانك العناكب تحت الشجرة، عسى أن يأكلوك فأخلص منك ومن أمك".

- صاحبت تلك الليلة شجرة التوت، والغراب ينعب فوقها، وأمك تبكي خلف نافذة المطبخ المطلة على الحديقة.. لكن ألا تذكر لك يوماً طيباً مع أبيك؟

أهدى لي في يوم عيد ميلادي أقلام رسم ملونة، طعّنت على فرحتي بها فرحة أكبر، ساعة مجيء خالي إلينا من خانقين حاملاً معه دراجة هوائية، كهدية لي وراح يعلمني قيادتها، كاد ثغر أمي أن يفصح عن ابتسامة شحيحة، بيد أنها لم تكتمل، لأن والدي جلب مطرقة بعد خروج خالي وقام بتهشيم دراجتي، بحجة اني سأنشغل بها عن دراستي، عتّف والدتي وضربها لأنها أغفلت عن إعداد الطعام في الوقت المناسب.. لم يسمح لي أن أمص إصبعي، ضربني لكي أترك تلك العادة السيئة برأيه، تبولت تحتي في السرير لا إرادياً ليلتها.. اعتاد أبي أن

يوسعني ضرباً في كل مرة جراء سبب وحجة لا أدرك
معناهما؛ حين أكل جص الحائط بسبب إصابتي بفقر الدم، ولما
أستيقظ صارخاً من كوابيس أراه فيها متقدماً بحزامه نحوي،
وحين يسمعني أتلعثم وأتأتئ في الكلام، وحتى إن لم أفعل شيئاً،
كان يضربني بحزامه الجلدي.. صرْتُ أحسبك يا مظلوم لأنك
متّ، وأتمنى لو كنت أنا من مات وليس أنت.

- قتلتنى، جعلتَ أبي يغضب وأمي تبكي والغراب يتواصل
بالنعيق على شجرة التوت، ما الذي فعلته بي يا وحيد وما
الذي ستفعله بالآخرين بعد ذلك؟

* * *

القارورة الثانية

عن عامر جاسم

لو كان لديك يا مظلوم، جار وصديق مثل عامر جاسم، لكنت عرفت معنى الصداقة الحقيقية ولأصغيت إلى كل كلمة يقولها.. أحكي له عن أبي فيقول، "كل شيء تتعلمه بالحياة بنفسك يا وحوذي إلا القسوة، يعلّمها أحد ما لك، ولكن الحياة ما هي إلا فرصة، وإذا كنت تعرف ما تريد وتصمم على أنك ماضٍ في فعله، سيتحقق لك معظم ما تنشده وتتخطى عُقدك، وبما أننا مخلوقات عابرة في هذه الحياة، فما علينا سوى عبورها بشكل يليق بفعل وجودنا فيها".

يقع بيته مقابل بيتي، اعتاد أن يطرق بابي كل صباح، لنذهب معاً إلى نفس المدرسة الابتدائية ثم المتوسطة.. في

بعض أيام الجُمع، كان يأخذني معه إلى معمل الطابوق لنساعد والده، وفي طريقنا إلى هناك، كان يكلمني عمّا سمعه من أخيه الكبير من مواضيع تخصّ عدالة المجتمع والاختلاف الطبقي، وعن أهمية مطالبة الطبقة، الأكثر تضرراً من النظام الاجتماعي والسياسي، بحقوقها ومقارعتها للظلم.. أمور كنت أرى فيها نوعاً من التنفيس عن معاناتي الشخصية، وعن ظلم أغانيه من عائلة وبيئة محيطة بي، وكذلك كنت أشعر بالسرور لأنني أتخيل نفسي أقوم بعمل يجعلني أحقق انتصاراً أفتقده، وأغيض به والدي في الوقت نفسه.

- كان عامر أكثر توهجاً منك ومن أي فتى في المدرسة، مقتنعاً ومعتدّاً بنفسه، دائم التمييز والإدهاش، كنت تحبه وتحسده بنفس الوقت ويقودك فشلك إليه، تصغي إلى كلامه بإعجاب متجاوزاً نفسك.

ساهمتُ معه مرات عديدة في توزيع منشورات سرية لا أكثر ث بقرائها، وعن طريق الصدفة، اكتشف الأمر طالب في الاتحاد الوطني، اقتادني إلى غرفة التنظيم الطلابي التابع للسلطة في المدرسة وأوسعوني هناك ضرباً، بقيت متغيباً عن المدرسة لأسبوعين.

- لم تكن تتحدّى بفعلك هذا من اضطهدك وتعلن تمردك على مجتمعك، بل كنت تتبع عامر، ومع ذلك، كنت في داخلك تخشى أن يسمع أبونا بأمر نشاطك فيغضب منك، ولقد حدث ما خشيته.

جنّ جنون أبي حين رأى ملابسي الممزقة والدم على وجهي، أمرني بإشارة من سبابته أن أذهب إلى شجرة التوت وأجلس تحتها، تقدم نحوي، حاملاً بإحدى يديه قارورة سفن أب

فارغة، وباليَد الأخرى أمسك بحزامه الجلدي، ارتعدت فرائصي وخيل إليّ أن نهايتي اقتربت، فكّرت بتلقائية غريزة البقاء، أن أركض وأقفز من فوق السياج، أو أن أدافع عن نفسي حتى لو اضطررت إلى مهاجمته، صوّبت نظري نحو شباك المطبخ، استنجدت بأمي بنظرات تذرّع، شاهدها تمسح بفوطتها البيضاء دموعاً ذرفتها بصمت.

- أمك تبكي خلف النافذة، الغراب ينعب فوق شجرة التوت، وأبوك يتهياً للاقتصاص منك والانقضاء عليك.. أنت جدير بتلك العقوبة لأنك تريد أن تضيع مستقبلك، تخالف أوامر أبيك وتسبب الحزن لوالدتك، التي كنت تتمنى أن تراها مبتسمة يوماً.

أردت أن أصرخ، لم يطاوعني صوتي، بلّلت سروالي لحظة دنا مني والدي، قَرَب شفّتيه من أذني متفوهاً بكلام، ظلّ يتنطط في رأسي لسنوات.. قال لي: "هل تعرف هذه الزجاجاة؟ بالتأكيد تلذّذت يوماً بطعم محتواها اللذيذ، لكنك لا تعرف بأنه يمكن استخدامها لأغراض أخرى غير إرواء الشاربين، هذه الزجاجاة المكسورة قد تدخل في مؤخرتك لو تواصلت بهذا الدرب، هل تدرك ذلك؟ طالما أن الشر موجود فوق هذه الأرض، والعراق موجود في هذه البقعة بخيراته وموارده وفوضاه، توجد هذه الزجاجاة.. عدّني، بل أقسم لي بأنك لن تقرب السياسة ثانية، ولا تحسب أنك كبرت، فما زلت تأخذ مصروفك من جيبتي".

- للأسف، حطّمت الحياة السياسية فريد نعمان.. كان ذلك أول درس لك حتى تتجنبها، ارتفع عندك منسوب الأدرينالين والتستوستيرون وشهدت أول احتلام في تلك الليلة.. البلوغ

أمر محير وغريب لمن هم بعمرك، فهو مرحلة انتقالية محيرة، فلا أنت طفل غافل ولا أنت رجل كامل، تصحو من النوم وتجد شخصاً آخر يحتل جسدك الذي يضجّ بهرمونات تفرض نفسها على ذهنك وبدنك وشكلك.. تضيق عليك الدائرة وما من إنسان يسمعك، يبقى أبوك يسكر ويضربك، والغراب ينعب على شجرة التوت، وأمك تبكي وتبلل فوطتها البيضاء، فماذا أنت فاعل؟

لم يكن لي من متنفس سوى القلم والورق، رحت أرسم وأكتب كل شيء وأي شيء حتى لو لم يقرأ أحد كلماتي.. فكرت أن أضع الأوراق المكتوبة في زجاجة وأرميها في البحر كما يفعل البحارة في الأفلام.. ولما لم يكن ثمة بحر قرب بيتنا، صرت أرميها في أقرب بركة ماء أو مستنقع، وفي بعض الأحيان ألقوها في مبزل (شطيط) وأنا في طريقي إلى المدرسة.. رميتها ذات نهار في الشارع أمام بيتنا، وقفت أراقب ما يجري من الباب، رأيت امرأة تتحني على الزجاجة، تفرغ ما فيها وترميه في بركة مياه الأمطار، ثم تأخذ الزجاجة وتمضي، وفي مرة أخرى، داست عليها سيارة، كسرتها ودفنتها في الطين.

- لم تكن لديك القدرة على الكلام بسبب تأتأتك وضحك الناس عليك، مثلما يضحكون على شخصية تلفزيونية كوميدية تتأتئ.. بقيت تكتب وتدفن أفكارك ومعها نفسك في زجاجة، مثلما فعلته مع موهبة الرسم، تبصم رأيك بكل شخص في تخطيطاتك.

كنتُ أرسم كل ما يخطر في بالي من شخصيات، أبي، أمي، عامر، المدرسين والجيران، ثم أخبئ ما رسمته في مكان آمن،

ساعدني الرسم والكتابة على البقاء حيّاً، إضافة إلى المطالعة، قرأتُ كل ما في مكتبة أبي من كتب، أغلبها للمنفلوطي وجبران والعقاد، ولغيرهم من الكتاب الأجانب.. كان أبي يهيئني لكي أتخصص بالقانون للدفاع عن المظلومين، لكنني كنت أرغب في دخول أكاديمية الفنون الجميلة ودراسة فن الرسم.

في ظهيرة جمعة، طرقَ عامر جاسم باب بيتنا بحذر فيما كان أبي نائماً، جلس معي في الحديقة رغم تجاهلي له وانشغالي بتخطيطات قلبي الرصاص، بعد أن أثنى على عملي، باغتني بسؤال عن سبب جفائي، تفاديتُ النظر في عينيه الحادتين وترددت في الإجابة، وإثر إلحاحه، أخبرته بأنني أفضل الانتباه إلى دروسي، من أجل الحصول على معدل جيد يؤهلني دخول الجامعة.. بيّن عامر لي بأنه أشطر طالب في الصف، رغم اهتمامه وانشغالاته بهوموم الناس، وأكد بأن العمل الطلابي والسياسي يدفعانه إلى تحقيق المزيد من الإنجازات الدراسية، حتى أنه قرر اختيار الفرع العلمي، لأن هدفه هو أن يصبح مهندساً، يعمّر البلد ويبني بيوتاً للناس الفقراء بالمجان.

- إياك أن تتبعه، احذر من السير في طريق ساره والدك وندم عليه، مثل ناس كثيرين غيره، ما جدوى التغيير طالما أن هناك شراً وقارورة للخوزقة كما ذكر أبوك؟ ابعد عن تأثير عامر، رغم إعجابك بقدرته على التعبير عما يريد، بكل وضوح وثقة عالية بالنفس.

بقيتُ منصتاً لما يحكيه عامر، تكلم عن مدى إعجابه بفيلم سوفيتي بعنوان (والفجر هنا هادي)، شاهده في المركز الثقافي السوفيتي، تكلم عن أبطال الروايات الروسية ونضال السوفييت أيام الحرب، قرأ صديقي ما في رأسي من أفكار وأفاض

بالقول، "قد تسألني يا وحوّدي ما فائدة النضال في تغيير الحال، حسناً أجبني، اذا كنا لا نناضل فماذا سنفعل وكيف سيتغير حالنا؟ درب النضال سيعطينا ثقة بأنفسنا حتى وإن لم يتحقق لنا ما نريد في حياتنا، يمكننا تالياً من الوقوف على أقدامنا، ومقارعة الظلم، حتى لو كان من أقرب الناس إلينا، الأب مثلاً".

- وخزتك تلك الإشارة غير المباشرة لحالتك يا وحيد، وضع صديقك أصبعه على جرحك ونقطة ضعفك، أردت أن تدافع عن نفسك غير أنك تراجعت، لأن حقيقتك لم تكن سوى ذلك.

هوّن عامر الأمر عليّ، طلب مني أن أفعل ما بوسعي لكي أحترم نفسي وأعزز ثقتي بها، شريطة ألا أسوء إلى أهلي في الوقت نفسه، ومع ذلك أخذ وعداً مني في أن أساعده بخط لافتات أو بكتابة منشورات، نظراً لما أمتلكه من موهبة في الخط والرسم.

- كنت شديد الإعجاب بحسن تدبير صاحبك وقدرته على احتوائك، فهو لم يتهمك عليك ولم ينقطع عنك، بل اكتشف أحسن وأجمل ما فيك، طلب مساعدتك في شيء كنت تجيده وتتيقنه.. لك الحق أن تتأثر بشخصيته أيها الأحمق.

أمدني عامر بما كان عليّ إنجازه، دعاني إلى حضور تجمع تضامني عام في جمعية التشكيليين العراقيين.. انكبت على خط منشورات وشعارات، أخبرتُ أمي عن نيتي بالمبيت عند خالتي يوم الأمسية لكي تقنع أبي، تحقق لي ما أردته لأن الوالد كان يذهب إلى نادي نقابة المعلمين كل ليلة جمعة مع أصدقائه.. أبلغتُ خالتي في تلك الليلة بأنني ذاهب إلى السينما مع عامر.

صادفتُ مريم في القاعة، غمرتني فرحة بالغة مثل الذي يكتشف طبقة ثانية من الشكولاتة في العلبة، أو من يجد ورقة نقدية كان قد نسيها في معطف شتوي.. شاركتُ مريم ذات العيون الساحرة بقصيدة عن التضامن الأممي، كانت تلك هي أول مرة ألتقي بها وجهاً لوجه بعد انتقال أهلها من شارعنا إلى منطقة أخرى في بغداد، رأيتها هناك بعد غيبة طويلة، كانت رائعة بغمازتيها الجميلتين وابتسامتها الساحرة وبشعرها الطويل، لم أع ما كان يجري من حولي ولم أسمع ما كان يقوله المشاركون، تسمرتُ عيناى وبوصلة قلبي على اتجاه واحد اسمه مريم.. قبل أن يتحول أهلها من الحي، كنت أرفض مصاحبة والدتي لزيارة الجيران إلا إلى بيتها، نجلس متلاصقين فأتشتم رائحة صابون غار منبعثة من شعرها الجميل، ننشغل برسم نخلة وبيت ريفي ونهر فيه مركب بشراع أبيض.. كنت أشارك أقراني في نفس الشارع بلعبة الاختباء، فقط لأنها كانت تلعب معنا، أخفي وجهي بيدي وأعدّ للعشرة، أنظر إليها بطرف عيني، أنتظر حتى أتأكد من أنها اختبأت فأتظاهر بأنّي أبحث عنها ولا أجدها، أخفف من سرعة جري كي أدعها تصل إلى الحائط وتمسكه فتفوز ضاحكة، وأستمتع أنا برؤية غمازتيها وفرحة عينيها.. تتكرر الفرحة نفسها عندما نجري نحو بائع المثلجات، أسمح لها بمشاركتي في تذوق مرطبات أشتريها.. أصبحت أتبعها عندما تروح للمدرسة، تنتظر إليّ بطرف عينيها، فتبدو كأنها على وشك الالتفات نحوي بابتسامة رضا.. صارتُ مريم موضوعاً رئيسياً في تخطيطاتي في البيت وفي المدرسة، وسرعان ما اكتشف الطلاب الأمر وبلغوا أهلها، اشتكتُ أمها لوالدتي، أعابت عليّ ملاحقة ابنتها

الصغيرة ورسمي لصورها بدلاً من المحافظة عليها كأخت وابنة محلة.. لامتنى أُمي بحنان، ترجتني بالكفّ عن متابعتها، لكنني علمتُ يوماً بانتقال أهلها إلى منطقة أخرى في بغداد.. ومع ذلك بقيت أحلم بها كثيراً، أخجل أحياناً عندما أصحو من النوم بعدما أتخيل نفسي أقبّلها.. رحّت أكتب الرسائل لها، أحفظها في علب وقوارير فارغة دون أن أرسلها، حتى علم والدي بالأمر إثر جولة تفتيشية على دفاتري وكتبي.. قامت القيامة ساعتها: "يا فرحتي بك، حب و غرام ورسائل عاطفية وهيام، هل تريد أن تضيع نفسك ومستقبلك، وتشوّه سمعة الفتاة؟"

أراد أن يقودني إلى شجرة التوت إلّا اني هربت منه، خرجتُ من باب البيت ووجدتُ نفسي في الشارع، لحقني وراح يضرب عجزتي بقدمه مرات عديدة، اختلطت دموعي مع تراب ودم، ولولا تدخل الجيران الذين سمعوا بكائي وصراخي، لما تركني، أطلقتُ ساقِي للريح ورحتُ أجري في الشوارع وعبر الأزقة حتى وصلت بيت خالتي.. لامتُ خالتي أبي على قسوته، عندما جاءت أُمي لتزورها وتطمئن عليّ، أخبرتها بأن (شوارب الولد) بانّت ولم يعد طفلاً، وأن الألوان لكي يعامله الوالد بشكل مختلف، رجعتُ الأم وهي تبكي ولم تجرؤ على إخبار أبي.

صار الشوق لمريم يأخذني بعيداً إلى سحائق الحلم، كنت كلما أطلب من صديقي عامر جاسم التوسط لي بموضوع التواصل، يتجاهل رجائي ويغيّر الموضوع، يبدأ الحديث عن استعداداته لدخول كلية الهندسة بعد أن حصل على معدل عال، بينما غبت أنا في عالم مريم ولم أحفل بدراستي، لكن بعد إلحاح

متواصل مني، صارحني بأنه من الضروري نسيان موضوع مريم لأن أسرتها المسيحية سوف تهاجر إلى أمريكا، لأعلم لاحقاً بأنها كانت لا تبادلني الحب بقدر ما كانت تتعاطف معي وتشفق على تأتأتي ووضعي مع أهلي، وما صدمني أكثر هو أنها كانت تحب صديقي عامر الذي وهب نفسه آنذاك لقضيته السياسية، بينما عشت أنا في أوهامي وتخبطي لسنوات عديدة.

صرتُ أقضي وقتي كلّ في قراءة الأدب وتدوين كل ما يخطر على بالي بدون توقف.. كتبتُ كل مظالمي وكل ما أشكو منه في أوراق عديدة، أعنون كل ورقة منها بـ (إلى من لا يهمه الأمر)، أبرمها وأضعها في قارورة أو زجاجة، أغلقها بإحكام ثم أرميها تارة من فوق جسر، وتارة أخرى في المزابل أو في بالوعات المجاري.

- هل ستظل تكتب تلك الأوراق؟ لا أحد سيقراها يا وحيد، لا أحد.. إلى متى ستبقى حياتك كلمات على الورق ومدفونة في قوارير؟ أنت تنير شفقتي.

* * *

القارورة الثالثة

عن فترة الجامعة

أكتب لك يا مظلوم مرّة أخرى عن عامر الذي قال لي، "أن تسقط أرضاً فتلك هي حادثة، لكن أن تبقى على الأرض، ذلك هو ضعف حيلة وربما سوء اختيار، ومهما كانت تواجهنا من عوائق، علينا أن لا نكفّ عن مساعينا في تخطي الصعاب، وإذا أردنا أن نرى قوس قزح فما علينا سوى تحمل المطر الشديد، وأن نجرب المخاطر لكي نشعر بأننا موجودون على هذه الأرض، بغض النظر عن النتائج.. دعنا يا صديقي نرّبي أملنا لأجل أن يسير بنا العمر برضا وبجدوى، ولأجل أن يكون هناك ضوء في نهاية دربنا.. ترى من عساه أن يحقق أحلامه كلها وكما يشتهي؟ نحن من نستطيع أن نقرر ونُدع الحياة، أما أن نتجازنا أو نجتازها نحن".

عند التحاقني بالجامعة، فشلتُ ببعض الدروس وأعدتُ السنة

الأولى، اقترح عليّ عامر ألا أعود إلى دارنا، وأسجّل في الأقسام الداخلية للطلبة، لأن أمي ولدتني عند أهلها في خانقين وصرت محسوباً على سكان المحافظات، الذين يحقّ لهم السكن الطلابي.. لم أر أبي منذ فترة طويلة، ولم أتأثر حينما زارتني أمي يوماً وأخبرتني عن تردي صحته وطلبه للتقاعد المبكر بسبب مرض أصاب كبده.. صرْتُ كلما أدخل إلى كلية الحقوق أتذكره وأغضب، كم كنت أودّ دراسة الرسم، لا أدري لماذا نفذت له رغبته بتخصص لا أحبه.. أقنعني عامر بالانتماء إلى اتحاد الطلبة والحزب الشيوعي، فلم أعترض.. أهملتُ دروسي وانهمكت بالعمل الطلابي والحزبي السريين، رغم عدم اقتناعي أو شغفي بما أقوم به.. لم يكن لي أصدقاء ولا زملاء آنذاك إلا عامر الذي تفوق في كلية الهندسة.

- صرْتُ بالتأكيد، توافِق على أي رأي يطرحه صديقك عامر دونما نقاش، لم تبادر لفعل شيء ولم تناقشه في أمر.. بفشلِك في الدراسة الجامعية وبانتمائك لحزب معارض تطارده السلطات الحاكمة، لم تقتلني أنا فقط، بل ستقتل أبانا أيضاً.

لم يحتمل أبي فشلي وأستاء أيما استياء، ساءت حاله الصحية، بعدما علم بانني منهمك بالسياسة، وأنني فشلت في السنة الثانية أيضاً، وأنا على وشك الاختفاء أو سيتم إلقاء القبض عليّ، جرّاء هجمة مُبَيَّنة على المعارضين السياسيين.. قام بحرق كل كتبي حتى الأدبية منها، كل دفاتري وأوراقِي، وكل ما تحويه غرفتي من رسوم تخطيطية ولوحات وبورتريهات، التي كنت أقضي وقتاً ممتعاً بمصاحبتها في كل ليلة جمعة آتي فيها إلى البيت.. زعق فريد نعمان بوجهي، كنت أرى دموعاً مقموعة كادت تطفّر من عينيه: "بئس ما تفعله يا ولد، وهراء ما فعله من هم قبلك، عليك أن تعرف أن حلمنا

الثوري، مثل بيت الحلوى في الغابة، أكلناه فرحين قبل أن تأتي
ساحرة الخيبة وتأكلنا".

فور سماعه بنبأ اختفائي وهروبي من بيت خالتي بعد
اندلاع الحرب مع ايران، اعتكف والدي في غرفته، حزنْتُ
والدتي لذلك وبكت بغزارة.. تفاقم الوضع السياسي سوءاً،
وتكثفت مراقبة أجهزة الأمن، في البحث عن المعارضين
ومطاردة كل الهاربين، ولما تواصلت الحملات الأمنية للقبض
عليهم وتصفيتهم، وجد عامر لي عملاً كحارس ليلي في معمل
الطابوق الذي يشتغل فيه والده، نوّه بأنه سيسعى لي حتى
ألتحق بحركة الكفاح المسلح مثله ويسهّل لي الطريق نحو
الجل.

- خطوة أخرى لك نحو الفشل، لم تخرب حياة أهلك فقط،
بل خربت حياتك معها.. كان الأحرى بك أن تكون مع والدتك
في تلك الظروف، تعينها على تحمل وفاة والدك الذي تسببت
أنت بموته، غير أنك لم تتأثر سوى لدقائق معدودة حينما
سمعت بالنبأ، واصلت عزمك على إتمام مسيرتك نحو
الخراب.

* * *

القارورة الرابعة

عن الجبل

ما حدث لي بعد ذلك يا مظلوم أمر لا يصدّق.. شدّد عامر في حثّه لي على الثبات والمقاومة، وشرح ما كان يجري من أمور مربكة في الحركة السياسية بقوله، "ثمة قيادة شريفة فاعلة وأخرى انتفاعية مترهلة، ولا يمكن التعميم بهذا الخصوص، القياديون هم بشر مثلنا، تكتنفهم أمراضهم الشخصية، والحزب والتنظيم لا يتمكنان من تشذيبها لأنها تعتمد على ما نشأ المرء عليه، أما الكفاح المسلح فهو تجربة جديدة، ولتعلم أن لكل تجربة عثراتها وإخفاقاتها أيضاً، فلا تبني عليها الكثير من الآمال.. نحن في بواكير الشباب، نحمل التمرد والثورة والرغبة في التغيير بين جوانحنا، ومفاهيم تلك الأيديولوجيا الإنسانية تلائم عقولنا وتطلعاتنا،

وعلى وجه الخصوص، نبذ الأفكار الضيقة الطبقية والغيبية والموقف من المرأة والأفكار القومية الشوفينية".

بقيتُ أعمل في معمل طابوق لمدة تقارب السنتين، متخفياً بدشداشة ويشماغ، أنام صباحاً بدلاً من الليل، حتى طلب عامر مني، وبناء على توصية حزبية، أن أذهب إلى كردستان.

- سهّلوا لك الأمر نحو الجبل، ليس لكونك بطلاً ومفكراً لا يمكنهم الاستغناء عنه، وبفقدانه سيفقدون مناضلاً جيفارياً صنديداً، بل آمنوا لك الطريق حتى لا تبوح بأسماء وأسرار عرفتُها، فيما لو تعرضت للاعتقال والتعذيب.. كانوا متأكدين من هشاشتك وعدم إيمانك بالمبادئ والنظرية.

قالوا لي: اذهب إلى كراج النهضة، ستلتقي برفيق قرب المنشأة العامة لنقل المسافرين، تسافران معاً إلى السليمانية ثم إلى قلعة دزه، يستقبلكما بعض المهربين ويأخذونكما إلى مكان معين.. اعرف أنكما وصلتما عندما تسمعان من يقول، أهلاً بالرفاق أنتم في مقر السريّة.

قضيتُ يومين، قبل أن تتضح لي الصورة وأدرك ما أنا فيه، سلّموني إلى فصيل آخر وعرفوا بأني كنت غير مهياً لأي عمل.. أرسلوني إلى الجبل وأدخلوني في دورة سريعة للتدريب على السلاح، كلّفوني بمهام الحراسة المسائية المبكرة، ورحت أثناء ذلك، أمارس هوايتي في التخطيط والرسم لا غير.

- أعطوك بندقية لا لتقاتل بها بل لتدافع بها عن نفسك، إن تعرف كيف تستخدمها، لأن أقوى سلاح استخدمته في حياتك لحد اليوم، هو مسدس رش الماء.. ما هو كفاحك المسلح أيها الرعديد؟ عشت بين الصخور والقمل في البرد والثلوج، وتعفنت أمعائك من أكل العدس والبرغل، كم عدد الذين هربوا

من صولاتك وجولاتك القتالية؟ تتأهب للهرب لو عطس أحدهم
خلف التل الذي تجلس عليه.. متى تحب نفسك وتحترمها، إلى
متى ستظل طائعاً ومذعناً؟

كان لعامر رأي آخر بي حين قال لي: "لا تضيفِ على نفسك
ضالة لا تستحقها ولا تصغر منها يا وحوذي، تذكر كيف
أعطيتَ طعامك مرة لنصير بدين، وأخذتَ الحراسة من رفيق
مريض، وكيف ساعدتَ قرويين على نقل أحمالهم، وكيف كنت
كتفاً لرفيقة نصيرة، بكنت عليه وبثت شكواها ولم تطمع بها
كأنثى، لم تنزل لأحدهم لتنال مكاسب آنية..".

- وتذكر أيضاً كيف أوقدت النار تحت قدر شوربة العدس
وانشغلت بالرسم حتى احترق، فحرمتَ رفاقك من وجبة
الطعام، ولا يمكن لك أن تنسى كيف انفصلت في إحدى
المفترقات، عن مفرزة جلب المواد الغذائية (الأرزاق) من
إحدى القرى، نتيجة لشروذك واستغراقك في خيالاتك حتى
ضللت الطريق، واضطرت المفرزة إلى العودة للبحث عنك،
حتى وجدوك مسترخياً تحت شجرة، لكنهم تعرضوا لرشقات
نار من دورية لأعوان السلطة، اختبأوا بصعوبة وانسحبوا
بمشقة.. هل تذكر كيف غضبوا منك، وكيف أحسن زملاؤك
بنزوعك للابتعاد والانعزال وعدم الاختلاط، فأطلقوا عليك اسم
(أبو اعتكاف) بغرض المزاح؟ كنت على علم بأنك غدوت
حديثاً طريفاً مسلياً، يتحدثون به أثناء جلستهم، مع ذلك كنت
تتفد ما يطلبونه منك.

في إحدى الليالي، ذاع خبر عاجل بأن رفيقاً مسؤولاً
سيزورنا.. تضاعف اهتمامهم بتجهيز المكان وتحضير الطعام،
وبقي الجميع في حالة من الترقب والانتظار، يتكهنون أسباب

زيارته المفاجئة، وينمّ بعضهم عليه بالقول: "أراهنكم بانه سيمرّ أيضاً ولا يسلم علينا كعادته"، "يخشى على حقيته الدبلوماسية من الحسد"، "يقال إن عائلته كلها تعيش في أوربا، وما أن ينهي دورة تدريبية في بلد اشتراكي حتى يلتحق بأخرى، أو يقضي الصيف في منتجع صحي"، "يتمتع أقرباؤه بزمالات دراسية في الاتحاد السوفيتي وغيره من الدول".. لكن آخرون دافعوا عنه بالقول، "أنه يحمل روحه بين كفيّه، باعتباره يتحمل المسؤولية التنظيمية، وهو أول من يضحي وآخر من يستفيد".

- من ينتقد المسؤول هو نفسه من يتزلف إليه ويسرف في مدحه حين يكون أمامه.. أما أنت فلم تكن من هؤلاء ولا من غيرهم، لا تنتقد ولا تمتدح ولا تتزلف وليس لديك أي رأي، كنت إنساناً أثرياً لا طعم ولا لون لك.

انزويت في ركن قصي، سائداً رأسي إلى صخرة في الجبل، أغمضت عيني وسرحت، لا أتذكر ماذا كان يخطر ببالي ساعته، حتى أنني لم أنتبه إلى وصول الزائر ولا إلى ضجة استقباله، إلا بعد أن ناداني صوت أمر:

"نصير أبو وحيدة، احضر إلى داخل الغرفة ليراك الرفيق".

شاهدت في الغرفة وجوهاً لم يسبق لي أن رأيتها من قبل تتلفت نحوي بنظرات غير ودية، جمع من رجال يجلسون حول موقد قديم تهامسوا فيما بينهم ودعوني إلى الاقتراب، سعل أحدهم ثم قال: "رفيق أبو وحيدة، سنكلفك بمهمة إلى بغداد، أولاً لأنك وجه غير معروف، وثانياً لأنك تتمتع بالهدوء وطولة البال والانضباط والطاعة، تهيأ بعد أسبوعين من أجل توصيل رسالة حزبية إلى العنوان الذي سنخبرك به لاحقاً، والذي

يتوجب عليك حفظه شريطة ألا تكتبه" .. سألوني عن المكان الذي سألجأ إليه وأكدوا على ضرورة الحرص وتوخي الحذر.. أعطوني بعد مضي الفترة المقررة هوية مزورة، وأوصوني بإخفاء البريد في مكان آمن تحت ملابسني، وبعد أن استذكرت العنوان مرات عديدة كي لا أنساه، نزلت من الجبل إلى مصير مجهول في طريقي إلى بغداد.

- يا وحيد، يا ابن أبي وأمي، لا أدري كيف جازفتَ بنفسك بمثل تلك الظروف، وبعيداً عن أمر هذا التصرف الأحمق، لم تسأل ماذا يمكن أن تحتوي تلك الرسالة، ربما كانت تقييماً لوضعك، ينبئ الآخرين بأنك غير صالح مطلقاً للعمل العسكري، وانك شخصية غير متوازنة نفسياً، أو ربما كان فيها طلب تكليفك بعمل آخر، وإيجاد حل لوضعك، متى ستعرف أن تضع خطاك في المكان الصائب؟

لم أكن أعرف ما فيها، لأنني لم أفتحها واستهنت الأمر آنذاك، إلا أن الكثير من الأمور المذهلة والتي لا تخطر على البال، حصلتْ حال عودتي إلى بغداد وأثناء وجودي فيها.

* * *

القارورة الخامسة

العودة إلى بغداد

أخبرني عامر بأن ثمة اندساس في التنظيم، لذا يسترعي الانتباه إلى كل خطوة نخطوها، لتجنب إلحاق الضرر بالعمل أو بالفرد نفسه، لأن كثيراً من الرفاق اعتقلوا جراء الإهمال والتراخي، اصطادهم رجال أمن السلطة لدى وجودهم في العاصمة بغداد أو بقية المحافظات بتكليف حزبي، وما كان عليّ سوى نبذ اللامبالاة، وإبقاء عينيّ مفتوحتين، متوخياً مطلق اليقظة والحذر.

وصلتُ حدود بغداد حينما كانت الشمس تنهياً للمغيب وعلى وشك الرحيل.. تخطيتُ بهويتي المزورة عدة مفارز عسكرية للتفتيش، لم يخطر على بالي خطورة موقفي وأنا أحمل الرسالة الحزبية بين طيات ملابسني، انتفى إحساسي بالخوف، كنت طبيعياً على نحو ما، لم يجدوا ما تعودوا أن يبحثوا عنه في

العيون، لا ارتباك ولا إشاحة عن نظراتهم الصقرية ولا رهبة، بل ما كنت أزيح بصري عن عيونهم حين ثبتوا نظراتهم المستفزة في وجهي، ذلك حسب اعتقادي ما جنبني شكوكهم وقسوتهم.

- ليست قوة من طرفك بل لامبالاة، حتى إن أمسكوا بك فلن تنفعهم أبداً، لأنك ما كنت تعرف شيئاً، ما عدا وجود تلك الأوراق السرية في جيبك.

كان عليّ أن أبيت الليلة في مكان آمن وأن أسلم ما بحوزتي نهار غد، في العنوان المطلوب.. لم أجد في بالي أي بيت أعرفه حين سألوني سوى الدار التي نشأت فيها.. أخذتُ سيارة نقل عام إلى منطقتنا ونزلت قبل مبزل شطّيط، رحت ماشياً صوب بيتنا الذي يقع على أطراف منطقة بغداد الجديدة، لا تفصله إلا خطوات عن منطقة تل محمّد.. في الشارع، أبصرتُ أمامي ثلاثة شبان يسيرون بنفس الاتجاه، تمهلُ في سيري وأبقيتُ مسافة مناسبة بيني وبينهم. راحت يدي تتلمس ما خبّأته في صدري من حين لآخر.. وعلى حين غرّة، مرّت بالقرب منهم سيارة مدنية مسرعة بلا رقم، أحدثت جلبة عند توقفها، ونزل منها رجال مسلحون ما أن لمحهم الشباب حتى فرّوا راكضين للأمام، صرخ بهم من ترجل من السيارة وقاموا بملاحقتهم.. توقفتُ قليلاً لأستوعب ما يجري من حولي، رنّت في ذهني كلمات عامر، "لو وقع أحد النازلين إلى الداخل في خطر وعرف أن ثمة من يلاحقه، ينبغي عليه التخلّص من البريد بسرعة وبذكاء".. وبدون تردد أو كثرة تفكير، أخرجت قنينة صغيرة من الخمر، هيأها عامر لتلك المناسبة، شربتُ قليلاً منها وسكبتُ الباقي على ملابسي، انحنيتُ على سياج مبزل المياه القذرة متظاهراً برمي القنينة الفارغة، وأخرجت بلمح

البصر ما في جعبتي من أوراق صغيرة، وضعتها بداخل القارورة ورميتها في المياه الضحلة لبركة شطيّط، من دون أن ينتبه عليّ أحد.. مشيئً بضع خطوات بحذر، وفجأة سمعت صوتاً خشناً يأمرني: "توقف، إلى أين أنت ذاهب؟" .. أجبته ببرود بأنني في طريقي إلى البيت.. طلب أوراقى فأريته هويّتي المزورة، نظر إليها طويلاً وظهرت على وجهه علامات الامتعاض من رائحة خمرة منبعثة من ملابسى، أمرني بغضب وبكراهية أن أذهب: "امض من هنا، عرقجى سگير" .. سلكتُ شارعاً فرعياً، رحْتُ أمشى بهدوء دون أن أتلفت إلى الوراء، متوجهاً نحو بيتنا.

- كيف يمكن لرجل طبيعى، أن يكون هادئاً في مثل تلك الظروف المشحونة بالرعب؟ غيرك يسقط قلبه في قدمه من الخوف أثناء مواجهة الموقف، أما أنت، فنظرت في عين رجل الأمن مباشرة، هذا لا يعنى انك شجاع وصنديد، بل أنت رجل بلا مهجة.. استعد الآن لمواجهة الآتى.. كم مضى من الزمن وأنت بعيد عن تلك الدار، وعن عيون أمك الباكية؟ لا أريدك أن تحسب أو تتذكر، زمن مضى وانقضى، ما جدوى حصره في إطار ومقياس؟

لاح لي بيتنا من بعيد، بدا لي قديماً كئيباً كأنه بيت أشباح، هل سأجدها هناك؟ بالتأكيد، أين ستذهب.. لكن كيف ستستقبلني؟

- بالدموع طبعاً، أنت عذبتها يا وحيد، يوم قتلتني ويوم غادرتها وتركتها بمفردها.. لا تنسَ أنك أخذت عهداً على نفسك بأن ترسم الابتسامة على ثغرها وتجعلها تكفّ عن البكاء.

لا تسألني متى سآفي بوعدى لأننى لا أعرى ما إذا كانت أمى على قيد الحياة.. حين اقتربت من الدار، لاح لى ضوء شاحب فى الداخل، مددت ىدى إلى جيبى لأخرج مفتاح البيت الذى كنت احتفظ به طوال الفترة الماضية، فتحتُ باب الدار بحذر وهدوء ودخلتُ.. من خلال ضوء الشارع الشحيح، بانى لى الحديقة مهملة وممتلئة بالحشائش والأعشاب، وقع نظرى على شجرة التوت الكبيرة، ما زالت بمكانها فى تلك الزاوية المقيمة، لم يكن هناك غراب ينبع عليها لكننى سمعتُ نعيقه فى أذنى.. اجتزْتُ الطارمة وتوجهتُ نحو المطبخ الذى كان بابه مفتوحاً، دفعت الباب ودخلتُ.. رأيتها جالسة فى الصالة: "من هناك؟"

وقفتُ فى مكانها صامئة لوهلة حين رأتنى.. يبدو أنها لم تتفاجأ كثيراً فكما لو كانت تتوقع مجيئى.. تقدمتُ نحوى تسبقها دموعها: "جئتُ هارباً؟".. لفظتها بصوت خفيض وتحركتُ بصعوبة نحو باب المطبخ، أغلقتها ثم أطفأت ضوء الصالة، بانى حركتها بطيئة ونظرها ضعيفاً، كانت تتلمس الكراسى بيدها عند المشى، عانقتنى طويلاً بقوة وبصمت، بكثُ بصوت مكتوم كأنه نشيج أو أنين.. بعد فترة، مسحَ عيونها بفوطتها ثم بدت كأنها تنوى الإقدام على أمر جاد.. طلعتُ السلم بخطى وئيدة نحو غرفتى، تبعُها، أغلقتُ الستائر ولم تفتح المصباح الكهربائى، نفعتُ معها تجارب ودروس العمل السرى فى الاختباء والحذر، التى تعلمتها من خلال معاشرتها لأبى.. سحبتنى من ىدى نحو خزانة كبيرة، لم تكن فى غرفتى سابقاً على ما أذكر.. فتحتُ بابها، ثم رفعتُ لوحاً خشبياً خلفاً مواجهاً للحائط بدا لعينى كأنه مخبأ، يمكن لرجل أن يقف وراءه دون

أن يثير أي شبهة، إذا ما أرجعنا القطعة الخشبية إلى مكانها ثم علّقنا الملابس:

"هنا كان يختبئ أبوك أيام زمان".

خلف خزانة الملابس والقطعة الخشبية الخلفية، وفي هذا الحيز الضيق وفي هذا الظلام، بقيت كل نهارات السنتين التاليتين على وجه التقريب.

لم أكن أطلع من مخبئي إلى الغرفة حتى وإن شعرت بالجوع، إلا في بعض الأحيان.. كنت أنزل ليلاً بعد أن أسمع من أمي الإشارة التي كانت صوت شحذ سكينتين ببعضهما، أدرك حينها أنّ كل شيء آمن، أذهب إلى المطبخ، أراها تنتظرني في الظلام ليكون حينها الطعام جاهزاً، أتناول وجبة الطعام الوحيدة قبل أن أصعد إلى مكاني.. ترقبني والدتي وأنا أكل، تهمس لي بأهم أحداث اليوم:

"اليوم جاؤوا وسألوا عنك للمرة الرابعة، فتشوا كل أنحاء الدار، حمداً لله انهم لم يكتشفوا أمر الخزانة، لابدّ أنك أحسست بهم، خفتُ عليك أن تفزع وتتحرك.. بعد ذلك جاءت خالتك، كعادتها عند نهاية كل أسبوع، ومعها كل احتياجاتي من السوق، ألحّت عليّ بالذهاب إلى الطبيب لقياس السكر وفحص العيون، لم أقبّل.. أما غداً فهو موعد زيارة خالك الشهرية، سيأتي من خانقين ليبقى يومين في البيت من أجل قضاء بعض حاجاته في بغداد.. سوف لن تخرج من الخزانة، ستأكل جيداً ليلتها وتستخدم قطع القماش الموجودة معك، لو احتجت لقضاء حاجتك".

- لم تكن تفكر يا وحيد، كم من الوقت سيمضي وأنت على هذا الحال، ربما أصبحت تود البقاء في الخزانة ولا تشعر

برغبة في الخروج منها.. كيف تشعر بالاطمئنان وأنت تلقي أعباءك على والدتك المسكينة، في تأمين كل احتياجاتك وإخفاء سر وجودك عن أعز الناس لديها؟ تحافظ عليك لتكون على قيد الحياة، ولا شيء أكثر من ذلك، لا يهمك شيئاً سوى أن تكون حياً تتنفس، لم تسأل نفسك، كيف كانت تدبر أمر إطعامك والحفاظ عليك وهي امرأة مريضة وضعيفة؟ كم كنت أنانياً!

حلّ فجر ذلك اليوم الذي لا يمكن أن يمحي من بالي، غدا البيت ساكناً، لم أسمع شحذ سكاكين والدتي لليلتين، صارت رائحة المغارة التي أختبأ فيها خانقة لا تطاق.. قرّرت النزول اضطراراً حتى أسدّ جوع بطني وأذهب إلى المرافق الصحية.. حين أصبحت في المطبخ، لم أشم رائحة تسخين طعام ولا أثر لأي طبق على المائدة، فتحت الثلاجة آملاً أن أجد فيها شيئاً يؤكل، لكنها كانت فارغة، لم أسمع صوت والدتي.. هل ذهبت إلى مكان ما وتركتني، هل خرجت أو سافرت مع خالتي، لكن لماذا لم تهئ لي طعاماً أو تهمس لي من خلف باب الخزانة بأنها مسافرة؟ مشيت بخفة وحذر نحو غرفتها، رأيتها ما زالت نائمة في فراشها، ربما أخذها النوم ونسيت إعداد الطعام لي، أو قد تكون مريضة ومتعبة وأطالت في نومها.

اقتربت من فراشها بهدوء، مددت يدي نحو كتفها ولمستها، لم تتحرك، همست لها بصوت واهن، "أمي، أنا جائع، أين الطعام؟".. رنت في بالي كلمات قالتها منذ يومين، "لم تعد تتوفر أدويتي بعد اليوم في الصيدلية، خالك ستدبر الأمر، وستجلبها لي من الخارج".. لم تردّ على ندائي.. ما الذي حلّ بها يا ترى، هل هي مريضة، مالي أحس جسمها بارداً ولا ألحظ نفساً يخرج من صدرها؟ وقفت مبهوتاً أمام فراشها، لا

أدري كم ساعة بقيتُ على هذا الحال، نَبَّهني من شرودي صوت غراب ناعق آت من فوق شجرة التوت في الحديقة، وتلاويح فجر ضعيف بانّت من خلف ستائر النافذة.. ما الذي يتوجب فعله الآن؟ لا أدري.

علت الشمس في قلب السماء وأنا جالس قرب سريرها، ألمسها من حين لآخر، أهزّ يدها الباردة وأفرکہا برفق، هل ستنهض لو فعلت ذلك؟ لو حدث أن أفاقت وقامت، ستلعن نفسها وتقرّعها لأنها تركت فلذة كبدها ووحيدها دون طعام، وأنه بات الآن مكشوفاً في الدار، معرضاً نفسه في عز الصباح للخطر، ربما سيدقّ أحدهم الباب الآن وينكشف أمره، فيقوم بإبلاغ رجال الأمن عنه أو يطلق النار عليه أمامها مباشرة.. كلا، لا تخشي شيئاً يا أمي، ما عليك سوى أن تنهضي.. لكن مالي أرى عينيها مغمضتين ووجهها شاحباً؟ لم أكن أريد سوى رؤيتها سعيدة وبلا دموع.. من الغريب أن لا أتذكر شكل أسنانها أبداً.. ستصحو الآن، لا يمكن أن تتركني وحيداً، ستفيق، لأنها كل ما أملك وأعزّ، وكل ما أنتمي إليه في هذا العالم الموحش.

- يا لغبائك يا وحيد، ماتت أمك يا منحوس، ما كان يهملك فقط هو ماذا ستأكل وكيف ستبقى وحيداً.. لا يعقل ذلك، كيف تدعها تموت وأنت لم تحقق لها أمنيتك بعد في أن تراها تبسم، هذا ليس من الإنصاف بشيء، حنّث بوعدك لها أيها الابن العاق.. ماذا ستفعل الآن وكيف ستقّذها؟

تعجّب بعض المارّة حين شاهدوا شبحاً حافياً ملتجئاً بشعر طويل، يقف جامداً بالبيجاما عند باب بيت أم وحيد، غير أنهم

لم يطيّلوا النظر إليه، لأن انتباههم كان منصّباً على ما يجري عند بداية الشارع.

لغط كبير، سيارات واقفة، ناس متجمعون متفرجون، وآخرون باكون صارخون، رجال أمن يملؤون المكان، يطلقون شتائم وسباباً وأوامر من حين لآخر بنبرات عالية، يدفعون بأيديهم نساءً باكيات ورجالاً بملابس نوم، يتوسل هؤلاء طالبين إعطاءهم فرصة، لترتيب أوضاعهم وأخذ الملابس والطعام للأطفال معهم، لكن كل ما يسمعون من أتباع السلطة هو كلمات نابية مغلفة بشتائم مثل، "تبعية، مجوس، خونة، إلى اللوريات، هيا يا كلاب، يا أخوات الـ..".

رجال ونساء من المحلّة لا أعرفهم، ينحشرون بين أيدي رجال مسلّحين، يجرّونهم نحو سيارات مكشوفة، يعبئونهم على متنها.. هل يمكن أن يساعدوني ويتعاطفوا معي، إن أقول لهم بأن أُمي ستموت وأنا أريد سيارة إسعاف لها أو أي علاج لمرض السكر؟

- أو يساعدونك في دفنها أيها المغفل، أما تراها ميتة في البيت؟ توجّب عليك، إكراماً لها، ألا تتركها في الدار لئلا تتعفن.

تقدمت بخطى وثيدة من مكان الحدث ووقفت دون حراك، خرج من دار قريبة رجل أمن يسحب إلى الشارع امرأة تصرخ، سقطت على الأرض بقربي وفي يدها دمية، حاولت حينها مدّ يدي لكي أساعدها على النهوض، وفجأة، امتدت قبضة رجل أمن نحوي، أمسك ذراعي بيدٍ وسحب المرأة باليد الأخرى، ظل يشتم ويصرخ بكليتنا، "هيا إلى الشاحنة يا خونة..".

هيا يا أولاد القـ.. اذهبوا إلى أسيادكم عبر الحدود.. افسحوا مجالاً لهذا المجنون معكم".

لم أتمكن من التفوه بكلمة، أحسستُ اني فقدت كل حواسي وقدراتي على الدفاع عن نفسي وإنكار تهمة التبعية، رحلت أتأتى وأتلعثم بكلام غير مفهوم لمن حولي.. غمغمتُ:

"سد سـ سيّارة.. إك إك إك.. إسد إسعاف... أم أم.. أمي.."

ما من أحد أعار أدنى اهتمام لكلامي، أو انتظر ليسمع ما أقوله، بل ضحكوا عليّ وشتمونني ثم دفعوني إلى الشاحنة، وجدت نفسي بين جموع كثيرة من بشر، باكية ناعية متذرة إلى السماء، ناظرة إلى الخلف صوب المحلة والشارع، وإلى ما تركوه من أهل وأطفال نائمين أو بيوت وممتلكات وأعمال.. سرعان ما تحركت بنا الشاحنة وتبعتها لوريات أخرى.. كل شيء صار يبتعد خلفنا، بعد أن ساروا بنا لا أعرف إلى أين.

طوال الطريق من بغداد حتى محافظة ديالى، ما فتنّت المرأة صاحبة الدمية تبكي وتردد اسم ابنتها التي كانت نائمة وبقيت لوحدها في البيت.. تصرخ من حين لآخر ثم تهدأ قليلاً ويتحول صراخها إلى أنين مكتوم حتى صمتت بعد مدة، هل يفسّر سكوتها بأن وجعها يحفر بها من الداخل، أم إنها أصيبت بالجنون؟ كل سبب وارد، ما عدا أنها قد تكون استسلمت واستكانت.

عند حدود خانقين، نزل من الشاحنة الرجال المسلحون، ربما للتزود بالطعام أو للذهاب إلى المرافق الصحية، سلّموا أمر الحراسة والتعداد، إلى حارس حدودي من المنطقة والذي حالما رأيته، صرخ بي أمراً:

"ما اسمك وما اسم أبيك وأمك؟"

اعترت عيني غشاوة كثيفة، لم أكن أرى سوى صورة أمي جامدة ممددة على سريرها، وشجرة التوت في حديقة الدار وعليها غراب يخترق نعيقه أذني، أكاد أبصر أبي ضاحكاً مقهقهاً بصورة هستيرية، متقدماً نحوي وفي يده حزامه الجلدي.

"أنت أطرش، ما اسمك وما اسم أبيك؟ تكلم"

ثمة شيء غريب بداخلي، جعلني أنطق بعد صمت بان طويلاً.

"وحد .. وحيد، وحيد فريد .. نع .. نعمان"

"وأمك؟"

"رضد رضية عب .. عبد القادر"

صمت العسكري برهة، ثم أمرني بالنزول:

"انزل .. نعم أنت، انزل".

مشيت قدماي دون أن يقودهما دماغي، لا أعرف ما الذي حلّ بعقلي الغائب عما يجري من حولي.. لكنني العسكري بأخمص بندقيته بخفة، أمرني بالألا أتحرك من مكاني ثم غاب عن نظري.

- ها قد حلت نهايتك يا ابن رضية، مرحى بها، تستحق كل ما سيجري لك، لم تكن محبوباً ولا محباً أيها اللاشيء، ما يشعره الناس نحوك لا يتعدى الرثاء والشفقة، وسوف تنسى بعدما تموت سريعاً وكأنك لم تكن موجوداً، سيكون لك قبر مهجور لا يزوره مخلوق، وما من أحد سيضع عليه الزهور،

حتى الثعالب تأنف من التبول عليه.. قتلتني وقتلت أباك، ثم أمك التي تركتها ميتة ولم تحاول دفنها.

أموت أو أعيش لا يهمني، كل الأمور عندي سيّان، ما الذي أحرص أو أخشى عليه؟ لا شيء.. سينهون حياتي ويخلصوني من نعيق الغراب الذي ينقف رأسي، افرح يا مظلوم، سألحق بك والتقيك.

تركوني لوحدي تائهاً، نظرتُ حولي فلم أر غير بناية تبدو كأنها سيطرة حدودية، تحوطها أرض واسعة قاحلة، وخلفي الشاحنة فيها ناس تحولوا إلى أشباح صامتة.

عاد عسكري الحدود ثانية بعد دقائق حاملاً معه كيساً أسود، صاح بي:

"أنت مطلوب للعدالة، هيا معي لتتال جزاءك"

وبدون مقاومة أيضاً، سمحتُ للعسكري أن يدخل رأسي في كيس أسود وأن يقودني لا أدري إلى أين.

بعد مسيرة زمن قصير لم أحس بثقله، دفعتني يدان إلى ما يشبه غرفة كما خمنت، ثم راحت اليدان تنزعان عني الكيس الأسود برفق.. سمعتُ صوت العسكري هامساً:

"ألم تعرفني يا وحيد؟"

هزّزت رأسي نافياً، لم أقوَ على النظر والتركيز، رأيت العسكري يتلفت مرتبكاً، يوشر إليّ لكي أختبئ بسرعة في صندوق كبير داخل الغرفة، همس في أذني من جديد:

"عندما تنتهي فترة خفارتني، تكون اللوريات قد رحلت، انتظر مني إشارة"

انتظرتُ فترة لا أعرف مداها وما أسهل الانتظار لمن هو مثلي.. بعد حين سمعت أحدهم يفتح عليّ الصندوق، بدا لي انه العسكري نفسه الذي أنزلني من الشاحنة، وما زالت ملامح الرهبة والحذر مرتسمة على وجهه.. نطق بصوت خفيض كلاماً حيرني:

"ارتد هذه الملابس الفلاحية، واتبعني إلى السيارة بسرعة، وعندما تجلس، اخفض رأسك حتى لا يراك أحد".

فعلتُ ما أمرني به، وتحركتُ بنا السيارة نحو مكان ما.

لم ينبس العسكري بكلمة طوال الطريق حتى توقفتُ السيارة، حينها التفتَ نحوي، قائلاً بصوت عالي النبرة:

"اخرج يا وحيد، مرحباً بك يا ابن عمتي، كن مطمئناً ستكون آمناً في بيت خالك، اعذرني لو تعاملت معك بقسوة أمام الآخرين، كنت مضطراً لذلك حتى لا أجلب الشك إلى نفسي، ألم تعرفني؟ أنا عرفتك من الشبه بينك وبين عمتي رضيّة، ومن اسم والدك ووالدتك".

دارت بي الدنيا، أغميتُ عليّ أما من الصدمة أو من الجوع، وحينما أفقت، وجدت نفسي على سرير نظيف وخالي واقف عند رأسي بعينين مغرورقتين بالدموع.

أطعموني دجاجاً ورزاً وأدخلوني إلى الحمام، حلقوا شعر رأسي ولحيّتي، ألبسوني ملابس فلاحية بسيطة، حتى أبدو كأني من أهل المنطقة، أخفوا رأسي ونصف وجهي بغترة، وجهزوا لي بيت الحارس في بستانهم البعيدة لكي أستقر فيه إلى حين أن يتدبروا أمري.

يوم رجع خالي من بغداد بعد أسبوعين، زارني ليطمئن

عليّ، واساني وأخبرني عن انتهائه من مراسيم دفن أمي وبيع البيت، أبلغني أيضاً أنه خبأ المبلغ عنده انتظاراً لأمر يخطط له في باله.

سرعان ما مرت أكثر من سنتين على وجودي في البستان، كما علمت من خالي، نقّدت ما أوكل إليّ من أعمال فلاحية بسيطة، مثل سقي الزرع والحراثة وقطف الثمار وغير ذلك، حتى جاء اليوم الذي أخبرني فيه أن عليّ الاستعداد لأمر هام بشأن مستقبلي، سيحدث في العام التالي وسيغيّر حياتي، وما عليّ سوى الصبر الآن، وافقته على قوله، أعطيته وعداً بانتظار وتنفيذ ما سيتدبره لي.

- حافظوا على وجودك الميت أصلاً.. لا بد أن الجميع اندهش من ردود أفعالك الباردة وتساءلوا في أنفسهم عن سلامة عقل قريبهم، غير أنهم ربما فسروا ذلك بسبب ما رأيته من أهوال ومصائب في حياتك البائسة ولا بد أنهم دعوا لك بالسلامة.

جاء إليّ خالي ذات صبيحة فرحاً:

"ابشر يا ابن الغالية، سنوصلك إلى الشام، بعد أن دبرنا المبلغ اللازم للمهرب ولإقامتك، وهياناً لك الظرف الملائم والمضمون، استعد اليوم ليلاً، سنغادر إلى (الرمادي) وبعدها إلى منطقة (القائم)، وسنخبرك هناك ما الذي عليك فعله".

- كان من الأجدر بهم أن يجعلوك تنال عقابك، لا أن تذهب في رحلة سياحية مستمتعاً بدمشق وأجوائها.

* * *

القارورة السادسة

عن دمشق

ستعلم يا مظلوم كم تجور عليّ أنت حينما سأحكي لك عما جرى لي في دمشق.. لم أحسّ بما قيل عن ثمة مدن ترسخ في الذاكرة، وأخرى تُنسى من غير أن تُبقي ذكرى خلفها.. شخصياً لا أدري أيّ منهما دمشق، ما أعلمه، أنها كانت أول مكان أرحل إليه خارج العراق.. مدينة واسعة أليفة أنيقة مزدحمة، تذيب الحرمان لمن لا يملك مصدر دخل كافٍ فيها، يشقى ناسها طوال يومهم ورغم ذلك يشكون من شظف العيش، فكيف حال الغريب؟

- كيف ستجد لك موطأ قدم في هذه الحلبة، وأنت لا تجد سوى النوم وقضم النفس وجلدها؟

كنت أقضي النهار نائماً في غرفة استأجرتها مع بعض

الشباب، نادراً ما ألتقي بهم، وإن صادف وقابلتهم لا أحدثهم إلاّ لمأماً، لا أعرف كيف يعيشون حتى بعد أن مرّت سنة تقريباً على سكني معهم.. أصبحوا أحياناً لأداء بعض الواجبات البيتية، مثل جلب المازوت وتنظيف الغرفة أو غسل الملابس ونشرها.. لم أذهب إلى مركز المدينة إلاّ مرّات قليلة وعندما التقي بالسائق الذي أوصلني من الحدود، من أجل استلام بعض النقود التي يبعثها خالي من العراق، وغالباً ما يكون الموعد في مقهى الروضة الذي يرتاده كثير من العراقيين المغتربين، بغرض لقاء بعضهم البعض وسماع أخبار بلدهم، أو للبحث عن أشخاص معينين وطلب حاجة ما.. لم يكن لي صديق أقبله أو حاجة أطلبها، وليس عندي توق لسماع أخبار البلد.

جلستُ في المقهى يوماً بأمل لقاء السائق الذي يبعث خالي النقود عن طريقه.. اتجه نحو رجل لم أعرفه للوهلة الأولى، وحينما اقترب، أحسستُ بأنه ليس غريباً، ألقيتُ قدح الشاي من يدي على الطاولة بهدوء ناظراً نحوه بإمعان.. صاح القادم بصوت يشوبه فرح بالغ: "وَحّودي حي يرزق!"

لم أعرف عامر جاسم للوهلة الأولى، فقد تغيّر بشكل مذهل، خفّ شعره واكتنز بدنه وبدأ أنيقاً، وبدت نبرة صوته أكثر عمقاً لمّا قال: "ماذا تفعل في الشام يا رجل، وكيف وصلت إلى هنا؟ أخبرني عن كل شيء بالتفصيل".

- ها قد تغيّر صاحبك مثل كل الناس، أما أنت فما زلت على حالك، كنيباً مزرياً، ولم تحقق أي شيء في حياتك، ابتهج قليلاً الآن، ها قد وجدت من يرشدك أيها الضائع.

حكيتُ له بابتسار عمّا مرّ بي من أحداث وأمور، وروى لي بصدق عن مشاعر حزينة أصابته، عندما سمع من الرفاق نبأ

اختفائي حال نزولي إلى بغداد وانقطاع أخباري كلياً، حتى تبيّن الجميع بأنّي وقعت بين أيدي رجال الأمن الذين قاموا بتصفيتي وإخفاء أثري، فاعتبروني شهيداً ضمن قائمة طويلة، وأسبغوا عليّ صفة المجد والخلود.. أفاض عامر بالحديث وبأسلوب مشوّق، عمّا أنجزه في السنوات الماضية، منذ فراقنا في كردستان، علمت انه مُنح زمالة دراسية وسافر إلى الاتحاد السوفيتي وحصل على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد، راح يشيد بنجاحاته وبحياة رحية يعيشها، فهو يعيش في الشام منذ فترة لا بأس بها ويحاضر في إحدى جامعاتها.. صمتَ برهة ليقول: "يا لها من حياة غريبة حقاً!.. دعنا من الماضي الآن، أخبرني، كيف ستتدبر أمورك من ناحية المعيشة هنا؟"

- صمتَ كعادتك وفكرتَ في قرارة نفسك، هذا هو عامر جاسم، سيجتهد في إيجاد حل لمشكلتي مثلما تعودتَ عليه في السابق، ستتركه يا وحيد يخطط لك حياتك، دعه يكون الوصي عليها.

لم يخب ظني بصديقي حين أخبرني بأنه يعرف بعض العاملين في منظمة التحرير الفلسطينية، وأنه سيجد لي عملاً عندهم، وما عليّ سوى قبول أي عمل مؤقت حالياً، لأن النظام آيل للسقوط وسنرجع كلنا في القريب العاجل إلى بلدنا، أو في أسوأ الحالات، نسعى إلى طلب اللجوء إلى "الدول الإمبريالية" ونناضل من هناك.

في تلك الفترة، خرج كثير من العراقيين من الشام ودخلت إليها أعداد أكبر، كانت دمشق ساحة متغيرة تستقبل قادمين وتودع مغادرين، وغالباً ما ترى في شوارعها وجوهاً جديدة حائرة تبحث عن أشياء كثيرة مفقودة، كعائلة أو عمل ومصدر

رزق، وترى وجوهاً أخرى متبرمة عابسة، تنشد القرب من العراق والاتصال بالأهل، وتلك المدينة برأيهم، أرحم من السفر إلى المنافي الباردة في العالم، تتناهى إلى سمعي كل أحاديثهم وأنا جالس في المقهى.

أبلغني عامر أخيراً بأنه وجد لي عملاً كحارس ليلي، أوصاني بضرورة السهر وعدم النوم أثناء العمل.. رحت أطلع إلى الياقطة العريضة فوق رأسي، (منظمة التحرير الفلسطينية - مخيم فلسطين بدمشق)، أتمعن السماء وما فيها من نجوم، وأتخيل الليل وحيداً مثلي رغم أنه يغطي كل شيء، أقضي لياليّ بشرب الشاي، أقرأ خلسة ما يتوفر بين يدي من كتب وأقوم بعمل سكيثشات رسم في بعض الأحيان.. ساعدني مورد هذا العمل البسيط على تناول وجبتين متواضعتين، وعلى دفع أجور سرير في الغرفة المشتركة التي كنت أنام فيها صباحاً، ولا أكون فيها وقت عملي الليلي.. لكن جاء المسؤول المالي في الجبهة يوماً وأخبرني بأنني سأستلم آخر مرتب لي قريباً، لأنهم استغنوا عني.. لم تكن لديّ أدنى فكرة عن سبب طردي، ولم أسأل عن موجه، عرفت بالصدفة فيما بعد بأنهم وجدوا شخصاً آخر يقوم بالعمل عوضاً عني، وهكذا وجدتني بلا عمل.

- لم تستقتل من أجل الحفاظ على فرصتك في العمل يا وحيد، ولم تسع من أجل إيجاد فرصة أخرى تطوّر بواسطتها ذاتك وترتقي، تبقى اتكالياً خاملاً طوال عمرك، منتظراً من عامر جاسم أو أحد آخر أن يحلّ لك مشاكلك.

بحث الشباب في الغرفة عن فرصة جديدة، وجدوا لي عملاً كموزّع خبز في فرن قريب، اشتغلْتُ فيه بمبلغ زهيد، أدفع منه

إيجار الغرفة المشتركة ووجبة فلافل في اليوم، حتى حدث ومرضت يوماً فانقطعتُ عن الذهاب إلى الفرن لمدة أسبوع، طردني صاحبه ووظّف شاباً آخر مكاني.. صار الشباب يأخذوني معهم من عمل يومي إلى آخر، أشتغل يوماً حمّالاً وآخر منظفاً أو قاطعاً لحشائش حدائق الدور أو أذهب لقطف الحمضيات والزيتون في الحقول، وأحياناً كثيرة أبقى لعدة أيام بدون عمل، يتعاطفون معي ويشاركوني طعامهم.

ذات يوم جاءني عامر إلى مكان سكني بعد أن علم بوضعي. نوّه بأنني سوف لن أجد عملاً آخر يناسبني بعد اليوم في هذا البلد بسبب ندرته، وأن أنسب حل لوضعي الحالي هو اللجوء السياسي، فقد حان الوقت للعراقيين أن يهاجروا إلى بلدان الغرب.. أبلغني بأن فكرة اللجوء إلى إحدى الدول الأوروبية تدور في ذهنه وتتبلور، إذ كان منذ طفولته يحلم بزيارة باريس غير انه يعشق دمشق أيضاً.. ذكر لي بأنه سيفكر بأمر اللجوء ملياً حينما تسوء الأمور، ليكون آخر الحلول، أعلمني بأنه سيحاول تدبير فيزا من أجلي إلى إحدى الدول حسبما هو متوفر، أصابني ذهول أسر حينما سألني عن الدولة الأوروبية التي أفضّلها، تسمرت عينايا في وجهه ولم أجد إجابة محددة، ضحك وتواصل: "أنت تحسن اللغة الإنجليزية، ربما بريطانيا ستكون مكاناً جيداً لك، حاول تدبير المال من خالك أو من أي مصدر آخر لأجل سفرك".

مضت فترة من الزمن، في انتظار استلام دفعات مبالغ من خالي، لا أدري كيف سيدبرها ولم تكن لي رغبة في أن أعرف، اتصلت بعامر الذي قابلني في نفس المكان والزمان، سلمته كل ما أرسله خالي، ووعدني بأنه سيتدبر أمر الوثائق المطلوبة للسفر.

ليلتها، رحتُ أتأمل النجوم من نافذة الغرفة التي على السطوح، كانت مضيئة متألئة، غير عابئة بما يجري لبني البشر تحتها، وحتى القمر، يطلع على الدوام بإطلالاته المتعددة ومواقيته، غير دارٍ بما يجري على الأرض، نظرتُ إلى الشاب النائم في السطح، كان يشخر ولم تقلق نومه لساعات بعوض الصيف، كان يكتفي بمدّ يده نحو مكان اللسعة، يحكّها قليلاً ثم يعود إلى النوم.. هل ستسبح لي الفرصة لكي أهاجر وأترك كل هذه المعاناة خلف ظهري؟

- أنت الوحيد الذي يتأمل، غير أبه بما يجري على الأرض لبني البشر، ستزداد تجاعيد حياتك تجعيدة أخرى لو سافرت.. لا أحد سيكون قادراً على معرفة، ما إذا كانت ستمتلى معدتك يوم غد أم أنك ستبيت جائعاً، وبأي أرض ستنام أو ستسقط عليها وتنتهي.

سأعلم يوم غد ما الذي سيأتي به عامر من أخبار.. هذه ستكون المرة الرابعة التي أقابله، ولا خبر لديه عن إيجاد فرصة للسفر، فمن أجل الحصول على فيزا، أحتاج مرةً إلى صور، ومرة أخرى إلى مزيد من المال، غير اني تركت الأمر له ولم أسأله متى سيكون ذلك، حتى التقيت به في أحد الأيام، بدا لي فرحاً ملوحاً بجواز سفر أمام عيني:

"أبشر يا وحودي.. كلا سأقول لك: ويلكم مستر نعمان، بريطانيا العجوز ترحب بك".

- أنا على يقين أن ردة فعلك كانت باردة مثلك، لم تفرح ولم تشكر صديقك وتأخذه بين أحضانك، لم تطرح عليه أسئلة تبدأ بكيف ومتى ولماذا؟ بدوت مشوشاً وعجزت أن تعبّر عما يجول في ذهنك، بسبب ضباب كثيف يغطي عقلك دائماً.

لمدة يومين، ظل عامر يلقّني عدة معلومات، وعندما يجذني سارحاً، يطلب مني ثانية إعادة ما قاله بالحرف الواحد، "عرفتَ ماذا ستفعل أو ماذا ستقول بالمطار، ماذا دهاك؟ افرح وارقص يا رجل، ستذهب وتتصور عند ساعة بك بن، شريطة أن تنفّذ الوصايا وأن تمرّق الجواز وترميه في أقرب تواليت بعد الإقلاع.. ستركب الطائرة لأول مرة في حياتك وحوّدي، هنيئاً لك".

في المطار، وأثناء جلوسنا في قاعة الانتظار، كرّر عامر ما كان ينبغي عليّ عمله وقوله، ولكن فجأة رأيته يقوم ليخبرني بأنه تذكرَ أمراً هاماً: "انتظرني هنا وحوّدي، سأذهب لأعمل مكالمة سريعة، لن أغيب طويلاً لأن موعد سفرك قد يحلّ بين لحظة وأخرى".

ما أن اتجه صوب صندوق التلفون حتى تقدّم نحوه رجال مدنيون، تكلموا معه برهة ثم اقتادوه معهم بالقوة، لمحتة يؤشر بيده بطريقة عصبية أثناء ما كان يسير معهم، لم أسمع ما قاله، إذ طغى على صوته صوت موظفة الطيران وهي تذيع النداء الأخير لطائرة لندن، داعية الركاب للتوجه نحو البوابة.. هل لخلافه مع ابن مسؤول في الجامعة علاقة بما يجري، لا أدري، ماذا سأفعل الآن؟ هل سأتركه بيد الغرباء الذين اعتقلوه، أم أتخلّى عن رحلتي وأهرع لنجدته، وكيف سأنجدّه، ما حياتي؟ لا أعلم.. التفتتُ إلى ال وراء أثناء دخولي البوابة فلم أر أثراً لعامر.

زاغت عينا في الطائرة وناء رأسي بحملٍ ثقيل لا أفقه سببه، داهمتني إغفاءة عميقة، استيقظتُ بعدها عدة مرات ورجعت للنوم بعيون ثقيلة، وأخيراً صحت على صوت

المضيضة؁ تدعو الركاب إلى ربط الأحزمة لأن الطائرة ستبدأ بالهبوط.

لم أسمع من عامر جاسم أي خبر في السنين اللاحقة؁ كل ما عرفته هو أنه أعتقل في المطار بسبب وشاية؁ ثم انقطعت أخباره بعد ذلك.

- أنت لم تقتلني وتقتل والدتي فحسب يا أبله؁ بل قتلت أيضاً صديقك المخلص؁ لم تسع إلى اللحاق به ومعرفة سبب اعتقاله؁ أو أن تتصل بمعارفه للتوسط في قضيته؁ أنت كنت الشاهد الوحيد في ذلك اليوم؁ لكنك فضلت نفسك وخلصك وسفرك على صديق عمرك.

(2)

سألتُ والدي حال اتصاله بي، عن معرفته بشخص اسمه وحيد فريد نعمان، أجنبي بالنفي، لم يسألني بدافع الفضول عن القضية التي بين يدي للترجمة، حفاظاً على خصوصية عملي، أعرف أبي جيداً وأقدّر ما اكتسبه من إيجابيات من المجتمع البريطاني.

كان أبي يدرس في بريطانيا يوم ولدتُ أنا، لكنه أصرّ على تخصيص مدرّس خاص لتعليمي اللغة العربية، مما جعلني أحبها وأكمل شهادة المتوسطة في مادتها مع بقية الدروس الإنجليزية.. أنهى والدي شهادته العليا في مدينة مانشستر، محاضراً في جامعتها وعمل باحثاً لعدة سنوات.. أخذنا معه إلى العراق بعد سقوط النظام في بغداد، وقدم خدماته لجامعاتها على شكل مشاريع حيوية تخصّ التربة واستصلاحها والمياه الجوفية، وتحويل الصحراء إلى أراض زراعية.. سنحت لي

الفرصة هناك، لتطوير لغتي العربية لمدة سنتين، غير أن مشاريع والدي وأحلامه تعرقلت، نتيجة طلب بعض المتنفذين لعمولات كي يسهّلوا مشاريعه، رغم أنه كان مستعداً للعمل بدون أجور خدمة لبلده، ولم يكن يطمع بأي ربح مادي من ورائها.. عاد إلى بريطانيا، وقام بمساعدة والدتي في مشروع دار رعاية كبار السن الذي تديره، والإسهام في برنامج تطوعي لتمكين اللاجئين من التطور والحصول على عمل.

في صباح يوم الاثنين، نزلت من شقتي حاملاً حقيبة فيها مسجل لأحفظ عليه إجابات جارة وحيد فريد نعمان، كما طلب مني المحقق.. في طريقي إلى أجور رود، جذبتني رائحة بن قوية وألحّ على بالي طعم أأخذ، عند مروري من أمام مقهى ستاربكس، اشتريت قهوة وشربتها وأنا أمشي نحو بينفولد رود، للقاء السيدة زهرة طعمة، استكمالاً للترجمة في قضية الزبون المتوفي.. عند البناية المعنية، جلب اهتمامي بعض مظاهر تميّز بها بيوت البلدية - الكاونسل التابعة للدولة، وبعض سكنتها ممن يعتمد على نظام الرعاية الاجتماعية في العيش.. مررت بقرب شباب مراهقين متجمعين عند المدخل، يحمل أحدهم قنينة بيرة، يرتدون بلوزات قطنية تعلوها قلنسوات تغطي رؤوسهم لتصل إلى عيونهم.. انبعث من هواء قريب خليط من روائح مختلفة؛ قلي بطاطس، رائحة بول، أبخرة نتنة من حاوية قمامة مفتوحة، دخان نفاذ لعشبة ماري جوانا أو حشيشة شائعة، وتناهى إلى سمعي صخب أطفال وأغان بنغمة الراب وكلمات بلغات عربية وغير عربية وبلكنات متعددة.. وأنا أطلع السلم، فاجأني صوت تجشؤ قوي أت من نافذة قريبة مفتوحة.

استقبلتني الجارة وهي تحمل بيدها صينية، فيها طبق

معجنات وقدر من الشاي، سلّمت عليها وشكرتها.. حضر المحقق بعد قليل.. أعطاني بعض الأسئلة التقليدية التي تتعلق بجار السيدة المتوفي، وعلاقة أسرتها به، كيفية اكتشافها للحادث، من كان يزوره، إضافة إلى نبذة مختصرة عن سلوكه.

ترجمتُ لها الأسئلة، وبعدها طلب مني المحقق تسجيل الإجابات اختصاراً للوقت، أوصيتها راجياً أن تركز على الموضوع المطلوب، وتجيب على الأسئلة المطروحة فقط ولا تتشعب بالحديث.

قضينا أكثر من ساعتين في شقة السيدة زهرة طعمة، خرجت منها بصداق قوي وبحاجة إلى قرص دواء، قد يكون سببه اضطراب النوم أو لأنني لم أتناول فطوري.. مررتُ على محل لبيع السمك والبطاطس المقلية، اشتريت تلك الوجبة الإنجليزية الشهيرة ورحت أتناولها بشهية مفتوحة.. حديث الجارة وإسهابها مازال يتردد في رأسي، يذكرني بجدي وحاجته للحديث مع أي شخص بعد وفاة جدتي، لا أظنني سأعود إليها حتى لو خسرت المعجنات العراقية التي وعدت بعملها في المرة القادمة.. حين وصولي إلى البيت، استمعت مرة أخرى إلى إفادتها المسجلة، وترجمت على الكمبيوتر إجاباتها على الأسئلة فقط، دونما حديثها كله.

* * *

الجارّة

يا لمصيّبتك يا جاري المسكين، كم كنت جاراً طيباً!.. حقاً، لولاي لما علمتم بما جرى له.. أنا أول من اكتشف غيابه، شممت رائحة كريهة منبعثة من شقته، لي أنف لا يخطئ، اتصلت مباشرة بالدكتور نبيل، مالك الشقة، لكنني لم ألق جواباً.. كنت أطرق باب شقته من حين لآخر، أحمل له كل مرّة صحناً مختلفاً مما أطبخه، أحياناً طبق رز مع صحن فاصولياء ومرة أخرى دولمة أو محشي شجر، أعمله بكثير من اللحم، وليس كما تعلمه أم وليد بالرز وبدون لحم.. لكن أخبرني بالله عليك، هل عرفتُم سبب موته؟ ربما أصابته نوبة قلبية أو ارتفع ضغطه فجأة.. يا للغريب المسكين! لم يكن طاعناً في السن، أو ربما يبدو هكذا، إنها قضية تتحكم فيها الجينات، مثلاً، تبدو أم أوس أصغر سنّاً لكنها أكبر عمراً مني، وما يغيضني أنها تتكرر عمرها الحقيقي وتتجنب ذكره.. المهم وبدون إطالة، كيف مات جاري المسكين وحيداً، من دون أهله، هل تعرف أهله في العراق؟

كم مرة كنت أطلب من أبي ستار أن يقيم علاقة معه، لكنه لا يصغي إليّ.. كنت أريده أن يتعرف على جارنا رحمه الله لعدة

أسباب، أولاً لكي يخرج من غرفته ويرى كيف يعيش الناس الآخرون، ثانياً بخروجه واحتكاكه بالناس، ربما سيجد له عملاً بالسوق السوداء يزيد مدخولنا على الإعانة.. لا تترجم ذلك أرجوك، وثالث سبب هو، من الجائز أن يصلح هذا الجار زوجاً لابنة أخيه اليتيمة، التي صرف عليها كل مدخراته من أجل أن يأتي بها إلى لندن.

كل الناس تتطور إلا نحن، ما زلنا في مجمّع البلدية السكني، ليت حظي يكون مثل حظ جارتنا أم لانا التي اشتغل زوجها سائق تاكسي، يوصل المسافرين إلى المطار، هل تعرف انهم اشتروا شقة البلدية التي يسكنون فيها بسعر بخس، ثم باعوها بعد خمس سنين واشتروا بيتاً واسعاً فيه حديقة خارج لندن، وهل تعرف أن تلك المرأة ليست عراقية؟ فنحن العراقيات، لا حظّ لنا، نخدم في البيت ونقضي ساعات طويلة كل يوم في المطبخ لإعداد الوجبات وتلبية طلبات الأزواج، غير انهم لا يبذلون أي مجهود لإسعادنا.

سكنّا في هذه العمارة بعد أن قدمنا من ليبيا، اشتغل أبو ستار هناك في إنشاء الطرق والجسور، وجئنا إلى بريطانيا بعد إلغاء عقد عمل زوجي في ذلك البلد الذي آوانا لسنتين طويلة.. ساعدنا كثيراً الدكتور نبيل، صاحب الشقة الأصلي، قبل أن يسكن خارج لندن ويترك شقته التي كان يأتي إليها كل أسبوع أو أكثر، عندما تسافر زوجته لوحدها.. كان عمر ستار اثنتي عشرة سنة، وشمس تسع سنين، أما آدم فقد ولدته في بلاد الغربة بعد فترة طويلة.. تكون تربية الأولاد أمراً هيناً لو أن والدهم لم ينشغل عنهم، من الصعب على الأم أن ترى أطفالها محرومين في بلد يجعلك المال فيه مرتاحاً وسعيداً.

يا ويلي عليك جاري المسكين، كنا لا نسمع له صوتاً، أدركتُ من يومها أنه رجل عاقل ومحترم.. لا أدري من سيسكن في الشقة من بعده، هل أخبرك الدكتور نبيل عن هوية المستأجر القادم؟ أنا أعرف جيداً كل سكان هذه العمارة ما عدا المرحوم وحيد، من أي محافظة هو، هل تعرف؟ حينما سكن هنا، بعد أن أجّر الدكتور نبيل الشقة له، توقعتُ أن يفرح بجيرتنا ويفتح لنا بابه لكنه ظل متجاهلاً كل الجيران، أرقب شرفته دائماً علّه يخرج إليها يوماً ما وينظّفها، غير أنه لم يفعل ذلك إطلاقاً، كنت أعطف عليه وأقول، ها هو عراقي من بلدي، مثلي أنا، غريب ووحيد كاسمه.. أطرّق عليه الباب لأسأله عن حاله، لكنني لا أجده في الشقة وأكاد أحسه بداخلها لكنه لا يفتح لي، أظنه لا يحبّذ الاختلاط بالآخرين، ولو فعل ذلك لكنت عرفت معلومات عن مرضه، أو أين يسكن أهله في العراق.. أنظر من شباك المطبخ المطلّ على الممر المشترك، علّه يمرّ أو يخرج من الشقة، ولكنني لا أفصح في رؤيته أو في التحدث إليه.

حسناً، ولكي لا أطيل عليك، لم يدعني المرحوم وحيد أدخل شقته، لأتعرّف عليه وأعرف ما إذا كان نظيفاً، مثل الدكتور نبيل أم العكس.. ها هو يرحل ولم أعرف عنه شيئاً، غير أنه كان يرفعى الدكتور ويأخذ إعانة على ذلك، إنهم يعطونك هنا حد الكفاف، لا يتذكرون أيام الاستعمار، كيف كانوا ينهبون نفطنا وخيراتنا.. لا تترجم ذلك أيضاً.. سأسأل الدكتور نبيل عنه لاحقاً حينما ألتقيه، لأنه كان يذهب إلى داره كثيراً لكي يساعده في أمور كثيرة ويرعاه، وعلى وجه الخصوص عندما تسافر زوجته.. هل سافر الدكتور هذه المرّة معها؟

أعلم أن الدكتور نبيل، متزوج من امرأة إنجليزية اسمها

(دورة).. أنا شخصياً لا أطيقها لأنها امرأة متعجرفة وعنصرية، لا تكلم أحداً ولا تنتظر إلى الأرض، أظن أنها تكره كل من هو أجنبي، وأعتقد إنها انضمت مؤخراً إلى جماعة شهود الياهو فصارت تنتقل معهم من مكان إلى آخر.. لا أتصور أنه سعيد معها لأنه صار يأتي مؤخراً ليبيت عند وحيد من حين لآخر.. أعرف أيضاً أنهما يملكان شقة أخرى يؤجرانها، وأظن أنها باسم زوجته، تقع في نفس عمارة سعاد حسني.. ذهبتُ إلى هناك ذات مرّة، لأرى الشقة التي انتحرت من شرفتها السندريلا، رغم أنه لا يمكنني تصديق انتحارها، بل أجزم أنه كان عملاً مدبراً وبفعل فاعل، قتلها المجرمون لأنها أرادت أن تكشف أسرارهم بمذكراتها، وستثبت لنا الأيام ذلك، مثلما انتهت زوجة تشالز المسكينة، أميرة القلوب، هذا الكلام ليس للترجمة.. هل أنتم بحاجة إلى مساعدة في تنظيف شقة المرحوم؟ على القليل أنظفها بمعطّرات من عندي للتخلص من تلك الرائحة المقرفة، التي أشك بأن أحداً يستطيع التخلص منها، أعطِ الخبز لخبازه، سأحولها أنا إلى جنة مثل بيت (نور) في المسلسل التركي.. هل تحب المسلسلات التركية؟ وعلى ذكر التلفزيون، هل هناك احتمال، أن يكون لي معكم لقاء تلفزيوني أو تحقيق، عن حادثة موت جارنا المرحوم؟ أنا أعرض عليكم خدماتي بكل سرور، ويمكنني أن أتحدث باللغة العربية وأنت تترجم لي، سأكون سعيدة لتكريم يستحقه جارنا العزيز الذي لم نسمع له صوتاً يوماً، لكن عندي رجاء فيما لو تمّ هذا التحقيق، لا تشير إلى اسمي العربي، زهرة طعمة، لأنّ الإنجليز مثلما تعرف، لا يلفظون الحروف العربية بشكل سليم، حتى أن صديقتي المسكينة (ناجحة موقّق) اضطرت إلى تغيير اسمها.. من الأحسن أن تعرّفني بأسم (زارا توما)، وهذا هو

اسمي على بروفائلي في الفيسبوك.. بالمناسبة هل لديك صفحة على الفيسبوك؟ حسناً، أعذرني ربما أطلت في الكلام، سأتركك أنت والشرطي، لأن وقت المسلسل التركي (العشق الممنوع) قد بدأ، إلى اللقاء.. لكن من الضروري أن أراك قريباً وأعمل لك كليجة عراقية، هل تفضلها بالتمر؟

* * *

القارورة السابعة

عن الجارة

يصمّ مظلوم فريد نعمان أذنيه ويشكو متبرماً :

- يُقال أنّ الصوت المزعج أشد أنواع التعذيب إيلاًماً، وقد يلجأ إليه الجلادون لتعذيب السجناء.. هذا ما كان ينقصنا.. من غير المعقول أن نغلق النوافذ حتى في أيام الصيف.. هل أخبرت دكتور نبيل عنها؟

كعادته، برّر نبيل تصرفاتها بالقول: "أم ستّوري الوردّة، جارة طيبة رغم كل ثرثرتها وانشغالها بأمور تتعبها، إنها امرأة مسكينة، لو تمنع التفكير جيداً في وضعها، ستستنتج أن هناك قاعدتين لسكينة النفس وهدوئها، أولهما ألا نشغل بالنا في التفكير بأمور تافهة، وبما أن أغلب الأمور تافهة ونختلقها نحن لأجل قضاء وقت الحياة الطويل، فما علينا ثانياً، سوى رميها

خلف ظهورنا كي لا ندعها تسبب لنا المتاعب.. ذلك ما ستكتشفه تلك السيدة عندما تشيخ".

- أجزم بأنك اكتفيت بإيماءة من رأسك، كدليل على الموافقة، ولم تشعر برغبة في المناقشة وطرح الآراء.. لم تبين له بأن الطيبة لا تبرر للمرء التصرف بطريقة تؤذي الآخرين وتزعجهم، وليس عليهم أن يغفروا له أو يتعاطفوا معه لمجرد نقاء سريرته.. لو كان المرء غير مسؤول إلا عن الأمور التي يعيها، لكانت الحماقات مبرأة سلفاً عن كل إثم، لكني أعتقد أن الإنسان ملزم بالمعرفة وهو مسؤول عن جهله أيضاً، الجهل خطيئة، بحسب كونديرا.. أنت شخص جبان يا وحيد، لا تعبر عما يمور في داخلك، فما بالك برفض وضع لا ترضى عنه؟

ليس لي حيلة ولا فرصة للرفض.. وصلنا مساء إلى الشقة في شارع بينفولد، ساعدت الدكتور نبيل ليدير القفل في مفتاح شقته، بدا في الأونة الأخيرة متعباً وشاحباً، وبان الارتجاف واضحاً على يده.. أدخلت حقيبتني إلى غرفة أمام المطبخ أخبرني أنها ستكون غرفتي، وجدتها شديدة النظافة والترتيب وخالية من فوضى الأثاث، فيها خزانة وسرير وكرسي عند طاولة صغيرة.. ثمة فرق كبير بين غرفة محمود الطافح التي كنت أسكنها وما أراه الآن، هذا ما أنا بحاجة إليه، سكينه بال وهدوء.. في الغرفة الأخرى، وضع نبيل بعض من حاجياته وكتبه مع سرير له، أخبرني بأنه سيأتي ليرتاح فيها من حين لآخر.. دخل إلى المطبخ ليغسل يديه كعادته، وحين خرج سمعته يقول:

"سأخبرك لماذا اخترت هذا الوقت للمجيء إلى الشقة،

جارتنا منشغلة الآن بمشاهدة المسلسل المسائي، وها قد فلتنا من تدخلها وأسئلتها الكثيرة، لا يعني ذلك أنها امرأة سيئة وغير محترمة، عيبها الوحيد هو أنها فضولية كما يشاع عنها، لكن تعلّم يا وحيد بالأّ تحكّم على الشخص وفق ما يقوله الآخرون.. في الحقيقة تلك السيدة شغوفة بمعرفة حياة الناس، والتدخل في أمورهم الشخصية لإرضاء حاجة في نفسها، وتلك خصلة تتبعها وتجلب لها مشاكل عديدة ونفور الناس للأسف.. لا تستغرب أن تعرف منها يوماً تفاصيل عن حياتي أكثر مما أعرفه أنا، فهي تتذكر اسم جدتي حتى بعدما نسيتها أنا.. ذلك فضول لا يضر أحداً، بما إنها امرأة طيبة القلب وبسيطة وتلقائية.. قد يكون سلوكها ناتجاً عن أسباب مبرّرة، فزوجها، السيد خضير ستّار، منشغل عنها ويقضي معظم وقته على مكتبه في غرفته، غير دارٍ بأمور عائلته، ومع ذلك فهو رجل مسالم مولع بالمعرفة والثقافة، فلو سألته عن أمر لا يبخل عليك بالإجابة.. من وجهة نظري، إن أساس العلاقة الزوجية هو المصاحبة والمشاركة وإعطاء القدوة والنموذج الحسن، أو تقبّل الاختلاف والتعايش إن لم نتمكن من تغيير الآخر وفق ما نريد، وذلك ما ينقص جاريننا، لأن لكل فرد طبعه وما اكتسبه من عادات، تمسك بها على حساب الآخر".

- فضّلت الصمت ولم تهتم بحديثه وتبريراته، لم تسأله، هل هنالك علاقة بنوايا الآخرين الحسنة وبين تعاطفنا معهم عندما تكون أفعالهم سيئة؟ أعتقد بأنه لا شأن لنا بجمال أرواحهم وطيبتهم إذا كانت ألسنتهم مؤذية، ثمة أناس يصنعون الأحداث وآخرون يتأثرون بما يحدث والنوع الثالث لا يدري ماذا يحدث، وجارتك من النوع الثالث، حياتها ضائعة في

التفاهات.. أجزم بأنك جعلت نبيل يستطرد في كلامه، ظناً منه أنك متفاعل مع ما يقول.

هذا ما حدث فعلاً، فاض نبيل بمعلومات عن الجارة:

"من المؤسف حقاً أن ينعكس سلوك جارنا وزوجته على تربية أولادهما، أهمل الكبير الذي قضى فترة مراهقته مع عصابات متورطة في السرقة وبيع المخدرات وتزوير بطاقات البنوك للأثرياء والسائحين العرب، باحثاً عن المال بطرق سريعة وسهلة.. طلب مني السيد خضير يوماً متابعة قضية ابنه، حينما قبضوا عليه وأحيل إلى المحكمة ثم دخل السجن، غير أن الولد، وبعد ثلاث سنوات من الحبس، خرج بلحية طويلة ورداء أبيض، مكرّساً وقته للصلاة واتباع الجانب المتطرف من الدين، وصار يصرح علناً بأنه في مجتمع ظالم معادٍ للإسلام، وأن كل الإنجليز أنجاس ولا بد من احتلال المسلمين لهذه البلاد عاجلاً أم آجلاً، ترك دار والديه وانقطعت أخباره فضاعت هويته ولم يجد من يرشده إلى الطريق السليم.. أما أخته، فلقد سلكت درباً آخر، وباعتباري صديق الأسرة وأساعدهم في الترجمة، تلقيت يوماً مكالمة من مؤسسة (خط الطفل)، يعلمونني فيها، باتصال الفتاة وشكواها من والديها، وبعد أن أخذوها من أهلها، هربت المسكينة وساكنت رجلاً أفريقياً وعاشت معه حياة عابثة، لمحتها ذات مرّة معه، ترتدي ملابس غير ملائمة لعمرها، وعن طريق المصادفة، علمت بأنها تعيش اليوم بمفردها، تشتغل في أحد الأسواق وتدرس أيضاً في معهد للتجميل وحلاقة الشعر.. يبقى الابن الصغير الذي أنتبأ له بمستقبل جيد، لأنه متفوق في دراسته ويشقّ دربه في الحياة بشكل سليم.. مفهوم العائلة يا وحيد تغيّر اليوم للأسف بين المهاجرين، ضاعت هوية معظم أبنائهم

وبناتهم.. من المفروض ألا أخبرك بخصوصيات الناس، ومع ذلك فأمر تلك العائلة الطيبة، لا يخفى عن أغلب العراقيين".

انتظر نبيل رد فعلي وتجاوبي مع ما قاله، ولما لم يسمعه، أوصاني أن أهتم بنفسي واستعدّ للخروج:

"حسناً، لا تقلق، سأذهب الآن، وسأتي إليك من حين لآخر في عطلة نهاية الأسبوع للاستراحة، أو لأخذ بعض الكتب، وربما سأكون ضيفاً عندك فأبيت هنا لليلة أو أكثر، وستفضل أنت عليّ لو تأتيني إلى بيتي في وندزورث عندما أحتاجك.. لا تنس موعداً بعد غد مع طبيب الأسنان".

- لم يكن لديك ردّ فعل لما قاله ولا استجابة أيها الأبله، ولم تكن قلقاً أيضاً، ربما كان ذهنك سارحاً في مكان آخر.

لم يهمني حديث نبيل عن الجارة وأولادها، كل ما يريحني راهناً، هو أنني لم أعد أسكن مع محمود، وأن شقة نبيل الآن تحت تصرفي، أختلي فيها بنفسي ولا أتجشم عناء البحث عن عمل، بعدما سجّاني نبيل راعياً اجتماعياً له حتى يكفّ مكتب العمل عن مطالبتني بذلك.. ما عاد شيء يزعجني الآن إلا صوت الجارة.

- هل من وسيلة تمنع صوتها من اختراق الجدران والدخول دون استئذان إلى الشقة على مدى اليوم؟ اسمع واستمتع يا وحيد، كيف ستجد هنا السكينة وراحة البال؟ تفتح جارتني نافذة المطبخ وتتكلم بصوت عالٍ:

"أنت لو كنت رجلاً تتحمل المسؤولية، لكان بيتنا مثل بيت أم علي وأفضل من الأثاث الجديد في بيتهم، واليوم سمعت أنها عملت تجميلاً لأنفها في هارلي ستريت، يا لسوء حظي، الابن

الكبير ضاع منا، وأقصى شيء فعلته هو الصراخ بوجهه وضربه ثم العودة لقراءة كتبك، حدث الشيء نفسه مع البنت فخرست تعليمها وفرصها في الزواج من شخص محترم.. ها أنت تصم أذنيك عني وكل ما تفعله هو القراءة، ربنا بجلالته اختار نبياً أمياً، هل تتعظ به؟ كلا أبداً، يكفي بأنك حولت البيت إلى مكتبة عامة.. لا تصمت يا رجل، تكلم معي، لا تهملني وتدعني أحكي لوحدي، لا تتركني أكلّم الحيطان وأشكو لكل الجيران.. يا إلهي! كم مرة نبّهتك ألا تترك شعر شاربك المقصوص في المغسلة، هل صعب عليك أن تسكب الماء عليه، وكذلك أن تنظف الحوض بعد أن تتمضمض؟"

كنتُ أحاول قدر إمكاني تجنبها عند خروجي من الشقة للتسوق، وأظن أنها كانت تتنصت عليّ، بل أكاد أسمع تنفسها من خلف الجدار إذ سرعان ما تفتح بابها بعد أن أغلق باب الشقة لأخرج، ثم تفتح فمها بالأسئلة؛ هل تحتاج إلى شيء؟ لماذا لا تزورنا؟ إلى أين أنت ذاهب؟ تتدخل في شؤوني وتريد أن تعرف عني كل شيء، تدقق في التفاصيل، مثل معلمة لغة عربية في درس الإملاء، قوية الملاحظة ثاقبة الذاكرة، تحكي لي عن أخبار العمارة وأجور رود وكل الجالية العراقية في لندن.

- لديها عقدة جلب الاهتمام، أن تكون هي أول من ينقل خبراً جديداً إلى الناس، يجعلها تشعر بأهميتها، ورغم ذلك، أعتقد أنها مثلك، لا تستخدم حياتها مطلقاً، لديها خواء داخلي، لا شيء يثير اهتمامها، غير الحاجات البيولوجية الطبيعية، وجودها مثل وجودك، معطل وزائد، تختلف عنها فقط في كونك لا تجد شيئاً يثير اهتمامك.

كنتُ بحاجة إلى شراء خبز وحليب ذات صباح، رأيته
أمامي مبتسمة وكأنها تنتظرني مع أسئلة عديدة تدور في ذهنها
وتتضح في عينيها، وبعد أن عرفتُ مقصدي، دلتني على مطعم
عراقي يبيع الخبز الطازج، سألتني عن سبب احتياجي للخبز
وهل أنوي عمل باقلاء.

- تستمع إليها وهي تتكلم لوحدها، تتركها يا وحيد فاعرة
القم دون أن تجيبها، أنت شخص غير طبيعي، إنسان منعزل
اجتماعياً، حتى زوجها لم تتعرف عليه جيداً.

المرّة الوحيدة التي التقيت بزوجها، يوم كنت عائداً من بيت
نبيل.. كان ينزل السلم وتفوح من ملابسه رائحة زيت قلي،
تقدم نحوي وصافحني بحرارة، صار يتفوه بنصائح جاهزة
ويردد حكماً منمقة لحكماء وأمثالاً لقدماء ومقولات لعباقرة
ومشهورين.

- لو استخدم مقولاته تلك لإصلاح حاله وحال عائلته، لكان
وَقَرَّ وقتاً عليك وعلى نفسه.. لا تضجر ولا تستغرب، أنت
مثلهم يا وحيد، إنسان فاشل في الحياة، لا تملّ أبداً من
صناعة الفشل ومواصلته، حتى اقتنعت به، فلا أخالك ستنزعه
عنك يوماً ما.

* * *

(3)

لدي وقت كافٍ لكي أذهب في جولتي الأسبوعية إلى البارك من أجل التنزه واستنشاق هواء نقي، قبل أن تحين الساعة الثانية، موعد تلبية دعوة جاءتني من المتحف البريطاني لحضور أمسية موسيقية في قاعة الآثار الآشورية.. يؤيدني أبي في أن وجود الآثار العراقية في مدينة عريقة مثل لندن أمر جيد، ولولا ذلك لما شاهدتها ناس كثيرون.. ما يعجبني في تلك المدينة العريقة الرائعة، هو توفر النشاطات المتنوعة والعديد من أماكن الترفيه، إضافة إلى الكثير من الأعمال التطوعية، التي تمكن الناس من قضاء وقت الفراغ بشكل مفيد ومثمر.. فكّرتُ بالعراقيين المقيمين فيها، وتمنيت لو يعرف هؤلاء، كيفية الوصول إلى تلك الفعاليات والنشاطات، بدلاً من ضياع وقتهم، وتذمرهم من الوحدة والضجر.

حالما فطرت وشربت قهوتي، نزلت إلى الشارع ومشيت نحو البارك.. تبلغ المسافة بين شقتي وأقرب متنزه عام، حوالي بضع دقائق مشياً على الأقدام.. عزفتُ نسمة خريفية لحناً

متفرداً، حرّكت به أوراق أشجار صفراء تناثرت على الرصيف وصارت تصدر هسيساً أجشّ، بفعل أحذية مارّين يدوسون عليها.. في طريقي إلى واترلو بارك، وقع نظري على نبات ويستريا غير مزهر تسلق على سياج بعض الشقق، كم أحب زهوره البنفسجية والبيضاء المتدلّية، وأعشق رائحتها وقت الربيع!.. أخذت نفساً عميقاً متذكراً جملة، (تنفس عميقاً، واسمح للأمور كلها بالمرور).

في البارك، ثمة أسراب من طيور تحلق مهاجرة إلى أماكن أخرى بحثاً عن الدفء، غيوم بيضاء تتحرك عالياً، مثل صفّ من راقصات الباليه، لكن الشمس كانت خريفية باهتة ومخيبة لآمال الضياء.. ما يميّز جمال الخريف هو انه طاعن في النضج، وليس كما الربيع، طائش وشقيّ.. سحر عيني موزاييك ألوان صامتة على الأشجار، أوراق أرجوانية، ذهبية، برتقالية، حمراء، صفراء وبنية، نتجت حال توقّفها عن عمل الغذاء ونزّعها للاضرار اتقاءً للبرد.. إنه وقت نبات القرع والليالي القصار، موسم الضباب والإثمار اليانع، كما أشاد به الشاعر كيتس، يحمل في جعبته ذهب الطبيعة.. بعد السير لمسافة جيدة، انتقيت مكاناً على مصطبة تحت شجرة بلوط عالية جرداء، تجاوزها أشجار بندق تماثلها في الطول والضخامة، كنت في الربيع أنظف ما تسقطه عليها السناجب من أثمار بلوط وبندق.. مرّ كلب جذل نشيط بالقرب مني واتجه نحو شجرة، رفع رجله وبال عند جذعها.. حظّ سرب حمام قرب قدمي، ليتناول ما سقط من فتات طعام على الأرض.. لاح لي من بعيد، الجزء الشرقي من مقبرة هايغيت التراثية، وأضرحة راحلين مشهورين، مثل كارل ماركس وجورج أليوت وأريك هوبسباوم وغيرهم.

عزفت غيمة فوق رأسي فجأة أغنياتها المبللة وجعلتني أنهي جولتي في البارك.. مشيت صوب محطة قطار أرجوي وأخذت باص رقم 134 إلى المتحف البريطاني، لحضور نشاط المعرض والموسيقى.. نزلت عند موقف رسل سكوير وسرت من هناك إلى المتحف.. تأملت عظمة المعروضات الآشورية في قاعتها، بفخامتها ورونقها وعراقتها، أمضيت وقتاً طيباً في الفعالية، تاركاً أمر ما عندي من عمل ودراسة خلف تفكيري.

* * *

عليّ ترتيب أولوياتي وما يتوجب عمله اليوم، ترجمة بعض الأوراق، الاتصال بسلمي، مشاهدة البرنامج الوثائقي ليوم الأحد، القراءة، ثم النوم مبكراً استعداداً لعمل الغد.. لم أستطع تفادي التفكير بما كتبه هذا الشخص الغريب وبطريقة عيشه.. ليس من عادتي وليس لي الحق أن أحكم على شخصية الزبون الذي أترجم له، لكن هذا الرجل بالذات، صار لا يغرب عن بالي من أول يوم دخلت فيه إلى شقته.

في مكالمة عاجلة مع أبي، تفاجأت حينما رد على سؤالي:

- الدكتور نبيل بهنام توما؟ سمعتُ بهذا الاسم على لسان أصدقائي في لندن، قد يكون ناشطاً سياسياً، أو عضواً في إحدى المنظمات العراقية أو مترجماً.

كيف لم أسمع به وهو يشتغل في حقل الترجمة، وأنا أعيش في لندن؟ ربما يكون قد ترك العمل بها منذ زمن.. استفسر أبي عن سير عملي في المكتب وعن رسالة الدكتوراه التي أقدمها، طمأنته ووعدته بزيارة مانشستر، حين أنهى من قضية الترجمة التي بين يدي.

في اليوم التالي، توجّهتُ صباحاً إلى شارع هارو للتحدث مع امرأة عراقية عرفها السيد وحيد فريد نعمان، وجدوا اسمها مخطوطاً على الحائط.. خرجتُ نحو مترو الأنفاق وركبت الخط الشمالي نحو محطة وُرن ستريت، لم أجد صعوبة في إيجاد مكان لي في عربة القطار.. انشغل أغلب الركاب بتفحص هواتفهم و انهمك بعضهم في قراءة الكتب أو تقليب الصحف.. رحت بدافع الفضول أستطلع ما يقرؤونه، محاولاً معرفة توجه القارئ الفكري واختلاف ثقافته من خلال الصحيفة التي يقرأها مثلما هو معروف، فالصحف كما يُعرف عنها، تعبّر عن منظومة قيم مجتمعية وفكرية عميقة الجذور في المجتمع البريطاني، فمن يهتم بالخبر المثير الخفيف وتتبع الفضائح، يقرأ صحف التابلويد وأولها جريدة الصن، والذي يقرأ جريدة الغارديان فهو ربما معتدل ويساري، أما الذي يقلّب صحيفة التايمز، فقد يكون محافظاً تقليدياً.. وبما أن الوقت كان مبكراً، ارتأيت أن أركب من هناك باص رقم 18 ليأخذني إلى هارو رود.. عبّأت الباص رائحة معجنات كرواسان وقهوة، ثمة موظفون يتناولون فطوراً سريعاً قبل الذهاب إلى العمل وراكبون بسحنات مختلفة، سمعتهم يتحدثون بلغات أجنبية عديدة ومتنوعة، صعدتُ سيدة تتحدث من تلفون نقال وضعته في حجابها قرب أذنها، حكّت أخرى مع طفلها باللغة الروسية، اتكأ رجل صيني على زوجته عند الصعود إلى الباص، ونزلت امرأة أفريقية تجر عربة تسوّق ثقيلة.. نظرتُ من النافذة نحو شارع مارليبون، لمحّتُ سيفساء من بشر وألوان، ساري وشلوار قميص، كيباه وقبعة عريضة، وملابس أخرى تدل على جنسية وهوية من يرتديها، تلك هي لندن، عالم مصغّر متعدد الثقافات يحوي كل الأجناس، في الوقت الذي انتقل فيه

أغلب الإنجليز إلى أطراف المدينة، يأتون للعمل فيها صباحاً ويرجعون إلى مساكنهم في الضواحي عند المساء.. جاء في بالي ما ذكره والدي عن الاصطفافات السياسية والفكرية والطبقية لعرب الشتات فيها، وتنوع خلفياتهم وتوجهاتهم، مما يصعب عليهم التوحد والالتقاء.

بعد عبور الباص قرب جسر السيارات، تبين لي شارع هارو ولاحت على جانبيه بنايات عالية.. تحققت من العنوان ونزلت عند المكان المطلوب، أخذني المصعد إلى الشقة المطلوبة في الطابق العاشر لأقابل السيدة آلاء.. عند الباب، انتظرتُ المحقق الذي جاء قبل دقائق من الموعد، وعندما طرقتُ الباب، فتحتها لنا امرأة في أواسط العمر، عرّفناها على أنفسنا قبل أن ندخل وأخبرتها بأن وجودي مطلوب، تحسباً لتعثرها باللغة.. بعد إجراء محادثة قصيرة وطرح بعض الأسئلة والاستفسارات، شكرناها واعتذرنا عن عرضها لتناول مشروب ساخن.. عند خروجنا، أعطاهم المحقق كارتاً، فيه رقم تلفون خاص به، فيما لو تذكرت شيئاً آخر وشاءت الاتصال، كما أعطيتها رقم تلفوني في حال تعذر عليها التكلم باللغة الإنجليزية.

بعد مرور يومين من اللقاء، انشغلتُ فيهما بالترجمة والدراسة، تلقيتُ مكالمة هاتفية من آلاء، تعلمني عن رغبتها في لقائي لأمر هام.. أفرغتُ لها ساعة من زمني ظناً مني أنها تذكرت أمراً يخص القضية، رأت أن تطرحه عليّ مباشرة وفيما بيننا.

ذهبتُ إلى الموعد في صالة فندق هلتون أجور رود، رأيتها جالسة تشرب قهوتها في ركن منعزل، سلّمت عليها وتطرقتُنا

في البداية إلى أحاديث عامة تخصّ الطقس والمزاج الخريفي، وبعد فترة صمت قصيرة، وازنت جلستها على الكرسي، تنحنحت، ثم قالت برقة وبصوت ناعم رهيف:

- هل بإمكانك أن تخبرني عن نوع الكلام الذي كتبه عني وحيد؟ هل كان سيئاً؟

أجبتها معذراً بأن واجبي يحتم عليّ أن أتكم وألاّ أتكلّم عن أمور تخصّ العمل.

تنهدت وسرحت ببصرها بعيداً ثم هزّت كتفيها دلالة عدم اهتمام.. مدّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت منها قارورة زجاجية، بداخلها ورقة ملفوفة:

- أخبرني وحيد بأنه كان يخنق كلماته في قارورة عندما يريد تفريغ ما في جوف ذهنه من كلام، أعجبتني طريقته، فخنقت ما كتبتُ في تلك الزجاجية، لأنني وحيدة مثله.. كلنا نعيش في قارورة ونكذب لو قلنا إن حياتنا طبيعية.. على أي حال، قد لا تجد في هذه الأوراق شيئاً يخدم التحقيق الذي جنّتم من أجله، إنها لك فقط وبينني وبينك، ولا تسألني لماذا اخترتك أنت الغريب لتقرأ ما كتبت، أنا نفسي لا أعرف، ربما لأجعلك تقتنع بأنني لست سيئة كما قد يكون وحيد صوّرنِي في كتابته.. بما أننا لن نلتقي بعد ذلك أبداً، عاهدني ألاّ تفشي الأسرار في تلك الأوراق لأي أحد مهما كان.

وعدّتها بالكتمان وبأنني سأقرأ ما كتبتُ، ناولتني الزجاجية ثم نهضتُ مودّعة ورحلتُ.. طلبتُ قهوة ثانية ورحت أفكر، ما الذي تقصده من وراء الكتابة لي بالذات، وهل للموضوع علاقة بقضية موت وحيد؟ سأعرف ذلك لاحقاً.

اتصلتُ بوالدتي، أخبرتني بأنها ووالدي سيقدمان إلى لندن من مانشستر، وستأتي سلمى من مدينة ساندرلاند في نفس الوقت، أسعدني الخبر وتخيلت حلول أيام جميلة، نستمتع فيها بوقتنا معاً، وبأطباقٍ عراقية شهية من يد الوالدة.. كم أقتدي بوالدتي، اعتقد أنها خير مثال لصورة المرأة العراقية المشرقة بكفاحها وصبرها، وبقدرتها على تطوير نفسها!

في درب العودة، دلفتُ إلى محل عربي واشتريت فلافل، تناولتها وأنا في طريقي إلى محطة قطار الأنفاق.. حين وصلت إلى البيت، وضعت قارورة آلاء على مكتبي مع القارورة الثامنة لوحيد، التي تناول فيها تلك الفتاة واحترت بماذا أبدأ.. عملت قدحاً من الشاي وجلست عند مكتبي.. قرّرت أن أقرأ ورقة آلاء أولاً ثم من بعدها ورقة وحيد.

* * *

ورقة آلاء

ليس ثمة مقارنة بين دقاتهم على بابي وتعاملهم معي، وبين همجية رجال أمن خبرتهم في بلدي العراق.

بعد التحية، أظهر ضابط الشرطة هويته، سألني عن مدى معرفتي بشخص اسمه وحيد فريد نعمان، قام المترجم بتوضيح السؤال لاعتقادهم بأن لغتي الإنجليزية غير مضبوطة، أخبرني ضابط التحري، بأنهم وجدوا اسمي مخطوطاً على جدار في شقة وحيد، وكذلك في مخطوطات كتبها بخط يده، وفي صور لنا معاً في إحدى المعاهد أثناء دورة تدريبية.. اندهشت أولاً ثم نما بداخلي خوف قديم، توترت عضلاتي وبدأ ذهني يعمل بسرعة خارقة جرّاء الخوف، نبّهني صوت المترجم موضحاً:

- نرجو ألا تقلقي، انه إجراء روتيني يساعد التحقيق الأولي على معرفة تفاصيل أكثر عن هذا الشخص.

نظرت صوبهم بوجل واضطراب، أرجعت فوق شعري منديلاً، انزلق من رأسي الذي ازدحم بالتساؤلات.

- أنا لم أفعل شيئاً.. ما الذي كتبه عني؟

اعتذر الضابط بلطف، أخبرني بأنهم ما زالوا في طور التحقيق الأولي وليس بإمكانهم الكشف عن تفاصيله.. خلتهم

بتفحصوني بنظرة غريبة أقرب إلى الارتياح لأنني تعودت ألا أثق برجال الأمن والشرطة، لكنهم بعد حديث هادئ ومهذب دار حول وحيد ومدى علاقتي به، نهضوا وتوجهوا نحو الباب قائلين، "شكراً، ربما سنراك لاحقاً".. سلّموني بطاقة فيها رقم تلفون المترجم العراقي لأتصل به في حال خطر ببالي أي أمر يتعلق بالمدعو وحيد، تركوني في حالة ارتباك وسط غمرة من التدايعيات.. احتلني أسى غامر وفجّرت رأسي ذكريات مُرّة عن حياة آلاء الخربة، يوم ولدتها امرأة اسمها فضيلة، ولقبها أم عروبة.

جاؤوا يسألون آلاء عن وحيد.. لم يكن هذا الشخص إلّا ظلّاً عابراً في حياتي لا غير، كان إنساناً ميتاً بنظري منذ أن قابلته أول مرة، استنفدتُ منه لفترة من الزمن وانتهي الأمر.. التقيت به يوم التحقت بدورة تدريبية على الكمبيوتر، ساعدني في كتابة واجبات ومقالات لا أفقه منها شيئاً بسبب عدم إجادتي اللغة الإنجليزية آنذاك.. كنت يومها بحاجة إلى الحديث مع شخص، أي شخص، وكما يُقال إن أفضل محادثة تلك التي تجريها مع شخص غريب، لكن هذا الوحيد ربما عرف عني أكثر مما ينبغي، وربما بحث له بتفاصيل ما كان عليّ أن أبوح بها.

ماذا كتب عني هذا الصامت الكتوم، الذي يشبه أبي وشخصيته اللينة الخنوعة الراضخة لامرأة متسلطة مثل فضيلة، يطيعها خشية أذاها ويصمت كلما كان بمعيتها ثم يوافق بالتالي على كل ما تقرره، لم يعترض يوم طلبتُ منه تقديم طلبٍ لوظيفة جديدة في سلك الأمن، بدلاً من بقائه في سلك الشرطة كشرطي عادي، ليغدو مُدّاك الوقت طوع أمرها وأمر السلطة.

رسّخت فضيلة في رأسي ضرورة عدم احترام كل من هو ضعيف وذليل، علمتني أن احتقار الناس هو الطريقة المثلى لجعلهم يهابون ويحترمون المقابل، وأن طاعة القوي تخدم مصلحة الفرد، وما علينا إن أردنا العيش، سوى التفكير بمصلحتنا أولاً وقبل كل شيء، حتى لو دسنا على رأس أقرب الناس إلينا.. لكنني ما أن وعيت على الدنيا حتى رفضت كل ما لقيتني إياه، كنت أتمرّد على كل شيء وأفعل عكس ما تراه وما تريده، رحت أسعى إلى التقرب من الناس وكسب مودتهم، ليصبح همّي رضاهم وألمي ألمهم، مع علمي انه عبء ثقيل أن تتألم نفس واحدة من أجل نفسين، لكنني كنت أحرص على أن يحتووني لا أن ينبذوني أو يهابوني، ولكن لم يحصل أن تقرب مني أحد من الأطفال، أو أن لعبت معي زميلة من زميلات المدرسة أو فتيات الشارع أبداً.. ليس هناك أصعب من حال طفلة تلعب بمفردها ويرفضها أترابها، لا تختزن ذكريات طفولة سعيدة وليس لها أصدقاء حقيقيون.. رغم ذلك جرّبت حينما كبرت أن أحب بكل جوارحي، وصمّمت على أن أعيش قصة حب كبيرة، ذلك ما فعلته حين أحببت جارنا الذي آواه قلبي وغدا له بيتاً مفتوحاً، ناشداً في كنفه الأمان والمحبة.

لم أكن جميلة ولم أمتلك ذكاءً متميزاً ولا عائلة محترمة، ومع ذلك جلبت اهتمام جارنا الصحفي المبتدئ جلال الوسيم.. رحتُ أعمل ما في وسعي لأرتقي بنفسي وعقلي لكي أعجبه، قمتُ باستعارة الكتب، وقضاء أوقات طويلة في مطالعة كل ما أشتريه من المكتبات، وحفظ مقولات والاستشهاد بنصوص، لكي أضفي على شخصيتي بريقاً حضارياً ثقافياً، علّ ذلك يعوّض عن سمعة عائلتي السيئة.

توفيت زوجة جلال وكان مولعاً بها فبقي وحيداً مع أحزانه..

تعاطفتُ معه، توخيتُ مساعدته والدخول إلى حياته، بدءاً من إعداد أطباق طعام يومية وتنظيف البيت ورعايته، وانتهاءً بأمور خاصة بيني وبينه.. صرت أتردد خلصة على داره كل يوم، أقرأ كل ما تقع عيني عليه من كتب في مكتبته، أطبع وأنقح له كل ما يكتب للصحافة.. وضعني في طريقه احتياجي العاطفي وحرمانني من الحب، كنت أريده أن يكون ملاذي لأنني عشت ممقوتة ومقصية، تطاردني نظرات ضغينة ودموع جزع وأدعية، تتمنى لي ولأهلي حياة بائسة تعيسة ونهاية مؤلمة.

عشتُ أكثر من سنتين لأجله، أحسست معه بسعادة غامرة لم يسبق لي أن جرّبتها، بحضوره كانت تحضر الموسيقى وأجمل قصائد الشعر، ومعه، يشعّ بهاء أنوثتي وتزهو بناعة عمري فأقول لنفسني، أبشري يا آلاء، لقد ابتسم لك الحظ أخيراً، هذا هو الحب الذي كنت تصيبين إليه.

كتبتُ أول قصة لي بفضل إلهامه، تفهمتُ الأمر عندما علّق عليها قائلاً، "شيء رائع، شلال كلمات ومشاعر مفعمة بتلقائية وصدق، لكن للأسف من سيقروها؟ انك لم تنشري سابقاً وليس لك اسم لامع، لذلك فما من أحد سيعرفك، سوف لن يلاقي ما تكتبينه أي صدى، من الأفضل لك أن أنشرها باسمي لكي يطّلع أكبر عدد من القراء على ما تكتبين، لا تندهشي ولا تفكّري، أليس هدفك هو خروج هذا الأدب الجميل إلى النور واستمتاع الكل به؟ سيحصل لك ذلك".. وهكذا صار ينشر كل ما أكتب باسمه.. لم أبالِ حتى عندما جمع كل ما كتبته في كتاب واحد، وكان فرحاً حين أراني اسمه مطبوع عليه، "أنت رائعة حبيبتي، افرحي لي، ألا تريدني أن أكون سعيداً؟"

في كل مرة يقبلني فيها بعنف وشهوة، كان يخيل لي أن

حقوق الورد كلها لا تضاهي رائحة جسده، ونعومة جناح الفراشات لا تقارن برهافة مشاعره، سعدتُ لفرحه، ولم أفكر بسعادتي بقدر ما كنت أفكر بإسعاده، وأثناء تلك اللحظات الحميمة، كان يطلب مني المزيد من كل شيء، وكنت ألبى له كل ما يريد.

كان يحدثني بأسى عن زوجته في كل مناسبة، يعلّق صورها في أركان بيته ويحتفظ لها بواحدة في محفظته.. يطلب مني أحياناً أن أتصرف مثلها في التعامل معه، أن أرتدي نفس ألوان ملابسها وموديلاتها أو أتعطر بنفس عطرها.. كنت أتحدى بالصبر وأقدر إخلاصه ووفاءه لها، وأحياناً أتمنى لو كنت أنا الراحلة، حتى يحبني بقدر ما كان يحبها، أبعد عن ذهني فكرة انه كان يريد مني أن أشبهها لكي يبقى يتذكرها من خلالي.

لاحظت تغييره بعد زمن، سمعت يوماً من ابنة الجيران بأن لجلال علاقة حب بزميلة له في العمل، نهشتني الغيرة وأرهقني تفكير مضمّن، كنت أريده لنفسه حتى لو اضطرت إلى تكذيب حدس الأنثى، كنت لا أحب أن تشاركني فيه أي امرأة أخرى.. حين عاتبته قال، "لا تبالي بكلام الناس، كل ما يُقال محض إشاعات".. قاطعته ولم أتواصل معه لعدة أيام عانيتُ فيها كثيراً، وما كان مني إلا أن أعود إليه، بعدما أرسل لي مقطعاً من أغنية كنا نحبّ سماعها سوياً، (إن تجودي، فصليني).. كيف لا أصله ولا أكون سخية معه وأنا أعشق من أذاقني خمرة الحب والحياة، من كان لا يرفع عينيه عن وجهي حين نجلس معاً، ومن كان يعصر يدي قوياً بين يديه، ويقبلني دون انقطاع عند الباب لما أدخل البيت.

في يوم شتائي كالح، كنتُ في أسوأ حالاتي لسماعي الكثير من الأقاويل عن علاقته، لكنه أخذني بين ذراعيه وصار يقبل أذني، نفث دخان سيجارته بوجهي، حرّك شفّتي السفلى بسبّابته، قرص أرنبه أنفي بإصبعيه وهمس:

- هل تعرفين يا لؤلؤتي انك تمتلكين موهبة خارقة بالكتابة؟ صرّثُ أعتمد عليك بتنقيح كل مقالاتي، لاريب انك شغوفة بالكتابة وبالمطالعة والأدب وستعينيني في عملي دائماً، وحتى حين أفتح دار نشر باسمك، "مكتبة ودار نشر آلاء"، غير اني أحتاج فقط أن تساعديني في تدبير مبلغ ثلاثة آلاف دولار.

- هل تحبني حقاً؟

- أعشق جنونك

انتفضتُ فجأة وقلت:

- انظر بعيني اذا كنت تحبني حقاً وقل أحبك

جاءت في بالي جملة قالها أحدهم: (حين يطالب العاشق بحقه العاطفي من المعشوق، اعلم أن العلاقة قد انتهت)، أسرعتُ قائلة قبل أن يجيب:

- تزوجني

باغته طلبي، كأن قنبلة هوت على رأسه.

- ماذا؟

- تزوجني

صمت برهة وبدا مذهولاً.. هبّ واقفاً، رمى سيجارته أرضاً وأدار ظهره نحوي.. تطلّب منه الأمر بعض الوقت ليستعيد هدوءه ويجيب:

- افهميني يا آلاء، الزواج هو أسرع مبيد قاتل للإبداع وللاستمتاع بالعلاقة، دعينا يا فتاة نستمتع ونبدع ونتواصل من دون أن يعلم أحد بأمر علاقتنا، من دون وجع دماغ ونكد ومسؤوليات.

تقدم باتجاهي بغرض مداعبتي، وضع يده على مؤخرتي وهمّ بتقبيلي، هجمتُ على ملابسه فجأة، تأكد لي ما سمعته من أنه خطب زميلة له بعد أن اكتشفتُ خاتم خطوبة في جيبه، حينها، ثارت براكين غضي:

- ابتعد عني.. نذل، حقير، أنت أكبر قواد.....

رحت أضربه بقوة وأصرخ شاتمة، وهو يحاول إمساك يدي عبثاً حتى أدميتُ وجهه بأظفاري.. لم أسيطر على مشاعري، تسللتُ روح فضيلة إلى نفسي وإلى لساني.. استشاط غضباً وصرخ دافعاً بي نحو الباب:

- وأنت عاهرة، هل تعرفين ذلك يا ابنة الرفيقة أم عروبة؟ لا يمكن لي الزواج من امرأة أمها قوادة.

جرحتني ردّه ورأيه بي، تشاجرنا وعلا صراخنا حتى سمعنا كل الجيران.. بعد امتلاكه لقلبي ووقتي وجسدي وجهدي، صار جلال يناديني بـ "ابنة أم عروبة"، أضأتُ له مصابيحى لكنه أطفأني وتركني غارقة في الظلام، ظهرتُ أخلاقه بعدما خفتت شهوة، اعتقدتها ولهاً وهياماً، بصقتُ في وجهه وخرجتُ من بيته.

بثُ على قناعة بأن بعض الناس لا يحبّونك أنت بالذات بل يحبّون حاجتهم إليك، وما أن تنتهي تلك الحاجة حتى يفتر حبه، كانت حاجة جلال لي محض رغبة وليس حباً للمرغوب

به، وحينما نضبت تلك الحاجة انتهى حبه، الحب الذي ينتهي ليس حباً ولم يكن يوماً كذلك أبداً.. لو كانت جذور العلاقة صلدة فلا خشية من كل الأعاصير.. كنت أظنه نحلة أحيا بعسلها لكني متٌ بلسعتها.

لا مانع لديّ لو تركني قوية ورحل، لكنه خلّفني ضعيفة مكسورة، مثل شجرة أعياد الميلاد، يرميها أصحابها في القمامة بعد فروغ الموسم، أو مثل خيبة ثوار، بعد انتكاس ثورة بنوا عليها آمالاً هائلة.. عتبي على شخص يعلم أن سلوكه يؤلم الآخر ويفعله.. كيف يؤذيني وأيام الود والعشرة لها ألف حق عليه؟ من يحب لا يؤذي قلباً بادلته الحب يوماً، ومع ذلك، كثيرون يؤذونك ويتصرفون وكأنك آذيتهم.. لن أنسى ما جعلني أشعر به حتى لو نسيت كلامه.. ها قد خسرتني وأضاعني، وأبشع خسارة هي أن تخسر قلباً أحبك بصدق وكان مستعداً ليفعل الكثير من أجل إسعادك، مثل هذا القلب لن يُعوّض أبداً.. قطعاً سيجد من هي أجمل مني وأصغر، لكن هيهات أن يجد قلباً مثل قلبي.

لماذا غضبنا بهذه الصورة، وهل كان بإمكاننا إصلاح الأمر وتفادي القطيعة؟ هل سافقده إلى الأبد؟ أكاد أحسّ أن عقلي وحقلي مجدبان بدونه، قطع جلال أزاھيري وهزم ربيعي ولم يبق من وهج الفرح غير رماده ورمادي.. كنت أودّ أن أحتفظ له بذاكرة عطرية جمة الروعة لو افترقنا، لا أن أفكر بالانتقام، غير أن أفضل انتقام منه، كما أكّد مارك توين، هو إعادته غريباً كما كان.. لا أريد أن أنتحر مثل سيلفيا بلاث التي قالت، "الرجال يقولون أحبك كما يقول السجناء نحن أبرياء، فاشربي قهوتك يا جميلة ولا تأخذي أحداً على محمل الجد".

كيف سأواجه الجيران، ماذا سيقولون عني وأنا التي تحاول تحسين صورتها أمام الناس بأي ثمن؟ قد لا يستسلم بعضنا للظروف، لكنهم يستسلمون لرأي الناس بهم.. غالباً ما أسأل نفسي، ماذا تريدون يا آلاء، أحياء ممتعة على حساب كل شيء؟ لتتقبلي إذاً كل ما يفعله الرجل دون اكتراث ولا تنشغلي بما يقال عنك، لطالما قضى معظم الناس حياتهم ساعين وراء إرضاء الآخرين على حساب أنفسهم، ماذا جنوا؟ أنا لا أتفق كلياً مع شيخ هيمنجوي الذي زعم بأنه أحتفظ بهيكل السمكة، فقط ليثبت بأن الإنسان لن يستسلم حتى وإن هُزم، فلو عني ذلك حقاً، لترك حطام سمكته في البحر، لكنه برأيي أراد أن يثبت للناس مقدرته على صيد سمكة بهذا الحجم.. عرفت الآن لماذا كان جلال يؤكد على ضرورة إخفاء علاقتنا عن الناس، كان يخجل من صلتني به ويخشى من كلامهم، مع اني كنت أختلف معه وأطلب أن نعلن حبنا وأن لا نبالي بأحكام الناس وآرائهم، العمر واحد والفرصة تمرّ بسرعة، إن لم نستغلها بما يرضينا، سنندم.

من المُزري أن تقضي عمرك ووقتك، بالشرح والتوضيح والتبرير في محاولة تجميل أفعالك من أجل أن ترضي وتقع الآخرين.. هراء، من يحبك حباً حقيقياً، سيراك جميلاً رغم عيوبك، ومن يكرهك، سيراك مخطئاً وقبيحاً رغم جمالك.. كم هو صعب أن تتعود على مناجاة شخص، وتشركه بتفاصيل حياتك اليومية لحظة بلحظة، ثم ينقطع كل ذلك فجأة! كيف سيعتاد عقلي على الثرثرة لوحده؟ يا ويلي! كنت أوّمن بالحب الذي يعزز ذاتي ويجعلني أعشق نفسي، لكن حدث وأن أحببت وعرفت أنه عندما يتعلق الأمر بخذلان قلبي وكرامتي، أكره

مثل هذا الحب وأحقد على كل الرجال مهما كانت صفاتهم.. ما أصعب أن يكون من أحببته درساً مؤلماً لك!

في الطريق إلى البيت تملكنتني وسيّرتني خييتي، وكادت دموعي تسيل من عيني وقلبي ومن كل أعضائي، غير أن عبرات وغصصاً جبّارة تمنعها.. انتهى كل شيء إذًا، لقد دققنا اليوم آخر مسمار في نعش العلاقة، استحوذ عليّ إحساس مُرّ مثل شعور الذي استيقظ من النوم، ليتذكر فجأة أن شخصاً عزيزاً عليه مات يوم أمس، سحقتني طراوة فقدان، وفلتت من داخلي نوبات غضب وإشفاق على نفسي بدت مثل صواريخ مستعدة للانطلاق والانفجار.

بعد أن هِمتُ في الشوارع لفترة طويلة رجعت إلى البيت، ولدهشتي، وجدت فضيلة تمسك بيدها شريط حبوب منع حمل اكتشفته في درج قرب سريري.. سحبتني من شعري، قرّبت سكيناً حاداً من رقبتني، كزّت على أسنانها وهي تسألني:

- من هو؟ جلال جارنا، أليس كذلك؟

تحت تأثير الصدمة والخوف والقسوة، وفي حالة غريبة من جيشان مشاعر مشوشة، ورغبة في الانتقام من نفسي، أخبرتُ والدتي وأنا ألطم وأبكي بما فعله جلال بي، وكيف استدرجني إلى فراشه وخدعني.

لم تتعاطف مع قلبي المكسور وتعاملني كأم ترى ابنتها تتمزق ألماً، بل تركتني فجأة وخرجت غاضبة.. ماذا ستفعل تلك المرأة؟ أعرف فضيلة ومكرها، بإمكانها إقناع من تشاء بأنّ الأسد يبيض وأنّ النملة تلد.. ندمتُ كثيراً لأنني كشفت لها عن اسمه.

لا أعرف ماذا حلّ بجلال بعد ذلك اليوم، كيف اختفى ولم يعد، متى بلغت أمي عنه وأي تهمة لَقِقتُ له، سمعتها تقول لأبي ذات يوم بتشفٍ:

- قطعوا عضوه الذكري وألقموه إياه.. كان يستحق ذلك.

رغم إحساسي بالذنب لما فعلته ولما آل إليه مصير جلال، إلّا اني صرت أقنع نفسي عبثاً بأن كل شيء سيكون على ما يرام.. كان جلال احتلالاً لقلبي، انتهى وتحررتُ منه فلا حاجة لمن استغنى عني.. وبما أن العلاقة ينبغي أن تكون ملاذاً آمناً وموضعاً للطمأنينة وليس ساحة معركة، فقد كنت بحاجة إلى أن أصفح عنه من أجل سكينه روحي وشفائي، وأتمنى بنفس الوقت أن يصفح عني لو كان على قيد الحياة.. احتجت إلى السلام في داخلي وأدركتُ أن الأزمات ليست محض معاناة، بل إعادة تقييم للذات.. رحت من بعد جلال لا أحسب عمري بمرور الأيام والأحلام في حياتي، بل بمرور المؤذي من الأمور، سيخرج كثيرون من قلبي بعد اليوم إلّا الحقيقيين إن وجدوا.. اتضح لي بأنّي أفتقد حالة الحب نفسها، إلى ما تظاهر به جلال لا إلى ما ظهر عليه.. لا لوم على نفسي، فقد أحببت بشكل صحيح لكني لم أحسن الاختيار، كنت أريد رجلاً يحبني في توهجي وانطفائي، في نهوضي وعثراتي، يهتم بي ويقدرني، أحسنّ معه بالأمان والاحترام، يحبني في أصعب أحوالي، ويبيدي اهتماماً بي من غير أن يهملني ويتجاهلني.. أخذتُ عهداً على نفسي أن لا أحبّ من جديد حتى أجد إنساناً جديراً بحبي الكبير، ولا ضير بقليل من العاطفة لكن دونما اتقاد، فالرجال قادرون أن يعيشوا من غير حب، لكن الحب عند النساء هبة من الطبيعة.. تذكرتُ قول بيرون بهذا الشأن: (الحب جزء من وجود الرجل، ولكنه وجود المرأة بأكمله)،

وكلمات روسو: (الرجل يحب ليُسعد بالحياة، والمرأة تحيا
لِتُسعد بالحب).. كنت أعشق بقوة وأهب كل نفسي لمن أعشق،
وكلمة "أحبك" تعني لي الكثير، قلتها ذات مرّة لجارنا، قبل أن
يصغر ويتلاشى ويذوب بمطر الخذلان كغشاء غيمة سريعة
فارغة.. ما زلت أشتاق إلينا، أحنّ إلى نفسي وإلى حالتي في
حبه إلى اليوم.. أشعر بأنه لا يستطيع سلب حبي له لأن حبه
ملكي أنا، وكلما يبتعد، ستغدو صورته أكثر تناسقاً وتسقط عنها
إطارات الشجن الكالحة، رغم تناثر شظايا زجاجة في روحي.

ومثلما يحلم الرجل بامرأة مثالية، لي الحق أن أحلم بسيد
قلبي المناسب، برجل يدهشني بتغييراته وعدم نمطيته، بقصة
حب جامحة كما في قصص العشق وأفلام السينما الرومانسية..
كنت آخذ من كل رواية سمة لبطل أحلامي، من أحدهم
وسامته، ومن آخر رومانسيته وحنانه، ومن ثالث اهتمامه بي
وهيامه وإخلاصه، ومن رابع تحضره وعلمه وثقافته، ثم أخلق
رجلي الذي أريد وعشقي الذي أهيّم به.. أين مني هذا المخلوق!
لا وجود لرجل كهذا على كوكب الأرض، لا أعلم كيف يكتب
الكتاب روايات الغرام ويؤلفون الأفلام عن أبطال محبّين
يسعدون حبيباتهم ويخلدون في العشق، أظن أنه محض خيال
غير موجود على أرض الواقع.

أسوأ ما يحدث لعقلك هو عندما يأخذك إلى نقاط مظلمة
قائمة فيه.. ليتني أتمكن من تبديل ذكرياتي لتكون مثل نهر جارٍ
أو مثلما يحدث في أفلام الخيال العلمي، أدخل في جهاز كبير
لأرى أُمي معلمة فاضلة، تحمل حقيبتها اليدوية الكبيرة وتذهب
إلى المدرسة كل صباح بحذاءٍ كعبه عالٍ، وأبي موظفاً لا
تفارقه ربطة العنق، يحرص على تلميع حذائه قبل الخروج إلى
الشارع، وعندما يمرّ من هناك يحييه أهل الحي باحترام، أعود

أنا من الجامعة وأختي آمال من المدرسة ونساعد والدتنا في تحضير المائدة، نتبادل تفاصيل يومنا حين نتناول الطعام، وملائكة السعادة تحوم فوق رؤوسنا وتحرسنا.. لكن إذا كان تبديل الذكريات وقصّها وإعادة تركيبها أمراً صعباً، فيا حبذا لو يخترعون آلة تصحح الذاكرة وتلوّنها بألوان جميلة.. تتوب فضيلة وتدرّك أخطاءها، يعود الأب إلى سلك الشرطة، لا تذهب آمال إلى الحفلة المشؤومة، يتقدم جلال للزواج مني.. آه من ندبة جلال في روحي، لو كان بإمكانني مدّ يدي وإخراجه من رأسي لما ترددت، ولكنك أجتث مع ذكراه كل أوجاعي، وأقتلع بطريقي كل ما حدث لي لاحقاً في لندن.

لا أنسى فرحتي يوم وصلت إلى بلد غربتي الأول، كنت أنظر من الطائرة إلى مدينة الضباب، المدينة الحلم الذي ما انفكّ يراود أغلب ناسنا.. يوم جنّتها قبل عشر سنوات، كنت أريد احتضان معالمها واستنشاق كل ما تحت سمائها من ضوء وضجيج واختلاف وتحضر.. كانت مدينة واسعة، يضيع فيها تاريخ المغترب، وتضيع معه صفحات من حياته السابقة وماضيه.. سوف لن يعرف أحد هنا من هي المرأة التي ولدتني، ومن هو رجل الأمن الذي أنجبني، كنت على ثقة بأن الأمور ستتحسن طالما أن الحضارة سترعاني، وبأنّي سأفتح في تلك المدينة صنبور أحلامي وآمالي بأقصى طاقته.. فيها التقيت بوحيد فيما بعد ليعينني على الاندماج في تلك البقعة الغريبة من الأرض.

تسألوني عن وحيد، من هو هذا الشخص؟ كان شيئاً طارئاً في حياتي لم يخلف أي أثر في نفسي، بوجوده أو عدمه، لم يكن صديقي ولا حبيبي، كان رجلاً غريباً بعيداً عن جنس البشر، لا يجيد الحياة ولا يمكن لأحد سبر أغواره، ليس من اللائق أن

أصاحب رجلاً خاملاً بلا ذكاء اجتماعي، مفتقراً إلى روح المبادرة والاقتحام، لم يكن وحيد متوافقاً مع جموعي وجنوني، لكننا كنا نتماهى في سمات مشتركة ألا وهي الوحدة والخيبة وغربة الروح.

لست مثل بنات جبلي اللاتي يحلمن بعلاقة خيالية مع رجل خمسيني فضي الشعر، ذو بشرة سمراء لوحثها الشمس، بكفين وساعدين عريضين مكتنزين يكسوهما شعر كثيف، يقود سيارة أستون مارتن مكشوفة قرب شواطئ موناكو، يكشف قميصه الأبيض المفتوح عن رقبة عريضة، تحيطها قلادة فضية تتدلى على صدر واسع.. يشبه ما كانه جار يوناني يسكن تحت شقتي، أسمع صوته عميقاً آتياً من تحت شرفتي:

- كاليميرا سويت هارت

يربط لي كل يوم وردة في عصا، يرفعها لتصل إلى شرفتي، كانت هذه هي تحيته في الصباح، وإن لم يجدي، يترك وردته عند باب شقتي.. انه وحيد مثلي، يحكي لي عن طفولته حينما كان فقيراً جائعاً، يوم كانت والدته تضع في كفه تينة وجوزة لدى ذهابه إلى مدرسة القرية، تخطط له سراً من ثوب جدته الميتة قبل أن تموت هي الأخرى على ماكنة خياطتها.. حين هاجر إلى لندن، ذاق مرارة العيش؛ تشرد في الحقائق، واجه عصابات ابتزته وأذلته، اشتغل ليل نهار، حتى صار غنياً يملك ثروة جيدة، تزوج وانجب وانكب على العمل أكثر، ليستولي أولاده بالتالي على ماله بعدما كبر ويتركونه في شقة بلدية بائسة، يعيش حياته اليوم وحيداً بعد موت زوجته. ومع ذلك، فما زال يمتلك وسامة رجال حوض البحر المتوسط.

ما قادني إلى وحيد هو الخوف من الوحدة والحاجة العميقة

للاحتماء بالآخر، يكفي ما مرّ بي من مصائب وخيبات، تخليتُ عن أحلامي لاستحالتها وصرت أحلم بالأمان مع رجل ألجأ إليه في وقت ضعفي، واعتمد على أخلاقه وشهامته. انقضتُ أكثر من أربعة عقود من عمري، وأنا أبحث عن حلمي وعن أرض عادلة مفقودة كنت أسمّيها "آمال لاند"، أسافر إليها مع حبيبتي آمال في الخيال.. آمالي التي رحلت بيوم أسود.

يصعب عليّ نسيان تلك الليلة التي أخذتنا فيها فضيلة إلى حفلة الشؤم.. كان بيتنا الجديد يجاور بيوتاً فخمة لمسؤولين في منطقة مأمونة ومؤمنة كما ينبغي.. في السابق، كنا كلما سكنا حياً، يشتكى الجيران من سلاطة لسان أمي ومن تقارير أبي، فيقاطعوننا، لكن هنا، لا أحد يعير لنا أهمية، لا شأن لهم بنا، نراهم في التجمعات الخاصة حيث تأخذنا والدتي، نساعدهم في تنظيم الاحتفالات الخاصة والعامة، ولا يسمح لنا بالجلوس في القاعة الرئيسية مع الضيوف.

ذات يوم من عام 1994 وفي مساء شتائي ماطر وقابض للنفس، اشترت فضيلة لي ولأختي آمال فستانين فاخرين، أوصتنا بوضع مساحيق تجميل برّاقة، لكي تصحبنا إلى حفلة خاصة في أحد النوادي.. كنت أخشى غضبها فأطعتها وارتديت فستاني، ورغم ضجري وتبرمي، ابتسمتُ حينما رأيت آمال بفستان زهري أضفى على بشرتها يناعة وصفاء، وعلى شعرها الطويل الأشقر جمالاً طاغياً، ليس ثمة تشابه بينها وبينني وأنا بشعري الأسود الفاحم وبشرتي السمراء، كنت أشك أنها ابنة أمي وأبي، ومع ذلك، ما غرث يوماً من أختي الصغيرة ولا حسدتها على جمالها وبراعتها مطلقاً، بل كنت أقرب الناس إليها منذ يوم ولادتها لآخر يوم في حياتها. في أول يوم جاءت للدنيا، تركتها فضيلة وغطت في نوم عميق،

ساعتها، قرّبتُ منها قنينة الحليب وأرضعتها عندما صارت تبكي من الجوع، قمتُ بدور والدتها وأنا بعمر ثماني سنوات.

نظرتُ فضيلة إلى آمال نظرة إعجاب ورضا، أثبتتها قائلة: "ابتسمي، لا تدعي علائم الحزن تبدو على ملامحك، ماذا يعني أن يكون عندك يوم غد امتحان، ماذا تفيدك الدراسة والشهادات؟ لديك رصيد كاف من الجمال لتحمدي الرب عليه" .. كنت أشجع أختي على إكمال شهادتها الثانوية بعد أن فشلتُ أنا في الدخول إلى الجامعة، لكن فضيلة كانت تخطط لها مستقبلاً مختلفاً.

في تلك الليلة، أثارت آمال إعجاب رجال حاضرين، يحدّقون بشهوانية إلى النساء، وحسد وغيره نساء حاضرات.. تالأّت أضواء ساطعة في سقف القاعة، انعكست أنوارها على موائد عامرة وعلى فرقة موسيقية، ومطرب لا يستمع أحد إليه.. خدم يطوفون بشراب وطعام على ناس حديثي نعمة بملابس فاخرة، يتحدثون ضاحكين متذللين إلى آخرين متنفذين أو مسؤولين وحولهم حمايات وحرّاس.. لمحتُ أُمّي تطوف بين موائد عامرة وحاضرين، تهمس وتضحك معهم ضحكات ماجنة، وبعد فترة قصيرة، حدثت في القاعة حركة غير اعتيادية وانتشار أمني ملحوظ، جرى همس حذر عن حضور شخصية تشغل منصباً حساساً في الدولة، من هو ومن أين دخل؟ لم يتسن لأحد معرفة ذلك.. غمر الحاضرين هلع حذر بدا في ضحكاتهم العصبية المفتعلة وهدوئهم، وبينما كنت أتأمل ما حولي، رأيت الرفيقة أم عروبة تتقدم صوب طاولتنا بوجه ممتقع رغم كثافة مساحيق الزينة، بدا صوتها متهدجاً ليس كما عادته: "آمال، تعالي معي" .. نظرنا إليها باستغراب، غير أنها تجاهلت نظراتنا وسحبت آمال من يدها، اصطحبتُ أختي

المرتبكة إلى شرفة مطلة على صالة القاعة، ثم رجعت بعد مدة لوحدها، سحبنتي من يدي قائلة:

- هيا نغادر

- أين أما..

- شششش، بدون أي كلمة

لا أظن انهما يستحقان الحياة، امرأة منحلة ولدتني ورجل وهبني جيناته.. أشعر نحوهما بشعور قائم وبازدراء، عبث كلاهما بحياتي، كنت أنوي شراء سم فئران وأقتلهما دون رحمة.. كرهت الجميع وكل شيء، عهر اتحاد نساء السلطة، خساسة رجل أحببته فنهش كرامتي وخذلني، رائحة خمر وغجر لرجل زوجتني له أُمي، استغلال عمّتي لجهدي وعافيتي، تعددية زيجات الحاج زوجي الثاني، الذي جاء بي إلى لندن جراء صفقة حيوانية ثم غادرني أو ربما غادر الحياة.

منعني ألم وخراب تركته فضيلة في نفسي من الترحم عليها، يوم سمعت بنأ مقتلها أمام بيتها بعد سقوط النظام، لم تسقط من عيني دمعة واحدة، وبالمثل، لم أشعر بعاطفة نحو أبي، منذ ذلك اليوم الذي كتب فيه أول تقرير فيه وشاية للسلطة عن جارنا، غدا بسببه طفل الجار يتيماً.. كان كلما يكتب تقريراً عن أحد، يضربنا، ويفرّغ بنا ضعف حيلته ومتاعب يومه، لم تتدخل والدتنا يوماً لأنها كانت تريد التخلص من كلتينا، وتمكنت من ذلك. جاءت لي يوماً قائلة:

- أنت غير نافعة في الدراسة المسائية، بلهاء مثل الذي خلفك، سأجد لك عريساً مناسباً يصرف عليك.. ضعي مساحيق الزينة بسخاء على بشرتك الباهتة، لأننا ننتظر ضيوفاً الليلة.

تعلم فضيلة أن ما من أحد سيتقدم إلى خطبتي، بسبب سوء سمعتنا ولكوني غير عذراء.. رتبت أمر زواجي بسرعة من رجل آمن بدون عرس أو حفلة، لم تر مني بادرة اعتراض أو رفضاً، كنت في حالة نفسية مزرية لعدة سنوات بعد انتحار أختي آمال، إثر تلك الليلة التي اغتصبها فيها أحد كبار المسؤولين في السلطة، يومها سمعت أبي يبكي لأول مرة في حياته، بل صار يصرخ ويشتم رجال السلطة بأسمائهم، لم يدم الأمر طويلاً حتى زارنا في المساء رجال لا أعرفهم، اصطحبوه إلى مكان نجهله، قبع في السجن فترة طويلة واضطرت أنا إلى قبول ما تمليه عليّ فضيلة، حين سلمتني إلى رجل فظ لا يرى في المرأة سوى ضجيجة، كنت أعجب من رضوخي لهذا المصير البائس الذي لم يكن له مكان في أحلامي.

نظر إليّ من أعلى إلى أسفل ووافق على مضض، كأنه يتفحص بقرة يريد شراءها، وبعد مرور وقت قصير على الزواج، ضجر من هيئتي وشكلي الحزين: "لم ترتدي بدلة الرقص الشرقي التي أوصيت لك بها من مصر، سئمت منك، تبدين كلوح خشب في الفراش، هل تحولت إلى تمثال؟ والأهم من ذلك، لم تأتي لي بولد وذرية، أحمق لأنني تزوجتك وأنت غير عذراء، وفوق ذلك ابنة فضيلة" .. في الوقت الذي كان يعاشرني فيه، كنت أرغم نفسي على التفكير بمواضيع بعيدة عن اللحظة، فأصير مثل واحدة من نساء بطريرك ماركيز وهن يقشّرن البطاطس أثناء معاشرته لهن.. أحبس أنفاسي غيضاً كلما يصل إلى البيت ويبدأ مشاحناته اليومية.. كان أقسى رد فعل منه هو يوم اكتشف اني أجهضت نفسي حتى لا أحمل طفلاً منه، أوسعني ضرباً وأرسلني إلى بيت أهلي مع ورقة

الطلاق، كان يومها عائداً من سهرة مع الغجر، تفوح من ملابسه وأنفاسه رائحة خمر وروث غنم.. ما أكثر الذكور في مجتمعنا وما أقلّ الرجولة، وما أظلم العقلية الإقصائية لبعض الرجال!

أغلب الظن اني أفشيت الأسوأ من أسراري إلى وحيد، في وقت كنت بحاجة فيه إلى البوح، رغم علمي انه ليس بإمكان ذلك الرجل مشاركتي بمواجعي، أو السعي إلى تهدئة ما تشعّر به أنثائي من براكين وهي في آخر ريعان الشباب.. كان لا يحرك فيّ أي شيء، مثلما لا يحرك هو ساكناً، بقي رجلاً "عجيني" الشخصية ولا يعير اهتماماً لمشاركة الآخرين في حياته، باهتاً مثل نكتة إنجليزية.. ما فتئتُ أحتقر الصابرين الذين لا يعبرون عن أنفسهم ولا يغضبون، فأنا لا أعتبر الغضب عيباً بل تعبيراً مجسّداً لحالة عدم الرضا، ومع ذلك كنت أشفق عليه رغم إدراكي أن الشفقة مهينة، وأحاول أن أتذكر كيف ساعدني أحياناً وتحملني.. كنت أطلب منه أن يمشط شعري فيفعل ذلك صاغراً، يمسك لي المرأة حين أضع مساحيق الزينة، يحك شعر رأسه المهمل ويّرم على شفتيه، يبدو فمه حزيناً مثل فم سمكة وتظهر آثار ندب حب الشباب أكثر وضوحاً على وجهه.. ما كان يهمني من خلال وجودي معه هو راحتي لا غير، فلقد هوّن عليّ وحدتي وغربتني في لندن، وبرودة طبع بعض الإنجليز وجمودهم ونفورهم من الأجانب، رغم مظاهر الود والتعذيب الظاهرة عليهم.

ماذا يعرف الإنجليزي عن جيل عراقيين مثلنا، وكيف لنا أن نعلمه بحالنا؟ فتحنا أبصارنا على مظالم عدة؛ حزب بعث وصدام، خوف وترهيب، حرب ايران وحرب خليج، حصار وحرمان، غزو أمريكي وقنابل، عدم أمان وفساد سلطات،

طائفية وإرهاب ومصائب أخرى متوالية.. ما هي الوطنية وما هو الوطن؟ يقول هرمان هسه: (الوطن أن يكون فينا أو لا يكون).. ماذا قدّم هذا العراق لجيلي؟ لا شيء سوى الدمار، كان من المفروض أن يكون المكان الذي نجد فيه راحتنا وأماننا، لكنه خرّب نفوسنا.. سيبقى الخراب والعراق بداخلي حتى يوم أموت.

ما كان لي أن أصدّق أن تتغير حياة العراق السياسية بهذا الشكل.. كل ما أحضر على الفضائيات اليوم، مشهد إسقاط تمثال الطاغية في ذكراه السنوية، أرتعب، صار الخوف في جيناتنا، يكاد قلبي يهمس للمتقدمين صوب التمثال، يا ويلكم إرجعوا أو على الأقلّ تلتّموا واخفوا معالم وجوهكم، سيكون مصيركم الحرق بالحامض، أو ستغدون طعاماً للكلاب وأسماك القرش الجائعة، ستعدمون وسنموت كلنا بسببكم، سيحرق صدام العراق.. رغم اني لا أفقه شيئاً في السياسة ولا أعرف هل كان هذا احتلالاً أم غزواً، ولماذا كانت ثمة ناس كارهة وأخرى مؤيدة لما جرى، لكن شعوراً بعدم الارتياح راودني وقتها، ويوم جاءتني عمتي بالنبا الصاعق، لم أصدقها، وعدت إلى عملي على ماكينة الخياطة، لكنها قالت لي: خرج أبوك من السجن إثر إطلاق سراح المعتقلين.

رأيت رجلاً كث اللحية هزيل الجسد والجبروت، تقيّاً ورعاً، يستبّح ويتلو آيات من القرآن طول اليوم ويكثر من الصلاة والعبادة، تخلصت من سطوة عمتي واستغلّلتها لي ورجعت معه إلى بيتنا، الذي استعدناه بأمر من أحد الأحزاب الحاكمة التي كافأته على "مقارعتة" للنظام السابق واعتبرته سجيناً سياسياً ومناضلاً صنديداً، ناضل ضد سلطات الطاغية وضحّى بابنة له.

نظر إليّ يوماً نظرة استكانة وقال بخشوع:

- ابنتي، الحاج طلب يدك، وكما أعرف، انه يضطر للعيش في لندن فترة من الزمن لقضاء مهام معينة، وسيأخذك معه إلى هناك، إذا وافقت على الزواج منه، وهذه كما أعتقد، فرصة جيدة لك حتى تعيشي في بلاد الغرب وترتبطي كذلك برجل محترم، لا أظنك تجهلين بأن ما من أحد تقدم أو سيتقدم للزواج منك، بعد طلاقك وبعد ما جرى لنا.

على وجه السرعة، ولكي يتزوج أبي من فتاة تصغرني، زوّجني هذا الرجل المؤمن إلى من هو أكثر إيماناً منه، وفي الوقت الذي أتى بي الحاج إلى لندن، اكتشفت أن لديه ثلاث زوجات أخريات، الكبيرة، أم الأولاد، في العراق والثانية في السويد والصغيرة المفضّلة في الأردن، أما أنا، فرأى أن يجلبني إلى هنا، ليجدني جاهزة كلما يجئ إلى لندن بإجازة عمل، برّر ذلك بأنه لا يفضّل الحرام، يريدني أن أكون له إناءً حلالاً، يفرّغ به رغباته الجنسية الشرعية، لا غير.

جئت إلى بلاد الغرب، حيث لا يعير أحد أي اهتمام بالآخر، بقيت معه حتى حصلت على الإقامة البريطانية قبل أن يغادر إلى الأبد.. حاولت إيجاد عمل لي ولم أفلح، قدّمت طلباً للحصول على المساعدات المالية، لقاء البحث عن شغل، وما زلت أسلك هذا الطريق.

أتمعن في مفهوم السعادة، هل هي ببساطة تساوق الطموح والأحلام والتوقعات مع قدراتنا وإمكانياتنا الفردية بفعل الظروف والأقدار، أم هي اختيار بوسعنا تحقيقه؟ سمعت أحد المشاهير يؤكد بأن (الإنسان يكون سعيداً بقدر عزمه على ذلك)، وهناك من قال بأن (السعادة تأتي بعد الألم)، لكن في

بقعة مثل أرض العراق ومع شخص تربي فيه، لا تنفع مقولات جاهزة مستهلكة، بل مقولات خارقة وجديدة، تناسب ما مرّ بالبلد من وجع خرافي.

أظن أنني اليوم أحاول تجنب الآلام، أكثر من محاولاتي البحث عن السعادة، أحاول ملء وقتي بأي شيء تافه، أفكر باقتناء حيوان أليف يملأ عليّ وحدتي، أو أبدأ بالكتابة والنشر، ليس من الصعب أن تؤلف راهناً، فما عليك سوى أخذ عبارات من الأنترنت وتطعيمها بأقوال كتاب مشهورين، ثم تعيد تركيبها لتكون قطعة أدبية جاهزة، ولو حدث يوماً وألّفت رواية، مثل بعض الوحيدة من الخائبات والخائبين، سأعنونها، بـ (أريد حياة ثانية) أو (حقاً، إنني لم أعش حياتي).

سأكون قوية ولا أعير اهتماماً لأي من بني البشر، رغم علمي أن المرأة القوية يكرهها الرجال لأنهم يحسّون بضآلتهم معها، وتكرهها النساء لأنها تذكرهنّ بضعفهنّ، الأقوياء وحدهم من يتمكنون من ترتيب معاناتهم، فلا يتحملون سوى الآلام الضرورية التي لا بدّ منها.. قررت اليوم أن أعيش مع الإنسان الوحيد الذي يستحق أن أعيش معه وهو أنا، سأكون الابنة البارة لقلبي ولنفسي.. نفسي أولاً وأخيراً، ولتذهب رائحة الرجل والعائلة إلى الجحيم بتفاصيل حياتها اليومية وصخبها، بصراخ أطفالها وضوضائهم ومشاكلهم.. ثمة مشكلة في أن ترتبط مع شخص بعلاقة قد تكون فاشلة، ومشكلة في أن تبقى وحيداً، ومشاكل أخرى إضافية لدى الذين يعيشون في خارج بلدانهم، إذ لا يعرف هؤلاء كيف يتوطدون ويندمجون في بقعة هم غريبون فيها، ولا يقدرّون أيضاً أن يكونوا هناك، في تربة أنجبتهم وفيها ذكرياتهم وماضيهم، سأحاول أنا إلغاء الـ "هناك"، فات أوان الأمل والنهايات السعيدة، ينبغي أن يبدأ زمن نسيان

كل ما فات لكونه يقف كفارزة فاصلة بيني وبين نفسي، كل ما يلزم عليّ فعله اليوم هو إطفاء مصابيح الذاكرة والماضي قدر ما أتمكن، والعيش في الحاضر على نحو ما.

وهكذا، استخلصتُ أخيراً أنّ الانتصار الوحيد في حياتنا حقاً، هو أن نعيش الحياة بالطريقة التي نريدها نحن، فما علينا إلا أن نحيا في أعين أنفسنا لا في أعين الآخرين، نقيم صداقات تقف عند حد الوسط، تكون عاطفة القلوب فيها كرابط من المطاط نتخلص منها وقتما نشاء.. لن أكذب على نفسي ولا أخونها ثانية، سأدع أحلامي تجوب لوحدها حتى تصل إلى هدفها، لأنني كنت سابقاً كلما سعيت إليها تهرب مني، أحاول ألا أكرهني اليوم.

أتمنى أن لا ينتهي بي المطاف مثل مصباح عتيق على وشك الانطفاء في بيت مهجور، أو كما حديقة غادرها العشاق، فاضطر بالتالي إلى قبول عمل يجعلني انظف مؤخرات المسنين في دور الرعاية، فأعود بعد انتهاء الدوام إلى شقتي الكئيبة وحيدة بلا أنيس، أكون أول من يفتح الضوء فيها وآخر من يطفئه، أقضم السندويشات أمام التلفزيون، أبحث عن نظارتي على الدوام، أغفو على الكنبه وأنا أفرج أفلاماً عربية بالأبيض والأسود لأبطال كلهم ميتون، تمرّ أيامي تباعاً فلا أهتم بنفسي ولا أقف أمام المرأة، أتقاعس عن صبغ شعر رأسي الأبيض، أستغني عن حمالة الصدر، تسحب الجاذبية أعضائي الأنثوية وتتركها لتتدلى، ثم أموت بعد ذلك ولا يعرف بموتي أحد.. لا أريد لجثتي أن تُكتشف بعد أن تطلع رائحتها مثل جثة وحيد، فنقوم البلدية بدفني على حسابها في قبر مهمل رخيص، تضع فوقه رقماً دونما اسم.. للأسف، سيُدفن الجيل الأول من العراقيين هنا، أو سيذهب بعضه بتواييت إلى بلد

الألف خيبة وخيبة، إلى أرض اشتاق إليها طويلاً، وسينتهي به المطاف ليكون مادة عضوية تمتزج بترابها ومائها، وليس غير ذلك، أما الجيل الثاني، فستكون صلته هشة بتلك التربة التي ولد فيها أجداده، وسرعان ما سيندمج بأرض كان أسلافه يسمونها المنفى أو الغربة.

* * *

القارورة الثامنة

ورقة وحيد عن آلاء

كانت آلاء من أكثر الفتيات اللاتي قابلتهن تناقضاً وتشوشاً
وغرابة.

استلقى مظلوم فريد نعمان على سريري، وضع يديه تحت
رأسه وقال بسخرية:

- أوه ماي غود!.. كم فتاة عرفتھا أيھا الشقي لكي تعتبر
آلاء أكثرهنّ اختلافاً، وكم حسناء انتحبت من أجلك يا غازي
قلوب العذارى، ماذا تتوقع من فتاة مثلها؟ مع ذلك فأنت أكثر
تناقضاً منها بعد أن عشت في بيئة مضطربة أكثر من آلاء.

استرجعتُ ما ذكره نبيل عنها بإشفاق وتعاطف وما أوصاني
به لكي أساعدها قدر ما أتمكن: "مسكينة تلك الفتاة الطيبة،

صاغت الأزمات شخصيتها، قد تكون مصابة بداء ثنائي القطب ولا نعرف، أحسب أنها خير نموذج لجيل نشأ على قيم مشوّهة فريدة في فترة استثنائية غير مستقرة، لا يساورني شك بأنها ضحية عصر مشوّه من تاريخ العراق، وخير دليل على همجية السلطة وقسوتها، فلا تلمها على تصرفاتها مهما تبدو غريبة وشاذة بأطوارها المتناقضة وأمزجتها الغريبة، يكفي أنها لاقت معاملة سيئة من رجال السلطة، ولم تسلم حتى من وحشية جدّها واغتصابه لها وهي طفلة".

حسب تجاربي المتواضعة، لم أعرف سوى القليل عنها وعن النساء بشكل عام، إلّا اني يمكن أن أقول بأنّ آلاء امرأة عجيبة، تبدو جامحة متمردة، بارعة ومنيعّة، شريرة وقاسية.. تظهر رقيقة ناعمة حيناً، غليظة متوحشة تماماً حيناً آخر، سريعة التعلم ولمّاحة، تحفظ بسرعة كل ما تسمعه أو تقرأه.

يوم التقيتها أول مرة في دورة تدريبية، بادرتني مازحة بصوت حريري ناعم ونبرة رقيقة: "يبدو أنك متخصص بالكومبيوتر، أنا متأكدة من أنك ستتمكن من مساعدتي في البرنامج، لكن أخبرني، هل التحقت بالدورة التدريبية من أجل الإعانة والتخلص من التوقيع في مركز العمل، أم جئت إليها حتى تصطاد الفتيات؟"

بدت هادئة ولطيفة رغم جرأتها، أفصحت عن فرحها لأنني من العراق، وبمرور الأيام، تقربت مني أكثر، صرت أساعدها بشتى الأمور وألبّي لها ما تريد، أعيرها الكتب التي بحوزتي، أو أستعير بعضها من القسم العربي في المكتبات العامة، أتسوق لها ما تحتاج من شارع العرب وأبتاع لها معظم طلباتها الشخصية.. كلفتني يوماً لأشتري لها جهاز كومبيوتر، ذهبتُ

إلى شقتها في شارع هارو لتشغيله ولتعليمها كيفية استخدامه، وكذلك مساعدتها في أمور الدراسة وملء الاستمارات، كان ذلك أمراً عادياً كالواجب بالنسبة لي.

يقاطعني مظلوم لائماً:

- أعرفك جيداً يا صاحب الواجب.. ربما كنت ترى الشبق في عينيها، وتستثيرك بحركاتها الأنثوية بالغة السحر، لكنك لا تحرك ساكناً، تؤدي واجبك في مساعدتها ثم تخرج ذاهباً إلى شقتك، أنا على يقين من أنك لم تكن لا فعلاً ولا حتى رد فعل معها، كنت حجراً يتنفس، ماذا دهاك، ولماذا لم تفعل شيئاً أيها اللاشيء؟

ربما كانت تستدرجني إليها عندما تعلق حمالات صدرها على مقابض الأبواب، وتنتشر ملابسها الداخلية فوق أجهزة التدفئة كلما أحضر.. ما كنت متأكداً مما يجيش في دواخلها، أشعر بأنها تائهة وتريدني أن أرشدها إلى الطريق.

- لم تقل لها، "أنا معتم وحافي القلب يا فتاة، وبما اني غير قادر على ترميم نفسي، فلا أقوى على ترميمك، رسائلِك تصلني ولا تترك وقعاً مطلوباً في إدراكي وأفعالي، أفهم انك تشعرين بعزلة ووحدّة، ولكن أقصى ما أستطيع فعله هو أن أكون كتفاً لك ومتكاً، لا يمكنني أن أكون أكثر من ذلك، أنا منفي آخر في هذا المنفى الكبير الذي نحياه، ليس بمقدوري إنقاذ نفسي فكيف يتسنى لي إنقاذك؟ لتعلمي أنه لا يمكن لإنسان مكسور أن يعيد شظايا إنسان آخر ويكون صمغاً له.. عبثاً تحاولين إنقاذ نفسك بي وأنا تائه ومشطى".

بعد أن تواصلت معها لردح من الزمن، أدركت أنني لا أحتاج إلى النظر في عينيها، لأرى كم كانت تحتقرني، أكاد

أحسّ بذلك من نظرات حنقٍ ودونية تصوّبها نحوي كلما أرمقها، ومع ذلك لم تتمكن من الاستغناء عني، تبدو مثقلة بالكلام على الدوام، تنوء بحمل أسرار كثيرة، وعندما كانت تبوح، لا تتوقف، تصل أحياناً إلى ذروة الصراخ والسباب، حتى اني لم أسمع بحياتي بتاتاً أقدر من كلمات كانت ترددها.

- ومع ذلك بقيت تتردد على شقتها كلما تطلب منك، كنت مثل قطعة قماش تمسح بها أحزانها وكما إسفنجة لينة، تجعلك تمتص متاعبها وغضبها وذكريات ماضيها الكريه ثم ترميها في سلة المهملات بعد ذلك، كانت كل ما تناله منك هو صمتك العظيم، كم كنت ماهراً في الصمت!.. ستظل هذه الفتاة تتحدث دون انقطاع مع إدراكها بأنك تشعر نحوها ونحو الكون بلا مبالاة عجيبة.

لم أنس ما حدث في ذلك المساء الذي استقبلتني فيه وهي هادئة ولطيفة، كانت ترتدي ثوباً بيتياً مكشوفاً فاقع اللون، وشعرها الفاحم يغطي كتفيها بطريقة تبدو مغرية لآخرين، غضضت بصري واتجهت صوب الكومبيوتر، ولدهشتي وجدتُ على الشاشة فيديو لتعذيب المعتقلين والهاربين من الخدمة العسكرية في عهد النظام السابق، نظرتُ إليها بحيرة، فلم تعلق بل قالت لي:

"اليوم، سأقدم لك شيئاً آخر بدل الشاي".

ذهبت إلى المطبخ، وحينما أدركتُ رأسي نحوها، شاهدتُ علب بيرة فارغة في سلة المهملات المفتوحة، وأخرى على الأرض.

رجعتُ وهي تحمل قنينة فيها بقايا من مشروب أسمته بريسكو، ناولتني كأساً ثم تمددتُ على أريكة قريبة من مكاني

وطلبت مني طلباً غريباً: "هل تعرف أحداً قريباً من هنا يبيع حشيشة، ماري جوانا، كوكايين أو أقراصاً مخدرة مثلاً، ما رأيك أن نجربها؟ اليوم عيد ميلادي، وأريد أن أكون في أقصى حالات الانسراح، لا تنظر إليّ هكذا، ناولني حبة بروزاك من عندك".

- أولاً.. عيد ميلاد، بيرة، بريسكو، إثارة وانشراح! ماذا ستفعل يا ترى أيها الوحيد، وكيف ستتصرف؟ لا تدري طبعاً.. لكن كيف عرفت آلاء، بأنك تتناول دواء الكآبة أحياناً؟

بحثت في جيوبي فوجدت الدواء، أعطيتها حبة، ثم رجعت لعملي على الكمبيوتر، ابتلعتها مع رشفة من الشراب وصمتت لبرهة.. بدأت فيما بعد حديثاً، تحولت فيه من النعومة والرقّة، إلى ما يشبه الصراخ والعويل:

"هل أخبرك أحد بأن ما يجري في عروقتك، عصارة أحجار ورمال وليس دماً، وأنت تستخدم عضلة قلبك لضخها فقط؟ لماذا لم تهنئي وتتمنّي لي عمراً سعيداً مديداً، حجر أنت، لماذا لا تقترب مني، لا أعجبك يا قواد؟ ما علينا، لا تقلق، لن أكون إزميلاً أكسر به صخورك في هذه الليلة بالذات، شهيتي الليلة مفتوحة للبوح والغناء لا غير، (خمرة الحب اسقنيها، همّ قلبي تنسينيه، عيشة لا حبّ فيها، جدول لا ماء فيه).. ستسمعني حتى الرمق الأخير رغماً عنك، وسأغني لك يا وحيد يا ابن فريد الأطرش، (عدت يا يوم مولدي، عدت يا أيها الشقي، الصبا ضاع من يدي، وغزا الشيب مفرقي.. آه آه آه).

أثناء ما كانت تغني، تميّز صوتها بغرابة مربكة، تغيّرت نبراته بشكل مفتعل، من ناعم أنثوي إلى خشن رجولي، راحت

تضحك وتبكي وتصرخ.. لم تضحك ولم تبك يوماً مثلما فعلت تلك الليلة.

- كنت يا وحيد أذنأ تسمعها فحسب، كان بإمكانك أن تكون فكرة آمنة في رأسها القلق، تبهرها بتصرفاتك الرجولية وحديثك المشترك وتطمئن قلبها المتوتر برفق، لأن في قلب كل إنسان مهما كان أحرق، زهرة تتفتح باللطف، وحجم رجولتك يقاس بحجم ابتسامة ترسمها على ثغر امرأة.. أنت لا تعرف عنها شيئاً، لأنك لم تحاول أن تسألها عن نفسها، ولكن، هل تعرف أنت نفسك أولاً؟

هزّت رأسها مثل عصفور أصابه بلل وأكملت:

"أنت لا تعرف عني شيئاً يا ابن الناس.. وأنا انتظر الحاج ليأخذني إلى لندن، رضىت أن يحجبني رغم كراهيتي للحجاب الذي يصور الإسلام والتقى محض غطاء شعر، والشرف غشاء بكاره فحسب.. كانت تلك المدينة نعيماً في بالي، بل خيلاً يساعدي على تحمل ما مررت به، كنت أقول إن السماء التفتت نحوي أخيراً، فوهبتني رؤية هذه المدينة العريقة والعيش فيها كدليل على رضاها عني.. لم أرها إلا من الجو وبعدما طلبتُ الطلاق من الحاج بحجة انه اغتصبني وأنا الزوجة الرابعة له.. جعتُ فيها وشعرت بالحرمان وعند ذاك خبرتها على حقيقتها، كانت حلماً ابتعد باقترابي منه، ربما يوحي اسم "مدينة الضباب" بأن كل ما يجري فيها يكون في جو مستتر يلفه الضباب والغموض والقسوة.. ينعم فيها أسياد قليلون على قمة الهرم الاجتماعي بحياة مرقّه ورواتب عالية، يتمتعون بغذاء صحي، مال وفير، سكن واسع مريح، مدارس راقية لأولادهم، وسفرات إلى أحلى وأغلى أماكن السفر في

العالم.. أما في قاعها فيعيش عبيد محرومون أشبه بحيوانات راضخة، تسحقهم آلة العمل من الصباح إلى المساء، رغم أن بإمكانهم الحصول على كل شيء أيضاً لكنه من أسوء النوعيات، يحشون معدتهم بطعام رخيص يخلو من التغذية السليمة، يتعالجون بدواء رخيص، يسكنون في شقق حكومية بائسة، يتخرج أولادهم من مدارس عامة تافهة ليستغلوا تالياً في سلسلة مطاعم مكدونلدز، أو لينحرفوا ويضيعوا، وبالرغم من ذلك كله، تكن تلك الطبقة المسحوقة حقداً دفيناً على الغرباء.. ما جدوى العيش في جنة وأنت محروم من خيراتها؟ كنتُ أفزع من كل شيء فيها بدايةً، حتى أصوات سيارات الشرطة والإسعاف، تذكّرني بسنوات الحرب في بلدي التي لا تبرح تعشعش في رأسي، واليوم صرت أفزع من وقوعي في قاع تلك المدينة العجوز".

- ها هي الفتاة البسيطة تفهم في التفاوت الطبقي وعيش الحد الأدنى أكثر منك، هل كنت تبالي وأنت تبدو أمامها كشخص هامشي أخرج لا يملك رأياً؟ وفوق ذلك كنت تريد الهروب من تذكر ما يؤلمك، في الوقت الذي يكمن الخلاص والتحرر من التجربة باختراقها وليس بالتوقّي منها، لأنها ستلاحقك حتماً وستتمو في بالك.. هذه الفتاة أشجع منك.

شربت ما بقي من الزجاجة، نهضت بصعوبة وذهبت إلى المطبخ لتفتح علبة بييرة جديدة، وفي طريقها إلى الصالة، رمت نحو نظرات جامدة بلا ملامح، ارتعبت لقوتها.. واصلت:

"هل تعلم بأني كنت أكثر المتحمسين في الجوقة للنظام؟ ليس لأنني أحبه وأؤمن بعدالته، بل لسبب منطقي وهو انه لا يمكن أن تعيش في واقع ترفضه، سيحلّ بك الدمار وتهلك، وما كان

عليّ سوى أن أتصالح مع ظرفي في صميم لا وعيي وأقنع نفسي بأن ما يجري هو الصحيح، وهو ما يجب أن يكون.. كانت أمي الفيلسوفة الفاضلة فضيلة تقول: (إن كان ليس ثمة مناص من التملص من الاغتصاب، فما عليك سوى الاستمتاع به، وليس بمقدور الضعيف سوى الخضوع للقوي باقتناع)، لا أخفيك سرّاً لو قلتُ بأنّي أحب منطق القوة في كل شيء، وأؤمن أن فيه الحياة المطلوبة نحو الارتقاء وفيه العظمة والخيلاء، أردد دائماً مقولة البقاء للأقوى، والحق مع القوة، مثلما يهذر نيتشه".

قستُ ملامحها وتصلبتُ أثناء زيارتها لماضيها، وخيل لي أنها لو بكت فأما ستنفجر، أو تتيبس ولا يفضل منها سوى الجلد، رغم ارتخاء حركاتها وكلامها، تواصلت:

"كلكم وحوش وحقراء.. إذهب إلى الجحيم يا وحيد يا ابن فريد الأطرش غير الشرعي، وحيد الأطرش والأخرس والجبان.. (فك يو) تباً لك أنت والدكتور الهزاز - أبو رعشة- الذي تُعجب به، من الأفضل له أن (يضرط من طيز وسيعة) كما جاء في رواية لعبد الرحمن منيف، دكتورك مع أنفه الذي يشبه حبة بطاطس كبيرة، يعيش في لندن منذ قرن ولا يعرف شيئاً عن الواقع العراقي، دعه يذهب اليوم أسبوعاً واحداً إلى العراق، سيجعلون جسده يرتعش بالكامل وليس يده فقط، وسيضطرونه إلى أن يكفر بكل الطيبة والطيبين، (هؤلاء هم أهلنا الطيبون).

قلّدت صوت الدكتور نبيل وحركة يده المرتعشة بإتقان وسخرية.

"لا طيبون ولا بطيخ، كلهم قواويد، هل بقي طيّب في هذا الزمن الأغبر؟"

وضع مظلوم يديه على صدره وأرجع رأسه إلى الوراء ضاحكاً:

- ربما كانت تدرك جيداً بأن الطيبة هي السمة التي تميّز الإنسان عن الحيوان، لكنها للأسف أكثر صفة خسرانة اليوم.. في ماعدا وقاحتها وجرأتها، تشبهك آلاء في طبقات شخصيتها وتعقيداتها وتناقضاتها يا وحيد.. لو كنت حقاً تبغي مصاحبتها، لصرت أمامها رجلاً قوياً بأرائك ومواقفك وثقتك بنفسك، ولكنت تخلصت من تحمّل حالاتها وأطوارها الغريبة وتقلبات مزاجها، لكن ماذا أنت فاعل معها الآن أيها الأحمق؟ تجلس صامتاً مثل الأهبل وتستمع إلى هذيانها وأوهامها وشتائمها.. ماذا لو كانت هذه الفتاة تخلق القصص عن حياتها المنصرمة وفق خيال خصب؟

كنت أسمعها تتحدث عن حياتها أمام آخرين، بقصص مختلفة كلياً عما تحكيه لي أو للدكتور نبيل عندما أخذها للترجمة عند طبيبها النفسي.. كانت تعترف قائلة بأن لا أحد في لندن يعرف تاريخ الآخر وحقيقته، التي ستضيع في خضم متاهات هذه المدينة الكبيرة، وحتى لو عرفوا، فسرعان ما ينسى الناس الأمر وينشغلون بأمور أخرى جديدة.. ذاكرة الجماعة لا تدوم بهذا الزمن لسرعة ما يتوالى من أحداث، ولكثرة الناس في تلك المدينة وانشغالاتهم.. كنت أندهش من فرحها المفاجئ وحزنها الذي يليه، من رومانسيتها وتوحشها.. أتحير ويصيبني الذهول حينما تتصرف أمامي مثل طفلة هوجاء، وتطلب مني طلبات غريبة كأن تعصر الرؤوس

السوداء في أنفي أو تنتف شعراً نافراً من منخاري وأذني.

- ونتيجة لغبائك وبلادتك المطلقة، تطاوعها كعادتك ولم تمنع حينما كانت تؤذيك بساديتها، رغم تعنيفها وشتمها لك بقبيح الكلام بل كنت ترضخ وتطيع، أنت قطعاً مازوخي كبير وعاجز.

تثبّ نحوي كما طفلة قائلة بتأجج وابتهاج:

"دعني أعصر لك أنفك الدهني اللامع، كم مرّة أقول لك نظّف وجهك جيداً (ببيي) لكي لا تتراكم فيه الزيوت وتصبح إزالة الزيوان لاحقاً! وبما أنك مشاكس لا تستمع لكلامي، لهذا سأطلب منك اليوم تفصيل حبات الرمان حتى لا تتلوث أصابعي، وألا سأؤذيك بأظفاري الطويلة يا شقي، سأنتزع الشعر النافر من أنفك وأذنيك، كما سأركب على ظهرك لتمشي بي في الشقة".

غالباً ما كانت تضحك عندما كانت تنزع شعر أنفي بالملقط، وحينما تشاهدني أرتجف قليلاً من الألم دون أن أشتكي، ثم تعود للصراخ والسباب عندما أتحرك، وما أن تهدأ حتى تضحك ثانية وتلمع ضحكتها مثل بلّور ناصع، وأحياناً تطلب مني أن أبقى فمي مفتوحاً، ترمي نحوي حبات عنب من بعيد، وتبالغ في نوبات ضحك هستيرية حين تخطيء الرماية وتصيب عيني، تترجاني أحياناً لكي تصعد على ظهري، أسير بها على أربع في الشقة كما يفعل الآباء مع أبنائهم.

- كنت تقول لا بأس، قليل من الجنون ضروري في حياتنا ليمنعها ألواناً، لكنها كانت تتماهى في سفاهتها أحياناً فتضربك وترفس مؤخرتك برجلها، تسمح لها يا وحيد وتتقبل اعتذارها.. كيف تقضي وقتاً طويلاً مع فتاة مريضة، وكما

تصف هي نفسها، ابنة قوادة من الدرجة العاشرة وأبوها رجل أمن حقير، كيف كنت تطاوعها في مراقبة المكان عندما كانت تسرق من المحلات والأسواق؟

أحياناً كنت أضطر إلى المساهمة معها في إخفاء بضاعة المحلات المسروقة تحت معطفي، أعطيتي على فعلتها لَمَّا كانت تبدل أحذيتها وملابسها بأخرى جديدة من المحلات، أو بأخرى نصف مستهلكة من دكاكين المنظمات الخيرية، كانت تصفّق وتبتهج كطفلة كلما تبدو طريقتها في السرقة غير مكشوفة وتنتهي بنجاح، رغم كاميرات المراقبة والحراس، تبرّر ذلك بأنها بحاجة ماسة إلى عمل تحدّ يميّزها عن الآخرين، ويُشعرها بالنشوة والظفر، تردد بنشوة، "اسرق، اسرق لكي تشعر بلذة الانتصار، فالفرق بين النزيه النظيف واللص، هو أن النزيه لحد اللحظة لم يسرق .. رغم ذلك، كنتُ أشعر وقتها بالذعر والرعشة حتى تتمكنني رغبة شديدة في القذف.

- ستظل تحمل ذلك الذنب وسيؤرقك فُعلك البذيء، لو كنتُ مكانك، لردعتها وهددتها بفضح كل أسرارها وتاريخها لكي تكفّ عن أفعالها الحمقاء، لا أن تعينها على السرقة والاحتيال.

ذات مساء، ومن دون مناسبة، أسهبت بالكلام عن حياتها.. كانت صريحة معي إلى حد اللعنة:

"سأبوح لك بسر أكرهه، هل لك أن تتصور بأنني لم أبلغ الاورغازم في حياتي كبقية النساء؟ لستُ متأكدة من معلومة هددتني بها فضيلة في حالة غضب وأنا طفلة، يوم أخبرتني بأنها ستقوم بختان أعضائي التناسلية.. لهذا السبب، تعرّفتُ على رجال كثيرين وارتبطت معهم بعلاقات سريعة، بيد أنني لم

أحب أيّاً منهم، ولم أشعر بالاستمتاع معهم، جرّبتُ مرة أن أذهب إلى إحدى الحانات للتعرف على رجل، لكنني خرجت منها مشمئزّة.. حدث ذات مرّة، أن راودت توني، ساعي بريد في منطقة سكني عن نفسه، لكي أجرب حظي في النشوة وبلوغ الذروة، كان هذا الرجل يشبه قطعة شكولاتة خرجت للتو من علبة ماكنتوش، بقامة أفريقية ولون خلاسي وذكورة جليّة، لطالما سمعتُ عن فحولة الرجل الأفريقي وقدرته الخارقة على إمتاع المرأة وعن تهافت النساء البيض عليه.. أغويته بشتى الطرق، ليكون تجربتي في معرفة مدى رغبتي الجنسية ومقياس استمتاعي ونشوتي، ليلتها لم أشعر بشيء معه ولم أره ثانية بعد ذلك.

لم تتوقف رغبتي الأنثوية في أن أنال إعجاب كل الرجال، كنتُ أريد دائماً أن يفضّلني الرجال على حبيباتهم أو زوجاتهم، أحاول بدلاي وضحكاتي وتغنّجي استمالتهم، وبشتى الوسائل الأخرى، فما أن يتجاوبوا معي حتى أهملهم شرّ إهمال، كم أعجّب بنفسي حينما ألحق الأذى بالرجال!.. أنا على يقين بأنني لن أرتبط برجل ولن يكون لي زوج بعد اليوم، لن أفعل ذلك أبداً.. لكن لو أستطيع تفصيل رجل حسبما أهوى، لكنت أفكر بالأمر من جديد.. سأختار وسامة جلال، مع رومانسية ورقة وتهذيب جاري اليوناني، إضافة إلى لباقة الحاج وأناقته وثرائه، زائداً فحولة توني وامتلاء ساعديه اللتين لم تخلقا سوى للحضن، وأضيف على هذه الخلطة، النظافة الخارجية والداخلية لصاحبك الدكتور نبيل وطيبته، أما منك أيها البائس، فسأخذ سعة صبرك وطاعتك.. ستكون عندي حينذاك قطع نادرة قيّمة لفتى الأحلام المنشود، أجمعها وأخيّطها في رجل واحد، الرجل اليوتوبي الفاضل، لأنني لن أرضى بعد اليوم

سوى بحب ساحق أسر، ييهجني ويؤلمني بالوقت نفسه، ويظل متوهجاً بداخلي حتى وقت الموت، سأقول لرجلي حينها، تعال أحضني بقوة ليحلو لي الموت ساعتها، أما غير ذلك فلن أقبل بأي بديل".

- تهفو تلك الفتاة إلى الكمال والإتقان، عندها تَوَقُّ إلى (كل شيء أو اللاشيء)، تحاول أن تتصرف وكأنها كاملة ومثالية.. من اللازم أن تتعلم يا وحيد أن لا تولي ثقتك إلى شخص مثالي جداً، أو للذي يبحث عن المثالية المطلقة.. أراهن على أنك كنت مستمعاً مزماً ولا أكثر من ذلك.. غبي، لماذا لم تطرح وجهات نظرك؟ كنت تظن أنها كانت بحاجة إلى إصغائك أكثر من حاجتها لآرائك، وانها ما كانت تنتظر ولا تكثر لإجابات منك في تلك الليلة، وعلى وجه الخصوص، حينما تحدثت عن حياتها في العراق ولندن.

فاضت لي بالكثير عما فعلته في لندن لكي تحصل على ما تحتاجه:

"بعد فشلي في الحب والفراش معاً، حصرتُ تفكيري في الثراء وبأي طريقة، بدأت بالعمل كمنظفة في البيوت، تعطيني وكالة التشغيل مفتاح دار فأذهب إلى العنوان، أمسك المفتاح بيدي وأتخيل أنني سأدخل إلى داري، أرى صالة كبيرة وأثاثاً أنيقاً، أدخل إلى غرفة النوم، أتمرغ على الفراش قبل ترتيبه، أتشم رائحة ليلة حميمية وسعادة أنثى تختبئ بين طيَّاته، أجرب عطوراً مرصوفة قرب المرأة، أحلم بأنني سيدة البيت وأقوم بانتظار زوجي.. كنت أمعن النظر في صور الزواج المعلقة على الحائط وأحسد النساء، لأنني لم ألبس الفستان الأبيض في زيجتي الاثنتين.. في إحدى المرّات، رأيت صورة

امرأة دميمة الشكل بفستان أبيض تقف مبتسمة إلى جانب رجل وسيم، وضعتُ على وجهها قطعة لبان، شاء سوء الطالع، أن أنساها بعد انتهائي وخروجي من البيت، وجرّاء ذلك طردوني من العمل.

رغم أنني أكره الأغنياء، لكنني كنت أحب أن أكون واحدة منهم، اعتقاداً مني، بأن من امتلك الثروة امتلك رفاهية العيش ومتع الحياة.. بتأثير بعض المشاركات معي في دورة التدريب، صرْتُ أرافقهم إلى المراقص والنوادي الليلية، من أجل مصاحبة سائحين أغنياء مقابل المال، أجالسهم على طاولاتهم أثناء احتسائهم خموراً باهضة الأسعار وتناولهم لأرقى أنواع الطعام، ولا أكثر من ذلك، لكنهم كانوا يقومون أحياناً بقرص أفخاذ وأذرع مرافقاتهم، وما كان علينا سوى أن نبتسم لهم رغم الألم، وأكثر ما كان يزعجنا، هو مداعباتهم من تحت الطاولة، غير أن الأمر سرعان ما يهون، لأنهم يثملون ويكرمونا بمبالغ سخية، ثم يقفلون راجعين بسيارات فارهة تنتظرهم إلى شققهم أو فنادقهم الفاخرة، ولك أن تتخيل كيف كانوا يمارسون الجنس بأوتوماتيكية مع زوجات منهكات من التسوق في متاجر هارودز وسيلفريجز، بعد استخدامهم لنا للتسخين والإثارة".

- لا يخامرني شك بأن الكائن البشري هو من أعقد المخلوقات في الأرض، وأغربها في تناقضاته وتقلب حالاته، والمرأة هي أعقد كائن بشري كما قيل عنها.. حقاً أنت لا تعرف شيئاً عن المرأة يا وحيد.

كانت تصفني بهذه الصورة قائلة: "لا تعرف شيئاً عني أيها الحمار، عن امرأة وحيدة لم يحالفها الحظ في الحياة ولم ولن تعرف معنى الأمومة، تعود بمفردها إلى الدار ولا تجد من

ينتظرها.. أنت لا تعرف شيئاً عن حياة ملطخة بالرجاء، وعن طفلة لم تسمع من بنات محلتها يوماً كلمة (صديقتي) أو (هيا، تعالي العبي معنا)، حتى بعد أن أعطت دميّتها وحذاءها لأبنة جارة يتّمها زوج فضيلة بتقريره، وتقربت منها متوسلة رفقتها وغفرانها، وذلك ما لم يحدث، لم تحظّ بصادقتها أو بصداقة من معها.. لم أكن محبوبه من أحد رغم أنني لست عاهرة ولا مبتذلة، كما اني لست طاهرة ولا فاضلة، كنت إنساناً ذا حاجة.. هل أنت زانية يا آلاء؟ سؤال ما فتى يدمّرني".

- لماذا نريد أن يحبنا الآخرون ونبذل جهوداً مضنية لكي نكون محبوبين؟ ربما لخلق حالة رضا عن النفس.. لا تصمت يا وحيد، بيّن لها المعنى الحقيقي للفضيلة والدنس، أخبرها أن ما من أحد يمكنه الحكم على طهرانيتك أو خطاياك يا فتاة، لا تنتظري من الناس أن يفعلوا ذلك، أنت من يعرف ويقرر.. ولكن كيف تتمكن من ذلك وأنت لست فاضلاً لكونك قاتلاً وسارقاً؟

أصمت أنا وتواصل آلاء: "لا تندesh إن وصف الناس عمل رجل ينام مع امرأة بالرجولة والشطارة، وبالمقابل، يصفون نفس الفعل بالدعارة إن أقدمت عليه امرأة.. هل تعرف أن أغلب الرجال يجربون علاقات أخرى غير التي هم فيها، بحجة تجديد الحياة والتخلص من الملل والرتابة والحاجة إلى التغيير؟ وأحياناً، تفعل بعض النساء الشيء نفسه اليوم.. ما من نقي بشكل خالص في هذا العالم العجيب، نحن نعيش في زمن غريب، لم يعتبر أحد فيه أختي آمال ضحية، بل قالوا إنها عاهرة مثل أمها، في الوقت الذي غدا فيه والدي نجيباً وخيراً

وتحوّل إلى رمز ديني طائفي ومضطهد سياسي، رغم انه كان رجلاً أمن ومجرماً حقيراً".

تمسح دموعها وتقوّم ظهرها، تدفع بشعرها الفاحم للخلف بطريقة أنثوية بالغة البهاء والإغراء، يمتدحها آخرون غيري باشتهاء، كانت تلك عادة تقوم بها كلما تحاول نسيان موضوع، تذكرني بلقطة لريتّا هيوارث في أحد أفلامها.

- يا لتلك الفتاة! إن كان ثمة أمور يمكن وصفها بلغة وتحليلها بمنطق وحجج، فلا تصل كلمات اللغة إلى تفاصيل آلاء الشخصية ولا تخضع إلى تحليل ومنطق، تناولت أيامها كميات كبيرة من أوقات فاسدة وتسممت حياتها، لكني أرى أن بوحها راق لك وتعاطفت معها.

ثملت وراحت تمطّ في الكلام:

"عالم تافه وسخيف، مقياس النجاح فيه مال، هدايا، شهرة، ملابس، أضواء، وخير دليل على ذلك، نجمات الواقع وهنّ يجنين اليوم ثروات طائلة، جراء امتلاكهن لمؤخرات كبيرة، نصيحتي لك، راهن على مؤخرتك تكسب.. على أي حال، جرّاء مرافقتي للأغنياء الأغبياء صرت غيبة مثلهم، كنت أحصل على النقود بسهولة وأنفقها في اليوم التالي برعونة وسوء تدبير، أهرع إلى أرقى متاجر شارع ريحنت وأوكسفورد، أقتني أغلى الأشياء، أفطر في فندق ريتز أو في محلات هارودز، أتناول الغداء والعشاء في مطاعم كينزيكتون وأصرف آخر بنس عندي، حتى جاء اليوم الذي طردوني فيه من العمل بعد أن سرقت ساعة رولكس من أحد الأثرياء.. صرْتُ بعدها، أشتري أكياس التسوق البلاستيكية من المحلات

التجارية المشهورة، فقط لأتباهى بحملها باعتبارها رمزاً لمكانة المرء الاجتماعية لدى عرب لندن.. يا لبؤس من يقيّم الإنسان بالكيس الذي يحمله، كنت أعتقد بأن الحياة هنا أرقى من أن تلاميضي واتضح لي غير ذلك.. ستسألني كيف ولماذا تحجبت وصرت أذهب إلى المسجد كل يوم جمعة، هل تعرف أيها البائس أن بعضهم يمنحون مبلغاً من المال أسبوعياً لمن تتوب وتتحجب؟

ما علينا.. سأشرب بصحتك يا ولدي، يا من تسكن في قبر مسدود، أحكي لك وأنت مفقود مفقود مفقود.. فلتذهب إلى الجحيم.. (فك يو)، بئساً لك يا وحيد يا فريد، يا صاحب الإحساس الفقيد.. (بُل شِت) كبيرة على رأسك، اللعنة عليك يا مستر نومان، مستر نو بودي، سيد لا شيء.. لو كان الأمر بيدي، أزرق أمثالك من البشر أبرأ، تنقلهم مباشرة إلى العالم الآخر، مع كل المجانين والمرضى الميئوس منهم، وكل اللامكترئين والصامتين، ما جدواهم في الحياة، ما جدواك أنت، أخبرني؟"

- تصلح آلاء لتكون نازية من الدرجة الأولى.. أما كنت تخشى منها؟

كنتُ أحياناً أخاف منها.. أطلقتُ في تلك الليلة العنان لصراخها وسخطها واستيائها، وسرعان ما أفرغتُ كل ما في جوفها من طعام وشراب، أظن أنها كانت تتناول الخمرة لأول مرة بتلك الصورة.. أخذتها إلى فراشها بعد أن انتهت، رميتُ عليها الغطاء وانتظرتها حتى نامت، أطفأتُ ضوء الغرفة وخرجت.. في ذلك المساء كان ذباب عنيد حائر يحوم في ذهني.

- هل راقت لك قارورة العطر هذه يا وحيد وأبهرك تحديها للكمال والنواقص الذي تفتقرهما، هل أعجبت بجراتها وقدرتها على التعبير عما يجول في دواخلها؟ يقال إن النساء غالباً ما يقتلن عكس ما يعنين، والرجل يصدق ويرى سطح الكلام فقط، ولا يدرك مقاصدهن وما في دواخلهن، يردنّ منه أن يفهم ما يرمين إليه دونما حاجة إلى تلميح منهن، هل تتصور إنها كانت تطلب منك أن تطارحها الغرام بصورة غير مباشرة؟ ربما أحببت سقطاتها الأخلاقية أو أغرمت بتلك الندب الصغيرة على جبينها، جراء تعنيفها عندما كانت طفلة، وأعجبتك ندباً داخلية عميقة مشابهة لندب في داخلك، ربما تعودت عليها لتعاقب نفسك بتصرفاتها الحمقاء والعنيفة بحقك، ولهذا السبب كنت تعود وتساعدها.. ما جدوى أن تسقي زهرة ميتة، وما هذا الخراب الذي في رأسك، ألم تهدر كرامتك، حين جعلتك كقطعة من لباب خبز، تفرکہا وتكوّرها بين أصابعها وقتما تشاء؟ تنقم عليك تارة بمجرد انك حظيت بسعادة وجودها بجانبك، وتارة أخرى تطلب منك باكية السماح والعون.. لم تفكر بطريقة مجدية، للتعامل مع وجعها وخيباتها لأنك مثلها، ولم تندهش لحكاياتها وبوحها بعدما فقدت الإحساس بالدهشة والحماس، إذا أنت لم تندهش إذا أنت لست موجوداً.. ستتركها أليس كذلك؟

حينما قابلتها آخر مرة، عرضت عليّ بإلحاح خيارين أحدهما أسوء من الآخر، وهما أما أن أزرع في أحشائها جنيناً، كي تجرب الأمومة بآخر بويضة بقيت لديها، أو أن ننتحر سوياً، بعد القيام بعمل بطولي خارق يحدث ضجة في لندن.. فاجأتني بأفكار غريبة حين قالت:

"عليك اللعنة، أخشى أن تكون معتقداً بأنك جورج كلوني أو بيرس برسنان، فلا تهبني حيواناتك المنوية الخاملة البلهاء؟ على أي حال، أنا لا تهمني صغائر الأمور أمثالك، ما يثيرني هو الأفعال الكبيرة، وأنت أصغر من ذلك.. لكن هيا، سجّل لي وصيتي على اليوتيوب، ليكون توديعاً واحتفاءً يليق بحياتي المكّلة بالبراز، والتي سأختمها بعمل بطولي استثنائي، ستسجّله لي مباشراً وحصرياً، لكي يراه ملايين الحمقى الباحثين عن الأخبار المثيرة.. لكن قبل ذلك، ما رأيك أن نفجّر البرلمان معاً أو نبرز في ويستمنستر أبي ونشعلها بالنزّين؟ من الأفضل أن نلتحق بأي تنظيم إسلامي متطرف، دعنا نذهب إلى أفغانستان وننضم إلى صفوف طالبان، أو نساfer إلى الحسكة ونلتحق بالقاعدة أو داعش، سيعطوننا رواتب مجزية، ونخوض في الوقت ذاته، تجربة جديدة تغيّر روتين حياتنا، سأقوم أنا في كل سنة، بإنجاب طفل معجونٍ بالقلم من هؤلاء الأنجاس الأوباش، ضع في بالك إننا قد نكسب منهم ثروة، أحتاجها فيما بعد لكي أنحت جسمي، أو أجري عمليات تجميل لأفني ووجهي.. أو ما رأيك أن نتعاون مع جهاز المخابرات أم أي 6؟ ما الذي سنخسره؟ ليس لدينا بيت نهتم به ولا ابن نرعاه ونخشى على مستقبله ولا شريك نتشاجر معه فينقضي يومنا، ولا حتى وطن، عراقنا بلد الموت والأحزان، تخربّ تماماً، فلا جيفارا ولا تشرشل ولا أوركاجينا، قادرون على إصلاح ما تهدّم فيه وما تخربّ في نفوس ناسه على مرّ سنين.. لا أمل بتحسن وضعه إلّا بفناءه".

حين خرجتُ من شقتها في تلك الليلة، اتصلتُ بنبييل وحكيثُ له ما طلبته آلاء مني، أسف وواعد أن يتابع طبيبها النفسي،

نصحتني بأن أتركها وأبعث لها برسالة فيها حكمة تقول:
(سأمضي، وكل هذا سيمضي أيضاً).

- ما كنت تؤمن في قرارة نفسك بتلك الجملة المستهلكة
المطاطة، فكم من الزمن سينقضي حتى يحلّ ذلك الحين، وما
هو الثمن الذي ينبغي عليك دفعه، من أجل مواصلة حياة مملة
متعبة، هل حياتك "العظيمة" تستحق كل هذا العناء؟ اقترحها
بأن تنهي حياتكما، أفضل عمل كان بمقدورك القيام به، بدلاً
من تركها ضائعة.. أنت من تتحمل مسؤولية أي أمر قد يحدث
لها.. لم تكفِ بقتلي وقتل أمك وأبيك وصديقك عامر، بل قتلت
آلاء حينما تخليت عنها وجعلتها تعاني لوحدها، فاذا لم تؤلمك
معاناة الآخر فأنت لست إنساناً.

* * *

لا يمكنني الحكم على شخصية آلاء، وليس من حقي فعل ما يتعارض مع مهنتي ك مترجم، لكن لي وجهة نظر شخصية أحاول الاحتفاظ بها لنفسى.. من الواضح أن أغلب بنات بلداننا العربية، جرّاء التربية والبيئة، يتظاهرن بغير شخصياتهن، يكنّ بأقنعة وأغلفة وازدواجية مربكة.. لم تغرب عن بالي المقارنة بين ما قرأته عنها وما شاهدته من تخطيطات لوحيد، وبين شكل المرأة التي رأيتها، أيقنت أنه رسمها من الداخل، بأحاسيسها وانفعالاتها وصراخها وآلامها، حتى بانتي لي رحمة رغم نزعة الشر التي استحوذت عليها.. حينما زرناها، وقعت عيني على كتب في مكتبتها البسيطة من بينها، (كفاحي) لهتلر، (أنا الضحية والجلاد أنا) لجوزيف سعادة، (معذبو الأرض) لفانون، (مذكرات بريمر، عام قضيته في العراق)، (مدن الملح) لعبد الرحمن منيف، مؤلفات نوال السعداوي وغيرها.. إن كانت لا تحتفظ بتلك الكتب للزينة فقط، فيبدو أن

قراءاتها متنوعة، وأنها تحفظ أقوالاً عديدة، مثل معظم مثقفينا الذين يتمترسون وراء المقولات ويميلون إلى عبادة النصوص.

يوم متقلب الأجواء كعادة الخريف الإنجليزي، أغلقت نافذة الصالة بسبب هبوب رياح عاتية مع أمطار غزيرة.. سأحاول الانتهاء من ترجمة ورقة كتبها وحيد عن السيدة مونيكا، ثم أوي إلى الفراش مبكراً قدر الإمكان بعد أن أتصل بسلمى التي تكون رجعت من جامعتها آنذاك.. غداً، في عطلة نهاية الأسبوع، سأقابل صديقاً لي في الصباح عند الغاليري الوطني لحضور معرض عن لوحات الفنان مونييه.

قبل الشروع بعمل الترجمة الخاص بمونيكا، رنّ جرس الهاتف، تلقيتُ مكالمة طارئة من المحقق فاجأتني إلى حدّ كبير:

"أرجو أن أراك يوم غد في الساعة الخامسة مساءً عند محطة كامدن تاون للقاء مونيكا، عليك الاستعداد لسماع مفاجأة بشأن القضية، ثمة تطورات جديدة حدثت بخصوص مستر نومان ومستر توما، نرجو منك أن تتجز ما تبقى لديك من الأوراق هذا الأسبوع".

ماذا يمكن أن يحدث في تلك القضية من جديد، وما هي تلك المفاجأة؟ سأعرف التفاصيل لاحقاً بالتأكيد.. من حسن حظي أن المعرض، وموعد لقائي مع صديقي يوم غد، سيكون صباحاً، لكي يتسنى لي الذهاب إلى موعد المساء.. شرعتُ بقراءة ورقة وحيد عن مونيكا.

* * *

الورقة التاسعة

عن مونيكا

أخبرت نبيل بما يجري لي مع مونيكا فقال مبتسماً: "مونيكا، مونيكا، ملكة الطبيعة والإنسانية.. ليس بغريب عليها أن تساعد رواندا، بل سكان العام والبشرية كلها لو تستنى لها ذلك.. تعرفتُ على تلك السيدة الطيبة أمام البرلمان، في مظاهرة احتجاج على حرب العراق، وما زلت أحمل وداً لها، علمتُ يوماً، أنها تبنت فيلاً في الهند، ترسل إليه كل شهر مبلغاً معيناً من المال، وانها ربطت نفسها يوماً بجذع شجرة حتى لا يقطعونها.. ما من أحد لديه ذلك التعاطف مع البشر والكائنات جميعها مثل تلك السيدة، أملها بالإنسانية لا ينضب، ينقصها جناحان حتى تصبح ملاكاً".

- انشغالات تلك السيدة ليس لها نهاية.. تتعجب أنت، من أين تأتي بتلك الطاقة على العمل والتفائل والأمل؟ لا تعرف بأن مساعدة الغير تولّد شعوراً بالرضا والسعادة للنفس، انه أمر لم تفكر به أو تجربه في حياتك من قبل.

وضع مظلوم أصابعه فوق فمه دلالة السكوت لأنني رجوته ألا يقاطعني أثناء حديثي عنها، جلس قبالي متربعاً على السرير، مصغياً إلى ما أحكيه عن علاقتي بتلك السيدة.

رطبّت مونيكاً شففتها بلسانها قبل أن تنفوه: "هيا يا وهيد استعداد، سنذهب بعد قليل"

كنت أحاول تنظيف ما تنثر من فتات على الأرض والبساط الفارسي، أثناء ما كانت تتناول خبزاً محمّصاً وهي تمشي جيئة وذهاباً بين المطبخ والصالة، غير أنها استعجلتني قائلة أن لا وقت لدينا الآن للتنظيف.. تركتُ المكنسة جانباً وحملتُ لافتة خططتها يوم أمس.

خرجنا نحو محطة كامدن في طريقنا إلى وسط لندن، من أجل المشاركة في التظاهرة.. حال وصولنا إلى ساحة الطرف الأغرّ، وجدنا عشرات الآلاف من مناصري منظمة رعاية الحيوان قد سبقونا لإبداء التضامن والتعاطف مع خرفان مستوردة من بلدان أخرى، للمطالبة بتحسين رفاهيتها والاحتجاج على طريقة حشر خمسين منها في كل شاحنة بشكل غير إنساني.. وقفتُ متطلعاً بعيني نحو أطراف الساحة الأخرى، رأيت على مقربة ركن منزوٍ منها، بضع سحنات من العراقيين، يمكن عدّهم على أصابع اليد، يحملون لافتة كبيرة تطالب بمحاكمة دولية لصدام والعدول عن مشروع شن حرب على العراق.

- لم تكثرث للجميع، ولا لما يجري حولك، بقيت صاماً
أذنيك وصامتاً إلى جانب تلك المرأة، متعجباً كيف وضعها
القدر في طريقك.

مونيكا، مدرسة اللغة الإنجليزية والكومبيوتر في الدورة
التدريبية.. تعارف الطلبة العراقيين على تسميتها بـ (أم غايب)،
وجراء فرط نحافتها شبّهوها بـ (زيتونة) صديقة البحار (باباي)
في الرسوم الكارتونية المعروفة.. يتغامز بعض المشاكسين
عليها متندرين بالقول أنها حارة ومثيرة، كأنها طلعت تواء من
مجلة خلاعية، واقترحوا أن تحذف الحرفين الأولين من اسمها
لأنها ستكون أفضل بدونهما، ورغم سخريتهم منها، لكنهم كانوا
يحبون صفات تميّز شخصيتها ويمتدحون طيبتها.

- عندما يعود الطلاب إلى مقاعد الدراسة بعمر كبير،
يتصرفون بحماقة مثل الأطفال، يحاولون ترطيب أجواء
الدراسة بالتندر درءاً للملل.. ترى نفسك غريباً بينهم، لا تعلّق
ولا تمزح ولا تردعهم، احتراماً لمشاعر وحسن مدرستهم
الإنساني وجمالها الداخلي المذهل.

كانت تفرح عندما يمرحون معها، ظناً منها انهم طريفون،
يمزحون على نحوٍ يتناسب مع بيئة أتوا منها، تتبادل معهم
الضحكات وتسعى لمساعدتهم بتهذيب ولطافة.

لم يخف عن الطالبة قصتها مع غسان العراقي التي حدثت
في منتصف الثمانينات، وعلاقتها التي كادت تتحول إلى
زواج، لكن صديقها قرر أن يذهب بشكل غير شرعي إلى
العراق بعد سماعه بوفاة والدته، ولسوء الحظ، تمّ اعتقاله
وتصفيته.. ظلت مونيكا وفية لذكراه ومبادئه وقررت أن تساعد
اللاجئين من كل العالم، وبالخصوص العراقيين، تدعم قضيتهم

وقضية بلدهم لدى البرلمان الإنجليزي، وتساهم في نشاطات النقابات العمالية والحركات اليسارية والمنظمات الإنسانية في كل بقاع الأرض.

أمعن النظر إليها، قد تكون في منتصف عقدها الستيني، لا تحجب تغضنات وجهها بشاشة صادقة وطيبة، يعلو رأسها شعر خفيف ذهني بتصفيفة عشوائية، تبرز شعرات صغيرة نافرة من ذقنها وفوق شفتها العليا.. أصغيتُ إليها باهتمام، أثناء ما كانت تساعدني في ملء استثمارة سيرتي الذاتية، كواجب دراسي مطلوب عند نهاية الدورة، عدلتُ نظارتها الطبية بحركة لا إرادية واستفسرتُ مني عن التفاصيل، وحين وصلنا إلى فقرة السكن والعمل، أجبتها باني سأخرج قريباً من سكن لي مع أحد الأصدقاء، ولا عمل لدي حالياً.

أطرقتُ قليلاً وباغتتني بعرض بدا لي غريباً حينها، أخبرتني بلغة إنجليزية وبقليل من العربية بلهجة عراقية ركيكة، وخرجت كلماتها ضاغطة على حرف السين: "وهيد، عندي في الطابق الأسفل من بيتي غرفة رطبة لا أستخدمها بسبب الربو، من الممكن أن أؤجرها لك بسعر زهيد حتى تجد عملاً مناسباً لمواهبك وقدراتك".. حدّقتُ في عينيها مذهولاً، بانّت صادقة وجادة، أعطتني عنوانها وكيفية الوصول إلى دارها ومتى ينبغي عليّ المجيء.. شجعني نبيل على السكن عندها بعدما اتصلت به.. حملت حقيبتي من بيت محمود إلى غرفة القبو، وامتزجت مع عفونتها ورطوبتها.

- تسنى لك أن تعرف مونيكا عن كثب، أنت المصاب بالريبة الدائمة، تتعجب من طريقة تعاملها مع أغلب الأشياء بكثير من السعادة والرضا، ورغم أنك لم تشكّ لها من فراغ

وضجر، غير أنها جعلت أمر البحث عن عمل لك من أولى مهامها، تضايقت من ذلك بادئ الأمر بسبب كسلك، غير أنك لم ترفض عروضها ولم تعبّر لها عن مشاعرك.

ذات مساء خابٍ ومضبّب، صحبتني مونيكاً إلى حانة قريبة، عرفتني على جارٍ مُسنٍّ مقعد، أبدى استعداداه لدفع مبلغ من المال لقاء رعاية كلبه، سمعته يقول: إذا أردتَ صديقاً حقيقياً فاقتنِ كلباً.. ستأخذه للنزهة مرتين باليوم لمدة ساعتين وسأعطيك خمس جنيهات.. نظرتُ مونيكاً نحوي، هزت رأسها تشجيعاً لكي أوافق.

- وافقتَ ولم تعترض، كما أنك لم تظهر أي حماس، صرتَ ترافق كلباً وتجمع فضلاته يا وحيد، ذلك هو منتهى الطموح والحلم، كم أفخر بك!.. وعدتك أن أصغي فقط، لكني لا أتمكن من السكوت لما وصلتُ إليه من حال، كيف لم تقرف من عمل لا تجد فيه متعة ولا جدوى؟

صرتُ أرى كلباً شائخاً، يسير بصعوبة ويتعب بسرعة، تنبئ عيناها المتعبتان عن انطفاء واضحة وبنهاية قريبة، يقودني فأتبعه إلى متنزه (برمروز هل)، يتنزه ويفرّغ أمعاءه، أنظف مكان فضلاته من ورائه وأحفظها في كيس صغير، ثم أرميه في سلة قمامة مخصصة لذلك، ولكن، ما أن مضى شهران، حتى توفي صاحبه وتوفي الكلب بعده بأسبوع، حزنتُ مونيكاً على كليهما.

عفن قديم أكل الجدران في غرفة القبو، اختلط برائحة شببيهة بالبول البشري، ذكّرتني برائحة خزانة الملابس في بيتنا التي اختبأت فيها طويلاً والتي كنت أتبول فيها أحياناً، إذا لم أتمكن من السيطرة على حركة مثانتني.. مضى وقت طويل وأنا لا

أعرف شيئاً عما جرى وما يجري في العراق.. صرّث أقضي معظم وقتي في القبو، أمكث في الغرفة ولا أخرج، حتى تناديني مونيكا بغرض المساعدة في أمر ما، كنت أطبع لها أوراقاً على الكومبيوتر، أرمي أكياس القمامة، أنظف الغبار من على تمثال لـكلـكـامـش، حاضناً أسداً تحت ذراعه اليمنى وثعباناً تحت اليسرى، ومخلفات ذباب ما بين ثنايا زهور مجففة في المزهريّة وفوق على ستائر ملونة بألوان فاقعة، قماشها مزركش بأفيال وآلهة هندوسية.. كانت مونيكا تدعوني أحياناً لتناول العشاء معها تفادياً للوحدة ورغبة منها في الصحبة والمشاركة، أذهب رغم كراهيتي لرائحة نبات البروكلي المسلوق الذي تأكله كل يوم.

لم تأل مونيكا جهداً في البحث عن عمل آخر لي، جاءتني ذات يوم سائلة وعيناها تشعّ بهجة خلف نظارتها الطبية، "هل تعرف دار حضانة الأطفال عند ناصية الشارع؟".. تواصلت بالحديث قبل أن أجيبها: "اليوم، وأنا أمرّ من أمام بنائيتها، قرأت ورقة مكتوب عليها انهم بحاجة إلى عامل نظافة صباحي، دخلت إلى غرفة المديرية وحكيث لها عنك، احزر ماذا كان جوابها؟ لقد وافقت على توظيفك مؤقتاً لأنني ضمنتك ولأنها تعرفني جيداً، ستذهب بعد غد إلى هناك لتستلم عملك، سيكون وقت العمل عند السادسة صباحاً، أمل ألا يغدو الاستيقاظ المبكر أمراً صعباً عليك".. وافقتها على مساعيها عرفاناً بجميلها، رافقتها في ذلك المساء، إلى معرض عن حضارة وادي الرافدين في المتحف البريطاني، ومن بعده، إلى كورس تتعلم فيه اللغة المسمارية.

صارت مونيكا تصحبني معها أينما تروح.. نذهب سوياً لشراء الملابس من متاجر مخصصة للبضاعة المستعملة لأجل

إنقاذ البيئة، بسبب تراكم منتوجات تنتهي إلى القمامة، تنبهني أثناء ذلك بالأشترى بضاعة جديدة أو أي حاجة مجرّبة على الحيوان.. أخذتني أيضاً إلى أماكن غريبة مثل معرض لنماذج من فضلات بشرية وحيوانية في علب زجاجية، ومتحف الأعضاء الجنسية للمخلوقات من مختلف المصادر والأحجام.. أطرثُ بإعجاب على ما احتواه المعرضان من فن حديث ومميّز، وسألتني فيما لو كنت قضيت وقتاً ممتعاً.

- لم تلقَ منك جواباً كالعادة، لا تعترض على أي من آرائها، توافق على كل شيء بهزة من رأسك، ربما لسبب بسيط وهو أنه ليس لديك رأي آخر.. لم تشكرها يوماً أيها الجاحد على ما تفعله لك، بل كنت تزعجها بتصرفاتك أحياناً.

لم أعود على أسلوب حياتها بسهولة، كنت لا أفهم أسباب انزعاجها مني في بعض الأحيان، أراها تقطّب ما بين حاجبيها بانزعاج، حينما لا أكمل ما في طبقي من طعام ولا أفرّغ ما يتبقى منه في كيس خاص، لأن رمي فضلات الطعام في القمامة كان أكثر ما يزعجها، أرى نظرات عاتبة لها حين أرمي منتجات البلاستيك في غير الحاويات المخصصة لها، أسمعها تقول بتأنيب: انتبه يا وهيد إلى مخلفات القمامة جيداً، ضع قناني البلاستيك في كيسها الخاص، حتى نأخذها معنا إلى مكان الحاويات المخصصة لإعادة التصنيع والتدوير، وما يتبقى من طعام، سنعطيه إلى ذلك المتشرد النائم عند دكة الدكان المغلق في شارع كامدن الرئيسي.. تعود ألا ترمي شيئاً في القمامة إلا عند الضرورة.

كنا نسكن بالقرب من مركز بلدية كامدن الحيوية ذات الطبيعة الصاخبة والوجه المتعدد للثقافات، منطقة شهيرة بسوق

معروف ذي طابع بوهيمي، تكثر فيه أكشاك بضاعة متنوعة تستهوي الزوّار والسوّاح، وأخرى لأطعمة من مختلف مطابخ العالم.. تنتشر على جانبي شارعها الرئيسي محلات متميزة بواجهات مذهشة وغير تقليدية، يتسكع في محيطه كحوليون وبائعو مخدرات وشباب متمردون، يرتدون ملابس جلدية ويتزينون بأقراط وحلقات معدنية، متحلّقين على سياج قناله بتسريحات شعر متميّزة وأوشام كثيرة، وعلى مقربة منهم، يتجمع شباب وشابات عند حانات، امتازت بتاريخ معروف وشهرة واسعة، تحمل أسماء مميّزة، تعلو جدرانها أصص أزهار ونباتات مبهرة.

بدأت أحترم عادات مونیکا حين أكون معها، فلا أدخل البيت والمظلة مفتوحة بيدي، ولا أسير من تحت قوس، وأعود أدراجي من حيث أتيت لو مرت قطعة سوداء من أمامي.. كنا في طريقنا إلى السوق يوماً، حين رأينا طائر عقق، واقفاً بمفرده عند سياج حديقة، توقفت مونیکا عن السير، وطلبت مني الانتظار، لم أسألها لماذا توقفنا ومتى سنواصل سيرنا، لكن بعد مرور دقائق، وبعد أن مرّ طائر عقق آخر، انبسطت أساريرها ودعنتني إلى مواصلة مشينا ثانية، أخبرتني بأن رؤية طائر ثانٍ علامة جيدة، ويمكننا أيضاً لمس شيء أخضر إذا رأينا الطير بمفرده حتى لا تلحقنا لعنته.

- هل ستخبرها يوماً بأنك تخاف من الغراب؟ من المؤكد أنك لم تشاركها في أي رأي.. دع مونیکا تؤمن بما تشاء، بما أنها لا تؤثر على أحد ولا تؤذي الناس، ويا ليتك تتعلم معها فلسفة التأمل واليوغا، حتى تتمكن من الاستيقاظ مبكراً.. كيف ستستيقظ أيها الكسول عند الفجر غداً وتبدأ العمل في دار الحضانة؟

في اليوم التالي، وضعت مونيكا منبهاً عند باب غرفتي، رنّ عند الساعة الخامسة والنصف صباحاً، ارتديت ملابسني بنثاقل وذهبت إلى مكان العمل.. فتح حارس الدار لي الباب، صوّب نحوي نظرة عدم ارتياح، وأشار بيده إلى المطبخ فتبعته.. على الطاولة، وجدت ورقة كتبتها مديرة الدار، تتضمن تعليمات حول تنظيف الغرف وصالة الاستقبال والمطبخ والمرافق، إضافة إلى جمع القمامة ورميها خارجاً في أماكن مخصصة لها.. نفّذت كل ما هو مطلوب مني بالكامل، لكن الحارس ظلّ يوجّه نحوي نظرات غير ودية، وأنا أشتغل بصمت.. صرّثُ أدخل وأخرج دون أن يحسّ بي أو يلمحني، فلا أكرّث به ولا أسعى إلى تحسين العلاقة معه.. كانت مونيكا سعيدة بنظام حياتي الجديد ماعدا عودتي للنوم بعد العمل حتى المساء، لأنني لا أجدها في البيت بعد أن أستيقظ، وأرى أوراقاً كتبتها ولصقتها على الثلاجة، فيها توصيات حول إطعام السمكة أو رمي القمامة، فأقوم بذلك، مع تنظيف البيت وترتيب الفوضى التي تتركها خلفها.

ذات مساء، وجدت ورقة كتبتُ عليها: اليوم عيد ميلادي، سنشرب نخباً معاً، لا تنم أو تقضِ مساءك منهمكاً في القراءة بغرفتك.

- هل كان من المفروض أن تفعل شيئاً من أجل تلك المناسبة؟ مثلاً أن تخرج لتشتري لها هدية، لكن ماذا ستشتري وأنت لم تبتع أي هدية لأي إنسان من قبل، ولم تحتفل بعيد ميلادك مطلقاً، احترتُ بأمرك يا وحيد، ماذا ستفعل؟

لا أدري ما كان ينبغي عليّ فعله، لم يشجعني الجو البارد

على الخروج، كما أن مونيكا لا تحبّ هدية الزهور، حتى لو كنت أفكر بشرائها لأول مرة بحياتي.. جلستُ حائراً حتى بدأ الجوع يضغط على معدتي، أوصدت باب الثلاجة بخيبة لأنني لم أجد فيها شيئاً يؤكل، فتحت خزانة المطبخ فوجدت كيساً من الرز، تذكرتُ والدتي عندما كانت تطبخه لي بعصير الطماطم فيغدو أحمر اللون، تكوّر لقمة منه بين يديها ثم تنفخ عليها كي تبرد وتدسّها في فمي.

عندما رجعتُ مونيكا إلى الدار، وجدت طبقاً مما تركته لها من رز أحمر ساخن عجيني القوام، مع بعض السلطة على المائدة، راق لها ما فعلتُ ولم تسعها الدنيا من الفرح، ظناً منها انه من أجلها لأنها كانت نباتية، امتدحتني كأني اكتشفت كوكباً جديداً في الفضاء وبدأت تأكل بشهية، فتحت قنينة نبيذ وراحت تشرب نخب كل العراقيين، وقفتُ برهة ثم اقتربتُ مني بعد ذلك، قبلتني من رأسي وصارت تبكي، ذكرتني دموعها بأمي، وسمعتها تقول: أنتم العراقيون طيبون جداً يا وهيد، كلما أتذكركم وأتذكر غسان، يخطر في بالي نقيضه، صديقي السابق سام الذي تعرفت عليه وأنا في الثانوية، شربتُ أول نخب ودخنتُ أول سيجارة حشيش معه.

بدون سابق إنذار، كشفت عن ندوب وآثار جروح في كتفها، حكّت لي كيف كان يعنفها ويعذبها ويتنمر عليها، حتى أفقدها ثقتها بذاتها وبقدرتها على الرد والدفاع عن نفسها، فاضت بقولها: كان سام يكره كل من هو غريب وكل ما هو مختلف، يكره الأجانب والسود والمتخلفين عقلياً والبدنيين، وكل المختلفين عنه عرقياً ودينياً، يكنّ حقداً دفيناً للمرأة ويعتبرها مخلوقاً أدنى منه كرجل، كما لا يطيق المثليين من الرجال والنساء.. بقيت معه ست سنوات صعبة، ضربني بعنف ذات

يوم وكسر يدي، فركضت حينها كالمجنونة إلى دائرة البوليس واشتكيته، وهكذا تخلصت منه ومن خضوعي له إلى الأبد.. أفضل من قابلت في حياتي، غسان وأنت، وكذلك دكتور توما، الذي يثير تعلقه بوطنه إعجابي دائماً، أتذكر كيف كان يضع على سياج بيته أصص نباتات ومعها ورقة، يشرح فيها ما يجري في العراق ليتعرف المارّون على الوضع في بلده ويشترونها، ثم يتبرع بالمال بعد ذلك إلى المحتاجين أيام الحصار.. ما من بشر مثلكم، انتم ملائكة هبطت على الأرض من السماء.

- أين أنت منها يا وحيد؟ أنت على مسافة ثقب دودي من أخلاقها وعلوّها، لم تتعاطف معها ومع حكايتها المؤلمة، لم تشكرها على ثنائها عليك، وأقصى ما فعلته هو الذهاب إلى غرفتك للنوم حتى تصحو مبكراً.

كنت متعباً ليلتها وأريد الاستيقاظ مبكراً لكي أذهب إلى العمل.. مرّ شهران على بدء عملي، وفي صبيحة شتائية باردة، سمعتُ طرّقاً على باب دار الحضانة ورحتُ لأفتحه، فوجدتُ عنده سيدة تصحبُ طفلة صغيرة، دخلتُ واعتذرتُ من الحارس لأنها جلبت ابنتها في هذا الوقت المبكر، بسبب اضطرارها للخروج إلى العمل جرّاء حالة طارئة، وخرجتُ بسرعة مثلما دخلتُ.. واصلتُ ما أقوم به، حتى سمعتُ الحارس يؤكد على ضرورة إحكام غلق الباب خلفي عند انتهائي من العمل، لأنه سيكون مشغولاً مع الطفلة.. لكن حالما خرجتُ، شعرتُ بمغص شديد، قفلت راجعاً إلى دار الحضانة لكي أستخدم المرافق الصحية، دخلتُ بهدوء دون إحداث أي جلبة، فلم ينتبه الحارس اليّ ولم تلتق عيني بعينيّه، وحينما قضيت حاجتي، مررت بقرب غرف الأطفال، وعند أحد الأبواب، سمعت صراخ

الطفلة الصغيرة، ولمحت الحارس قربها من غير سروال.. كان المشهد كافياً ليعلنني أتعثر وأرتطم بطولـة أمامي، انتبه الحارس إلى وجودي، اتجه صوبي والشرر يتقاذف من عينيه، هربت بسرعة نحو الشارع خشية عدوانيته.

- كان من الضروري أن تبـلـغ عن الحارس من باب المسؤولية والإنسانية، ولكنك لم تخبر أحداً بالسبب الأساسي الذي دعاك إلى عدم الذهاب إلى دار الحضانة بعد ذلك اليوم، أنت مجرم حقير، ولا أعجب من ذلك الأمر، فهو ليس جديداً عليك، من يقتل أخاه ويترك أمه لتموت وصديقه ليعتقل وابنة بلده لتضيع، فلا غرابة أن يترك مصير طفلة بريئة بين يدي وحش سافل.

بقيت لبضعة أيام أشتكي من ألم في رأسي وتعب، وكلما أسترجع مشهد الحارس والطفلة، أشعر بغثيان ورغبة بالتقيؤ.. فشلت كل محاولات مونيكا في إقناعي، ودعواتها لي بالعدول عن قراري بترك العمل، وبعد أن يُسـتـث، صارت تبحث لي عن عمل آخر، تسأل أصدقاءها وكل من تعرفه كي يساعدوها، حتى وجدت لي عملاً جديداً مع بيتر.

رغم عضلاته المفتولة، كما لو كان بطلاً من أبطال الكمال الجسماني، لم يكن بيتر بتلك القسوة أو الخشونة، بل يمكن القول، إنه كان وسيماً وأقرب إلى النعومة والرقـة والطيبة، يقضي معظم وقته بالاهتمام بمظهره، يمارس الرياضة يومياً ويعتني ببشرته، يزيل شعر صدره ويدهن جسمه باللون النحاسي.. كان عملي معه يستلزم الحضور إلى النادي الليلي، حيث كان يقدم عروضه كراقص تعري، أساعده في تحضير وحمل أدواته وتضييـط وتقويم هيئته.. كنت أرى نساءً كثيرات

يحضرن عروض الـ (فول مونتي) التي يقدمها، ألمح بينهما أحياناً نساء عربيات، يطوين الحجاب ويدخلن.. من حين لآخر، كان يأخذني معه إلى بيوت سيدات محفلات بمناسبات خاصة، كأعياد ميلاد أو ليلة ما قبل الزواج، يقدم عروضه الغربية التي لا تتطلب مني سوى تهيئة ما يرتديه والوقوف بجانبه، ومناولته ما يحتاج من أدوات، أثناء تأدية عمله غير المؤلف.

ذهبتُ في أحد الأيام معه إلى حفلة عيد ميلاد سيدة، بانّت على دارها مظاهر نعمة و ثراء، تجلّت في ضخامة أثاث ومائدة عاجيّة فاخرة، عامرة بقناني ويسكي وشمبانيا ومأكولات متنوعة، وبسبب خفوت الأضواء، لم أتمكن من معرفة عدد النساء الحاضرات، لكنني كنت أظنّ أنهنّ كثيرات بسبب لغطهنّ العالي.. صحبتنا الخادمة إلى غرفة مجاورة للصالة من أجل تجهيز العرض.. دأب بيتر على الظهور بأجمل مظهر، طلب مني آنذاك أن أدهنّ ظهره وأناوله مساحيق الزينة، نبّهني إلى ضرورة الحفاظ على الأشياء التي يستخدمها في عرضه، تحت متناول يده بالتناوب، أو مأت برأسي دلالة الفهم، سرّ خلفه نحو الصالة حيث السيدات اللاتي استقبلنه بتصفيق وهتاف وصفير فيما كان ينحني لهنّ.. تركّز ضوء أحمر متحرك على بيتر، ظهر بوضوح وشم ملون حول رقبته وصدره على شكل ثعبان، صار يتمايل ويستعرض عضلاته وسط استحسان وصرخات المشجعات، بدأ بفتح أزرار سرواله الخارجي تمهيداً لخُلعهِ ورميه إلى الخلف وسط صيحات الحاضرات.. صار يرقص مع الموسيقى ويأتي بإيحاءات تدلّ على حالة حميمية، بعدها قام بحركات تنبئ عن قرب خلع سرواله الداخلي، جنّ جنون الحاضرات وتفاقم صريخهنّ بشكل أقوى، اقتربتُ واحدة منه وحاولت لمس جسده.. ما كنت أعرف ما

لتلك التسلية من تأثير على النساء، حتى حضرت معه عدة حفلات، كنت غالباً ما أشيح بنظري عنه حتى لا أرى شيئاً، محاولاً خلق جو آخر لنفسى غير الذي حولي.

- بيتر حرّ فيما يعمل ويؤمن، إنه لا يؤذي أحداً.. أما أنت، فقد استسهلت الأمر، ولم تفكر بالاعتماد على ذاتك بالبحث عن عمل يرضيك، كم أنت مثير للشفقة، حين تقوم بعمل لا تكون راغباً ومقتنعاً به!.. ماذا دهاك يا وحيد؟

جاء بيتر يوماً ليقول بأنه سينتقل للعيش في أمريكا مع صاحبه الذي يفكر بالارتباط به، شعرت براحة لأنني سوف لن أكون مضطراً للعمل معه بعد اليوم، لم أقل له كلمات أسف ولم يسمع مني كلمة وداع.

اجتهدت مونيكاً بعد ذلك في إيجاد أعمال أخرى لي، وأغلبها كان مؤقتاً بسبب الحاجة الموسمية لعامل، أو لغياب آخرين نتيجة المرض.. غسلتُ صحنواً في مطعم، وزّعت بيتزا في المنطقة التي أسكن فيها، وقمت بأشغال أخرى مؤقتة لا أتذكرها.. أبرز ما أتذكره هو تفرّغي لمساعدة مونيكاً أثناء الصيف، في إقامة معرض لدعم نشاطات الشباب العراقي والعوائل المحاصرة في العراق.. طبعْتُ الرسائل للمشاركين وترجمتها للعربية، اشتريتُ كل ما يلزم من مواد للمعرض بتوجيه منها، بحثتُ معها عن قاعات بإيجار رخيص، وكذلك سعيْتُ من أجل الحصول على الدعم المالي اللازم.. أطلقتُ مونيكاً اسم (غسان) على المعرض، وشارك فيه عدد من أفراد الجالية العراقية بمنتوجاتهم وتبرعاتهم.. بدتُ فرحة لأنها ستقدّم يد العون، من ريع المعرض والمبالغ النقدية، إلى أطفال العراق.

- كنت غير متحمس للمشروع مثلها، تؤدي واجبك فحسب دون شغف.. ما تفعله تلك المرأة الغريبة لأبناء بلدك، أكثر منك.

صارت مونيكا مؤخراً تتقرب البريد بلهفة، تطلب مني كل يوم أن أ جلب لها ما في الصندوق عند الباب من رسائل، كانت تنتظر بشوق رسالة محددة، وجاء ذلك اليوم الذي وصلت فيه.. أخذتها بين يديها بلهفة وقرأتها، انبسطت أساريرها وراحت تضحك بسرور، أخبرتني بأنه تم قبول تطوعها كمدرسة لغة إنجليزية في رواندا لمدة عام قابل للتجديد، اعتذرت مني، لأنها ستضطر إلى تأجير بيتها أثناء غيابها، حيث سيكون مصدر دخلها الوحيد في فترة تطوعها في أفريقيا وتوقفها عن العمل، علمت بأنها ستحتفظ بحاجياتها الشخصية في غرفة القبو وتغلقها، وعدتني بأنها ستجد لي سكناً آخر.

حزمت حقبتي وغادرتها فجر اليوم التالي، وحين صرت في الشارع، اتصلت بنيل، الذي عاد للتو من رحلة طويلة مع دورا زوجته، نصحتني بأن أعود مؤقتاً ولفترة قصيرة إلى بيت محمود، الذي طردني سابقاً، بعد وقف إعانة السكن عني، أخبرني بأنه سيتصل به ويبلغه بالأمر.

- كان عليك أن تشرح لمونيكا موقفك، وأن تشكرها امتناناً لما فعلته لك ثم تعطيها عنوان محمود، لتطمئن عليها اذا راسلتك، لكنك فضلت الذهاب بصمت حتى دون أن تودعها أو تكتب لها كلمة شكر.. كم أنت جاحد وناكر للجميل!.. أعجب كيف أنك ستعود إلى محمود، بعد معاناة خبرتها جرّاء السكن معه سابقاً.

صبيحة اليوم الأول من عطلة نهاية الأسبوع، قررت أن أنسى كل ما يتعلق بالعمل ومتاعبه، تناولت قهوتي وفطوري، ثم أخذت القطار نحو محطة جارينغ كروس.. من هناك، رحت ماشياً صوب ساحة ترافالغر سكوير للقاء صديقي في الغاليري الوطني.. بعد أن حضرنا معرض لوحات الرسام الشهير كلود مونيه، رائد الانطباعية، جلسنا في كافيه قريب وتناولنا الشاي مع شيء من المعجنات.. انتظرتُ حتى تحين الساعة الرابعة، وأخذت باص رقم 24 إلى موعدي الثاني، في كامدن، من أجل لقاء مونيكا، كما جرى الاتفاق عليه مع المحقق يوم أمس.

حال وصولي إلى محطة مدينة كامدن، وجدتُ الرجل بانتظاري.. أخبرني ببرود عن الانقلاب المفاجئ في سير القضية:

"في الحقيقة، كان فحص الـ(دي أن أي) للجثة عملاً شاقاً جداً، أخذ من المختصين زمناً بسبب شدة تعفنها، وإثر ذلك

اكتشفوا بانها لا تعود إلى مستر نومان، بل إلى الدكتور نبيل بهنام توما.. أليس ذلك غريباً؟"

أصابني الذهول وتواردت أسئلة كثيرة على ذهني.. إن كانت الجثة للدكتور نبيل، فذلك يعني أنّ وحيد مازال على قيد الحياة، لكن أين هو؟ ولو كان موجوداً في الشقة حينها، فكيف يترك راعيه وصديقه يموت هكذا ويتعفن؟ هل يعلم وحيد شيئاً عن وصية نبيل عند المحامي والتي ترك فيها الشقة له بعد مماته؟.

قاطع المحقق أفكاره مواصلاً القول:

"علمنا أيضاً، أن ثمة كتابات وكتباً في غرفة وحيد التي كان يسكن فيها عند مونيكا، سنمشي إلى هولي رود وستراها لغرض الترجمة.. طالما أن الوفاة حدثت بشكل طبيعي على ما يبدو، بسبب مشاكل في القلب وأعراض مرضية أخرى، لذا لا يوجد في الموضوع جريمة، غير أن اختفاء مستر نومان بهذه الصورة، أمر محير ولغز ينبغي علينا معرفة خيوطه.. لم يسعفنا الحظ بالاتصال بالسيدة توما، التي لا نعرف لها مكاناً، جرّاء تنقلها في رحلة تبشيرية حول العالم، لكن علينا الآن معرفة ما الذي كتبه السيد نومان في ورقته عن الشخص الذي كان يسكن عنده سابقاً أيضاً، رغم تأكيدنا من أنه لم يعد يسكن في ذلك العنوان حالياً، ربما سنجري لقاءً معه لاحقاً، إن تطلب الأمر ذلك".

عند وصولنا إلى هولي رود، طرّقنا باب مونيكا وانتظرناها لتفتح لنا.. نبح كلب من داخل البيت وتناهدت إلى سمعينا أغنية ستينية بصوت فرانك سيناترا.. خرجت لنا امرأة، أيقنت أنها مونيكا من خلال وصف وحيد لها في ورقته، اعتذرت لنا عن

نباح كلبها وأبلغتنا أنها اقتنته مؤخراً من مأوى للكلاب، وعن حاجته إلى مزيد من التدريب حتى يغدو مطيعاً ومنضبطاً.. نهرته ليسكت، امتدحته حينما فعل:

- ولد جيد، ولد جيد جداً.. تفضلوا في الصالة، اسمحوا لي ببعض الوقت لكي أعطيه دواء التوتر العصبي والكآبة، لأنه مرّ بظروف صعبة بعد ترك أصحابه السابقين وإهمالهم له.

دخلنا الصالة فوجدناها بحالة فوضوية ملحوظة، تسربت إلى أنفي مباشرة رائحة نبات بروكلي مسلوقة.. تراكمت قرب الأريكة مجلات متعددة وصحف، من بينها الغارديان ونشرات يونيسن العمالية، وقع نظري على طاولة فوقها مزهرية فيها زهور مجففة، يلتصق عليها غبار ومخلفات ذباب، وبقربها، تمثال من الجبس لگلگامش، حاملاً أسداً بذراعه اليمنى، وفي ذراعه اليسرى ثعباناً، علت الشبايك ستائر ملوّنة بألوان عديدة فاقعة، مطبوع عليها أفيال وآلهة هندوسية بقماش مزركش.. كل شيء في بيتها كما وصفه وحيد، ما عدا تماثيل خشبية أفريقية صُفّت على الحائط وشعر كلب وبعض من ألعابه، تناثرت على الأريكة القديمة والكراسي المختلفة الأحجام والأشكال.. بادرتنا مونيك بالقول:

"تقولون إن وهيد مختفٍ، لا أظن ذلك، الأحرى بكم أن تقولوا بأنه مختطف، سبق لوهيد أن كان ضد النظام الديكتاتوري في بلاده، نعم انه مختطف، أنا واثقة من ذلك.. يا له من مسكين، لطالما سمعتُ من صديقي الراحل غسان، عن جرائم النظام السابق واضطهاده للشعب العراقي".

بغرض التأكد من وجود ما قد يوصلنا إليه، نزلتُ إلى حيث كان ينام في القبو.. غرفة صغيرة رطبة، وجدتُ عند السرير،

أوراقاً عليها تخطيطات ورسومات سريرية غير واضحة وبعض الأشعار في ورقتين منفصلتين، (من أنا لأخيب ظن العدم)، من قصيدة لمحمود درويش كما تحققت لاحقاً، وهذا العالم نشيده فينهار، ثم نشيده ثانية فنهار نحن)، للشاعر الألماني ريلكة، وعلى حافة نافذة صغيرة، تطل على حديقة خالية من النباتات، وجدت بعض الكتب، منها روايتان لكتاب من أمريكا اللاتينية، وكتاب فلسفي لنييتشه مع كتب أخرى كالمجموعة الشعرية لدرويش، قلبتها ولم أجد شيئاً بين صفحاتها.

عملت لنا مونيكا شايأً قائلة بشيء من الفخر بأنه عراقي وإنها وضعت فيه حبة هال، غير انه كان خفيفاً وبارداً، قدّمته بأقداح غير موحدة الأشكال والأحجام وكان كوبي مثلوماً من طرفه، وعندما جالبت لنا صحناً فيه بعض البسكويت، وقع نظري بصورة لا إرادية على الأرض والبساط الفارسي، رأيت بعضاً من بقايا فتات خبز محمص هناك، تخيلت بأن وحيد سيأتي بمكنسته وينظفه كما كان يفعل.. انتبهت إلى صوت مونيكا:

"خرجت مبكراً في أحد الأيام لإكمال وثائق سفري، وعندما رجعت لم أجده، أخذ بعضاً من حاجياته وذهب إلى مكان مجهول، بعدها انشغلت بسفري وتأجير البيت، ولم أسمع عنه منذ ذلك الحين.. غبت فترة سنتين في رواندا، وحال عودتي من أفريقيا، سألت عنه، لم يكن أحد على علم بمكانه أو بأحواله، ولما اتصلت عدة مرات بمستر توما، لم ألق جواباً".

سألها المحقق عن تفاصيل تخصّ وحيد، بمن يتصل، ما هي عاداته، أفكاره، وتصرفاته، ردت بإجابات عاطفية كطبيعتها:

"ليس لوهيد تواصل بأحدٍ ما عدا مستر توما، لم يكن المسكين بارعاً في جعل الناس يميلون إليه، أو أن يكون قادراً على إظهار أي عاطفة نحو الآخرين رغم طيبته، كان لا يحبّذ التحدث مع أي إنسان ولا يحوّل أحاسيسه إلى كلمات، لا يحب أحداً ولا يكره أحداً، اعتاد أن يُبقي مسافة جيدة، بينه وبين الناس.. هكذا هم اللاجئون، نفوس مكسورة، تنوء بحمل عقد وأزمات نفسية مؤثرة، حياة كل لاجئ، والعراقيون منهم على وجه الخصوص، قصص جديرة بأن تكتب وتُروى للعالم أجمع".

كانت تتكلم بطريقة المدرّسة بين طلابها، انتبهت إلى كيفية نطقها لحرف السين، كما ورد في ورقة وحيد عنها، وتركيزها عليه بصورة قوية ونفاذة:

"ما زلت على يقين، بأن التضامن والتعاطف يأتیان بنتائج جيدة في إنقاذ هذا العالم، حتى لو كانت بطيئة، وعلى الجميع أن يؤمنوا بذلك ويعملوا بأقصى طاقاتهم من أجل البشرية، فالمستضعفون بحاجة إلينا".

تملّمل المحقق ونظر إلى ساعته، لكن مونيكا تنهدت وتواصلت بالحديث عن وحيد:

"بعض الأحيان، أظن أن هذا المسكين كان يسمع أصواتاً ويتحدث معها، يبدو شارداً لا يسمع محدّثه، وأحياناً أخرى يناجي نفسه، وغالباً ما تكون استجاباته بطيئة مثل ردود أفعاله الباردة دائماً.. يتجنب الاتصال البصريّ المباشر ولا تستقر عيناه في عيون المتلقين، ويجد صعوبة في إبداء الرأي.. كان وهيد شخصاً منطوياً وهادئاً لا يستمتع بمباهج الحياة، وأحسبه محبطاً تائهاً، يفقد سكينته لدى حصول أي تغيير.. يكفي أن

اللاجئين فقدوا ذويهم وأرضهم، ليكون ذلك سبباً لحالاتهم الصعبة، وما على الدول والحكومات القوية، التي سببت تلك المشاكل والفوضى، إلا أن تساعد الدول الضعيفة في تجاوز أزماتها الاقتصادية والسياسية، بعد أن تقدم اعتذارها لشعوبهم".

ابتسم المحقق خفية، لفكرة طرحتها علينا مونيكا في نهاية اللقاء، وهي المضي بسعيها في إنشاء جمعية للمفقودين، ستسميها وحيدون، (لونلي)، تدعّم من خلالها المفقودين من اللاجئين والمهجّرين قسراً من بلدانهم.. أكّدت علينا مونيكا بالتالي، أن نطمئنّها لو سمعنا أي خبر عن وحيد.

شكرها المحقق، ووعدّها بالإبلاغ عن أي أخبار جديدة تصله.. خطرت ببالي مقولة شهيرة وهي؛ "إنّ أفضل ما في الحياة هو أن لا تنتهي وحيداً"، ولكن اتضح لي أن الأفضل من ذلك هو أن تنتهي مع أناس لا يجعلونك تشعر بأنك وحيد، ابتسمتُ لطريقة تفكيري في الاستشهاد بالنصوص، يبدو اني تأثرت بآلاء.

رجعتُ إلى الشقة وأخذت حماماً ساخناً، شربت بعده قدحاً من الشاي وألغيتُ فقرة الدراسة لهذا اليوم، حيث خصصته لقراءة وترجمة الورقة الأخيرة، عن السيد محمود الطافح، الذي كان يسكن وحيد معه لفترتين من الزمن.

* * *

القارورة العاشرة

عن محمود الطافح ولفته مكي

في طريقنا من المطار إلى بيت صديق يعرفه، قال الدكتور نبيل، الذي قام بالترجمة لي: "لو تعطي الطبيعة والحياة كل شيء لبعض الناس، لظلّوا باحثين عن شيء ما يفتقدونه، هكذا هو حال محمود الذي ستسكن عنده لفترة مؤقتة.. بنظري انه ليس شخصاً شريراً أو سيئاً، أرجو ألا تحكم عليه من خلال فظاظته وتقتيره، لأنك ستكتشف يوماً ما، كمّاً من طيبة غير منظورة في داخله.. عاملت الحياة هذا المسكين بقسوة، وواجه مصاعب شتى منذ طفولته وشبابه، لكنه تعامل معها على طريقته الخاصة بالرفض، مما جعله يقايض خيباته بالسخرية والتهكم، ويقوم بأفعال تعويضية كالتخزين أو المقامرة، ظناً منه انه سيجد فيها سعادته.. حسبنا من السعادة يا وحيد نفس هادئة

وقلب نظيف وضمير صاح ونقي، ولا ينبغي أن نلهث وراءها ولا نبحث عنها، لأنها بداخلنا".

أطلّ علينا عند الباب، متهدل الجفنين وبعينين نصف مغمضتين كأنه صحا من النوم لتوه، رغم ان الساعة تجاوزت منتصف النهار.. دخلتُ وراء نبيل حاملاً معي حقيبة سفري الصغيرة، ينتهكني تعب شديد يحول بيني وبين أي مجاملة مطلوبة، لم أردّ بكلمة واكتفيت بهزّ رأسي.. أدخلنا محمود الطافح إلى الصالة، استسمحنا ليغسل وجهه لكي يفيق.. بدت صالة الدار في أقصى حالات الهرج والفوضى، تراكمت فيها أشياء مبعثرة ومتناثرة في كل زاوية؛ أشرطة فيديو، زجاجات شراب وقناني ماء فارغة، صحنون عليها بقايا من طعام بائت، مجلات وصحف مبعثرة، أكياس مصنوعة وملابس منثورة على الكراسي.

لم تشّ نظرات نبيل بالراحة، قبل أن يجلس، صار ينفض بيده ما على الكنبه من قشور مكسرات ومخلفات طعام:

"سأتي يوماً وأبحث عنك تحت هذا الركाम، متى ستهتم بترتيب وتنظيف بيتك وبرمي كل هذه القمامة خارجه؟ استغن يا رجل، من ترك ملك، سأعرضك يوماً على طبيب صديق، يعالجك من حالة الاكتناز القهري واضطراب التخزين الذي تعاني منه بالتأكيد".

ضحك محمود ضحكة عالية، مسح وجهه بمنشفة رماها بعد ذلك على الكرسي، ردّ على نبيل لافظاً حرف العين بعمق وكأنه على وشك أن يُصاب بحالة قيء:

"سيتمّ ذلك عندما أربح اليانصيب واشتري فيلاً فيها خدم

وحشم، حينها، سوف لن أسمح للفوضوي، مستر مكي، بالدخول إلى بيتي".

هزّ نبيل رأسه الكبير وكفّه المكتنز يميناً ويساراً دلالة على عدم قناعته بكلام محمود:

"أيها اللئيم، هل لفتة مكي سبب كل هذه الفوضى؟ وما الفائدة لو ربحت اليانصيب، ستخسر كل شيء في المراهنات.. دعنا من ذلك الآن، هل ما زالت الغرفة فارغة؟ يمكن لوحيد أن يستأجرها مؤقتاً حتى يجد له مكاناً آخر، أو ربما ستعطيه البلدية سكناً".

لم تكن الغرفة في الطابق الثاني أحسن حظاً من الصالة في الترتيب والنظافة، تراكت بداخلها أكداس من أكياس نايلون معبأة، حقائب وصناديق مضغوطة تحت السرير وفوق خزانة الملابس، تكاد تصل إلى السقف.. وضعتُ حقيبتني عند موطئ قدمي قرب السرير، وكان كل ما يهمني اللحظة هو سقف فوق رأسي وسرير أنام عليه بعد تلك الرحلة الطويلة، سأنام حتى يوم يُنفخ في الصور، كما يقولون، وأنسى كل شيء.

ما فتئ محمود يجلب أغراضاً ويخزنها في الغرفة الصندوق، كلما كان يذهب يوم الأحد إلى سوق الأدوات المستعملة أو حين يجد أغراضاً مرمية في الشارع.. اختفت النافذة الوحيدة كلياً بمرور الأيام جرّاء حجبها بصناديق وحقائب جديدة، ولولا ضوء المصباح لغرقت الغرفة في ظلام دامس.. رغم ذلك، أبقى فيها طوال اليوم ولا أنزل إلا حين الحاجة، لا أفعل شيئاً سوى قراءة كل ما تقع عليه يدي وممارسة هوايتي في التخطيطات على الورق ثم النوم.. أخرجتُ كل الكتب المكدّسة في صناديق من تحت السرير،

رتبتّها على رفوف فوق الحائط وأمضيتُ وقتي في أغلب المساءات، محلّقاً في عالم الأدب حتى موعد النوم.

- أنت الآن في لندن يا وحيد، لماذا لا أراك فرحاً؟ تترك المدينة الواسعة خلف النافذة وتجلس في الغرفة الضيقة تقرأ الكتب، ما أتعسك!.. ترى متى قرأ محمود كل تلك الكتب، أم تراه اكتفى بما قرأ وتوقف عن المطالعة لأنه لم يعد يؤمن بشيء كما نوّه نبيل؟

لم أسأله يوماً عما يفعله بتلك الكتب والحاجيات المخزونة، ولم أخرج من الغرفة - الصندوق إلا حين ذهابي إلى المطبخ والحمام، أو عندما يأتي نبيل طالباً مني ملء بعض الاستثمارات التي تخص إقامتي، بانتظار البتّ في قضية اللجوء التي تقدّم بطلبها لي.. كنت أنام صباحاً، لأن كوابيس الليل تؤرقني وتحرمني النوم ليلاً، تطلّع أذرع طويلة من الكتب حولي، تمتد نحوي وتحاول خنقي، التقط أنفاسي بصعوبة حتى أغفو من جديد، فيأتيني الكابوس القديم الذي ما انفكّ يلازمي لسنين طويلة.

- يظهر فريد نعمان بفانيلته الزرقاء عابساً صارخاً، حاملاً حزامه الجلدي، يتقدم نحوك، وأمك تبكي عند النافذة، والغراب ينبع على شجرة التوت، ستظل تلاحقك تلك اللعنة حتى يوم تموت.

تحلّ عليّ اللعنة حقاً حين يأتي لفظة مكي، صديق محمود، لزيارته مرتين أو أكثر في الأسبوع.

* * *

علتُ تأوهاتٍ وصيحاته المحمومة، أثناء جلوسه أمام شاشة

الكومبيوتر لمعاشرة النساء إلكترونياً، بانث حديثه بشكل أكثر وضوحاً أثناء ما كان ينحني على لوحة المفاتيح، اختلطت آهاته مع صوت طرقٍ متواصل على الباب وكنثُ ساعتها في المطبخ، صرخ طالباً مني فتح الباب للطارق، وما أن فعلت، حتى دخل لفئة مكّي دون أن يسلم، مضى مسرعاً إلى جوار محمود، الذي عدل من سرواله وراحا يتابعان معاً فلماً إباحياً:

"هل استأجرت خطأ جديداً، أم سطوت على واي فاي جيرانك؟"

لا يتوانى محمود عن التفاخر ببراعته ولباقته الاستثنائية مع النساء، حكى لصديقه كيف انه أخذ من جارته الأرملة كلمة سر الإنترنت، مقابل بضع كلمات تودد وغزل، ملخصاً نهجه في الحياة برسمه خارطة علاقات لكل الناس، حدودها مصالحة ومدى استفادته الشخصية، فكان كلما يقابل شخصاً ما، ينشره على موقع خارطته، يفكر كيف بإمكانه الاستفادة من ماله أو خبرته، أو من نفوذه ومعارفه، يطلق على تلك الطريقة اسم نظرية المفاتيح: "لدى كل شخص مفتاح تنفذ من خلاله إلى طريقة التعامل معه، المرأة مفتاحها التغزل، القائد المديح، السكير زجاجة خمر، الطبيب استحضار العواطف، أما الجبان، فأخرج له مفتاح الصلابة والصوت العالي.. كل ذلك من باب الحذاقة والدهاء المطلوبين راهناً، وبدونهما لا يستطيع المرء أن يعيش، قوّتك لوحدها وثقتك بنفسك لا تكفيان، ولا يتعلق الأمر مطلقاً بصوابك وحسن نيّتك بقدر ما يتعلق بالخلل في الشخص الذي تواجهه، وبمعرفتك لنقاط ضعفه واستغلالك لها بدهاء، ومعها طبعاً حسن تدبيرك وحذسك، ولا ضير في أن تثقل لسانك بعبارات الودّ المصطنع".

- عرف محمود مفتاحك ونقطة ضعفك يا وحيد، طبق نظريته ومنطقه على كل الضعفاء من أمثالك، تعذر عليك مواجهته، وما كنت قادراً على أن تخبره بنقاط ضعفه هو، وكيف انه يهرب من الواقع بسخريته، ويعوّض ما ينقصه بالاكتمار القهري وبمعاشرة النساء إلكترونياً مع صديقه لفتة.

ما أن يدخل لفتة مكّي البيت، حتى يعلو صياح محمود وتنتطلق حنجرته بالأغاني، يشاركه صديقه الذي يحمل بيده كلما يأتي بعض المشتريات للسهرة، مع علبة مخلات يعملها بنفسه، يرافقه على الدوام كيس بلاستيكي يضع فيه كل وصفاته الطبية وأدوية الضغط والسكر، وبعض رسائل تأتيه من دوائر حكومية أو من الطبيب، علّه يصادف في الطريق من يترجمها له، يتذرع بأنه ضعيف البصر بعد أن فقد عينه اليمنى وهو طفل جرّاء مرض الرمد.

يحرص لفتة على صبغ شعر رأسه وشاربه بصبغة سوداء قاتمة، تشبه لون إطار نظارته، يصقّف بضع شعرات طويلة في جانب رأسه بطريقة متقنة، يمشطها ويقلبها إلى الجانب الآخر، خافياً بها قمة رأسه الخالية من الشعر.. تسحب الجاذبية الأرضية أعضائه فيزداد قصراً، يتقدم رأسه الكبير جسده ويبرز كرشه وتكاد تختفي رقبته، تظهر بدانته واضحة من خلال ملابس (أكس لارج) يرتديها.. كنت أرسمه في تخطيطاتي بهذه الصورة، وأبالغ بتضخيم تفاصيله.

يرتفع صوت محمود بكلمات الترحيب التي يحاول من خلالها أن يبدو طريفاً، لكنه يقصد من ورائها دائماً المسّ بلفتة: "مرحى بملك الطرشي ودوق المخلات، ويلكم بلورد المازات الكريم".

يجيب صديقه ببرود:

"كريم ونظيف ونزيه، أفضل من الانتهازيين والبخيلين أمثالك أيها المرائي".

يضحك محمود ساخراً مسلماً:

"أنا ومن بعد هزائمي وانفضاض معاركي، لم أعد أومن بأي شيء، سلّمت كل أسلحتي وجلست فوق التل متطلعاً إلى الأسفل، أضحك بملء أشداقي وأحتفي بالحياة بما يليق بها من تفاهات، في عالم اليوم، من الأفضل لك أن تظهر مذنباً ظالماً ساخراً، على أن تبدو صادقاً عاجزاً ضعيفاً.. أما أنت أيها الماركيز، فلا تملك حلاً عند هزيمتك سوى الاكتئاب واعتزال المجتمع، الذي هو بنظرك - ليس جديراً - بأفكارك العظيمة التي لا نعرف عنها شيئاً، وغالباً ما تتعكز على نظرية المؤامرة، ما أشطرك في التقاطها وإلقاء فشلك وأخطائك على سماعتها!"

في بداية جلسة المساء، يبدآن نقاشهما باحترام، اقتداءً بمبدأ أخالفك بوجهة النظر، لكنني أحترم رأيك، ثم بعد فترة يحتد جدالهما وسجالهما حتى ساعات متأخرة، ليتحول بالتالي إلى تبادل اتهامات وشتائم، يرتفع صراخهما ليهدأ بعدما يثملان، أو ينتهي قبل ذلك بغضب محمود، الذي يكرّ على أسنانه ويزرد ريقه، قبل أن يمطر صديقه بوابل من البذاءات اللفظية:

"ما كنت أتصورك بهذا القدر من الرداءة، من أجل تميّزك عن الآخرين تخالف المعتاد دائماً، تحب المطر وتعتبر الخريف فصلك المفضّل، ولا تسمع غير الموسيقى الكلاسيكية والأوبرا، كأنك من الأرستقراطيين أباً عن جد، خلّقت لتعارض وتعارض ولا يرضيك شيء، لا تقل يوماً إنني لا أعرف ولا تبدُ مهزوماً

في أي نقاش، رغم إن معلوماتك سطحية لا تتعدى ثقافة عناوين، وما أنت سوى مثقف ويكيبيدي يظن انه مشهور وذائع الصيت ويقول: كلما يقابلونني يقولون، كيف حالك دكتور، أفدنا برأيك يا دكتور.. كيف حصلت على شهادة الدكتوراه؟ ما أعلمه هو أن لك ديواناً شعرياً ورواية واحدة، يُشاع أنك وجدت مسودتها في مكتبة أحد أقاربك المتوفين، أو أعطاهم لك أحد الأصدقاء الراحلين للتنقيح، فنسبتها إليك بعد وفاته، وكل من قرأها، أدرك أنها كتبت بأسلوبين مختلفين بعد أن أضفت إليها بقلمك الركيك بعض المقاطع، كتاباتك كلها مضيعة للورق وللوقت.. الشعر والرواية يا سيد ينبغي أن يكونا إدهاشاً بسيطاً بلغة توصيل بلاغية وصور جميلة متناسقة، وليس مفرقات لفظية وزخارف.. لديك مشكلة لكل حل، تكفي في تحليلاتك بنقد الخلل السياسي والاجتماعي الموجود، تدور حول المشكلة دون محاولة معالجتها أو إيجاد حلول من أجل تجاوزها.. تكتب شاكياً باكياً عن الحنين إلى الوطن وقسوة المنفى، (لا تصالح مع المنفى)، بينما أنت أكثر فرد استفاد من امتيازاته وطبيعته الخلابة، ولو خيروك بين أن تبقى في منفاك أو ترجع للعراق، ماكنت ستعود.. ادّعت بأن حالة عينك نتجت عن التعذيب حتى تحصل على اللجوء، اغرب عن وجهي، بلامحك التي تذكرني بعصر الجاهلية وأبي لهب، تباً لك، ثكلك المملكة الشعرية والروائية".

يرمش لفتة جفنيه مرات متلاحقة ويتهاى للرد دون أن يصغي إلى ما يقوله محمود، يهزّ رجله بحركة عصبية كأنه واقف على بلاط آجر حار، يسحب شواربه نحو فمه بسبابته وإبهامه، يقضم بعض من شعرها دلالة على توتره، ويرتفع عنده سكر الدم فيقوم بحكّ ما بين فخذه من فوق سرواله.. ينتظر دوره،

لكي يردّ على محمود، مثل طائر يهّم بالانقراض على فريسته، يحرك رأسه يميناً ويساراً، وعلى شفّته ابتسامة منتصرة لكونه متهيئاً للردّ بشكل جيد:

"وماذا عنك أنت أيها البخيل المتملق؟ بإمكانك الحصول على لقب شايлок لندن بجدارة، بل تتفوق على شايлок بتقثيرك وعلى الحطيئة بسلطة لسانك، تضطرنني للتسوق كلما آتي إليك حتى لا أجوع ويرتفع عندي السكر.. هل تنتقدي يا جامع القمامة وأنت لا تنفك تتلفت نحو مزابل لندن، علّك تجد ما تكسسه في شقتك القذرة، أو ما تعرضه للبيع على المعارف والأصدقاء؟ ستبقى مثل الدجاجة، تموت وعينها على المزبلة.. أيها الرقيق الخليع الذي يبوح لعشيقاته بكل أسرار الجالية العراقية، تشعر بالانتصار وتفتخر لأنك سباق في نشر الفضائح، لم أر مثلك شخصاً متلوناً من جماعة، - كلّي آذان صاغية- وأنت لا تستمع إلّا لذاتك، تفتخر بأنك كنت مع النظام في يوم من الأيام، وها أنت اليوم تذهب إلى المراكز الإسلامية بالمناسبات الدينية وبيدك مسبحة طويلة، تتناول الطعام وتصافح ذوي العمام وتتذلل - سلام عليكم مولانا، يحفظك الرحمن سيدنا، خادمكم الصغير محمود-.. خدعت زوجتك الأولى، وسلبتها كل ما تملك، أما زوجتك الثانية فطلّقتك لسوء أعمالك وبخلك، حتى النظام الاجتماعي للدولة لم يسلم من تلاعبك، أجرت شقتك المملوكة للدولة، والتي يُمنع تأجيرها لغيرك وسكنت مع صديق، ولديّ معلومات موثوقة بأنك أعطيت لوسيط مبلغاً من المال ليسجلك مع متضرري مخيم رفحاء، وصرت تأخذ مخصصات ضخمة وتقاعد من العراق ومساعدات اجتماعية من هنا، تصرفها كلها على المقامرة.. يكفي عليك لفظ (مهمود التافه) بالإنجليزية".

يتخاصمان بضراوة، في الوقت الذي أنجزَ لهما تخطيطات من وحي المعركة، يكون فيها محمود على شكل مقص، أطرافه السفلى أطول من العليا، وبأنف منقاري بارز.. يخرج لفطة حاملاً معه كيسه البلاستيكي الأثير الذي يحوي أدويته، وينقطع عن زيارتنا لفترة، ثم يعود ثانية إلى سابق عهده بعد أن يتصالحا ويتراضيا.

- كيف يعقل أن يكونا صاحبين، وبينهما تلك المسافة العسيرة من الاختلاف والكلمات الجارحة؟ كنت تفهم بالكاد ما يجري بينهما، من الأخرى بك أن تقص لسانيهما بالمقص بدلاً من رسمهما، ولكنك تمتثل لأوامرهما ولا تنبس ببنت شفة.

هذا ما كان يقوله عني محمود أيضاً، رغم اني لم أسمعهُ يوماً يشيد بشخص أو يمتدح أحداً، جميع الناس بنظره أعداء ما لم تكن لديه مصلحة معهم، يذمّ الجميع ويلقب كل من يعرفه بلقب مميز، يطلق عليّ لقب (وحيد القهر) أو (وحيد إل إل)، بسبب تلعثمي في الكلام، وعلى نبيل كلمة (أوتي)، لأن ملابسه مكوية ونظيفة متى ما رآه، ومن المحتمل أنه يعني بذلك وجه نبيل كثير التجاعيد، في إشارة لحاجته إلى مكواة.

أبقى أحياناً في غرفتي، أقرأ طوال وقت وجودهما معاً، أو أقضي فترة في المطبخ أحضّر لهما متطلبات الشراب والطعام.. أضطرّ إلى سماع ما يتسرب إلى أذني من أطراف حديثهما الممزوج بالأغاني والموسيقى وحدة النقاشات.

بعد انتهاء فيلم إباحي كان يتابعه مع محمود ذات ليلة، أراح لفطة ظهره على الأريكة وأشعل سيجارته بمنتهى الارتياح والاسترخاء، أخرج من كيسه الأثير علبة دواء، تناول منها حبة وراح يخاطب محمود:

"افتح لنا زجاجة خمرة يا سليل أجداد فتحوا الأندلس، واسقنا من هذه الخندريس يا خير جليس".

تهللت أسارير محمود، قام بابتهاج إلى المطبخ وهو يفرق بأصابعه لحناً شائعاً، كنت حينها أجهّز عشائي فطلب مني مساعدته.. عاد إلى الصالة حاملاً معه بعض المازات وكأسين فارغين، في مشهد فرائحي ألهم لفظة الذي راح يرتجل شعراً من موقع الحدث:

"قم منتصباً فخوراً ولا تتعب/ نادِ عالياً بصوتك الأبيض/
ونمّ عروفاً لا تتضب/ لا تنزع عنك أوراقك/ من ماء
جذورك اشرب/ انفض عنك غبار المنفى/ وقم فخوراً/ قم
منتصباً / قم منتصباً".

يسخر محمود منه:

"مستر مكّي حالتك تبكي، أظن أنّ تلك الأبيات من بحر
الفياعرا أو من بحر القائم، كم أنت مخملي أبو المكاوي!!..
بصحة الشاعر المنتصب على شفير المجد وحروفه الثملة..
الأبيض يوحدنا.. اليوم أكملت لكم خمرتكم ورضيت لكم
البارون مكّي دليلاً، فمن أراد الأنس فليخذ منه إسوة حسنة..
بصحة شاعر الأحاديث النووية، الذي لا يفقه بأن الخمرة هي
الطريق الوحيد إلى الروح، تتناغم فقط مع متطلباتها لا مع
مواهبه الشعرية التافهة".

"كل الطرق تؤدي إلى الروح المستلبة.. بصحتنا، نحن طبقة
الانتلجنسيا دائمة الحضور، نحن الذين لا ندخل في سجل
مفاهيمي ذي دلالة لا سيميائية مع من لا يفقه".

"أطحت بوقاري يا جاري، أنا أعلمُ وأفهم منك، أقسم بالكميت وبالحارث بن حلزة".

"أنام ملء جفوني عن شواردها، ويسهر الخلق جرّاهها ويختصم، بصحة المتنبي والكميت شاعر المبادئ.. ضاع عمرنا سُدى ونحن ندرس شعر الحارث بن حلزة في وصف الناقة، بينما خلتُ مناهجنا من أسماء كتاب وشعراء عظام، من أمثال همغوي ومايكوفسكي وغيرهم".

"لا عظام ولا سخام، عاشوا ينظّرون ويكتبون حكماً ونصوصاً، لا نحسن اليوم سوى الاستشهاد بها والاقتباس منها دونما تطبيق، ولعلمك، لقد كان هؤلاء من أكثر الناس بؤساً وكآبة حتى انتحر الكثير منهم، همغوي أطلق النار في فمه، وكذلك رامبو، مايكوفسكي، فرجينيا وولف، فان كوخ، خليل حاوي وغيرهم".

"اطالما أتساءل، هل انتحر هؤلاء العظماء بسبب عجزهم عن تحقيق ذواتهم وحبهم لأنفسهم، فأرادوا تخليصها من الحياة، أم لأنهم كرهوا ذواتهم لحد التخلص منها؟"

"أو من الجائز أن تكون النساء هنّ السبب بالنسبة للكتاب من الرجال، والعكس هو الصحيح".

"أصبتَ يا صديقي، فتشّ على المرأة.. كانت تتكور في ثنايا الشعر/ كأنها نخلة، خرجت من ديوان السياب/ أو رائحة قهوة، تسربت من قصيدة محمود درويش، في فنان بلّور لازوردي/ يا قارورة العسل المرّ/ كرمتك اللندنية والعراقية أنا/ اعصريني، لأهبك نبيذي يسكرك".

"يا له من إحساس كامل الدسم، ما هذه الأصالية النادرة

أيها اللنداقى الذى قدماه فى لندن ورأسه فى العراق!.. بصحة لنداقيتك وعصيرك النبيذى وقارورة العسل أيها الكهل، وليخسأ الخاسئون وعلى رأسهم إليوت مع قصيدته أرض اليباب، ليعش سير مكى قاهر النساء والشعراء".

ما أن تسرى الخمرة فى عروقهما، حتى أسمعهما يتحدثان عن المرأة - الأنثى وعن نساء تعرفا عليهن، عن مغامرات قد تكون من وحي الخيال أو من باب التمنى.

"عجبي من العراقى وغبابته، فهو لا يتزوج حببته ولا يحب زوجته، وكثير منا يتزوج، لكن ليس لديه شريك حياة.. أما أنا، فلا أقبل الارتباط بامرأة عاشرتها قبل الزواج، كيف أأتمن لها وأمنحها اسمي؟ سأتى بواحدة من العراق لم تقصّ ضفائرها للآن، لا أثق بالنساء المستعملات، وكما قال شكسبير العظيم، (هناك امرأة تحبها، وهناك امرأة تعرفها)، فالمعرفة وانتهاء الغموض المثير للفضول، يقضيان على الحب".

- ما أتعسهما! لم ير محمود ولفتة فى المرأة، سوى نهدين ومؤخرة وما تحت سروال، أما الحب عندهما، فهو محض هرمونات وغبزة وغبّة جبلتهما الطبيعة عليها من أجل الحفاظ على الجنس البشرى بأسلوب حضارى.. كيف تعيش معهما يا وحيد رغم نفورك من صحبتهما؟ من المعيب أن تبقى هنا وتواصل سماع حديثهما.

ينتقلان فى الحديث إلى السياسة:

"هات تلك القطعة المغمضة وسنرى، أراهن على أنها ستتركك حال حصولها على الجنسية البريطانية.. هل تعرف أي شيء مزدهر اليوم فى عراقنا الجريح؟ سوق المداهنيين والمنافقين من أشباهك، وكذلك سوق الدفانة".

"أين دوركم أيها المثقفون مما يجري في العراق، ودورك أنت بالذات يا فيكونت مكي؟ تكفي بوسائل التواصل الاجتماعي أيها البطل الافتراضي، وتنفس عن غضبك بنضالك - الفيس بوكي- عبر منشورك، وكل ما تفعله في الواقع هو التفرغ للتأمل وتضييع الوقت في تتبع وحساب عدد المعجبين لمنشوراتك"

"ليس بيدنا حيلة.. ما جعلونا نعيش به من واقع راهناً، لا يعطينا فرصة سوى الاختيار بين ما هو سيئ وما هو أكثر سوءاً، رأس المال هو المتحكم بالعالم، لا يحل مشاكلنا ولا أزماتنا بل يعمل على الاستفادة منها، كرّس الطائفية ودمّر كل شيء في العراق، ليبقى اقتصاده ريعياً ولا تقوم للبلد قائمة، انهار مجتمعنا تماماً وغصّ وطننا بالفاستدين والراجلين والمنافقين".

"أن للجميع أن يعترفوا بعد كل ما حدث من انقلابات وثورات في العالم، بأن البرجوازية الوطنية هي من تحكم الآن وبدعم من (الكبار).. لطالما تغنى بعض الناس بالطبقة العاملة والاشتراكية ونظامها، أن لهم أن يقرّوا بالخيبة والفشل حفظاً على ماء -النضال-.. ها هم يعيشون في عرين الإمبريالية ويأكلون من فضلاتها.. تحيا الرأسمالية وتعيش الإمبريالية، قل ظهر الحق الهادر وزهق الدوق مكي المثقف العميق اللاشاعر، صاحب الإنثيالات والإرهاصات وتجليات ما بعد الحداثة والميتاشعرية".

"يا صديقي اللود، قد يكون الواقع مخيباً للآمال حالياً، أما إعادة خلقه وتشكيله وتطويره بالفن، فهو أمر ممكن وجميل، أغنية أو قصيدة عشق أو لوحة تشكيلية، تجعل المرء يحسّ ان

كل شيء سيكون على ما يرام ولو لبرهة، تذكر ما قاله جاك دريدا، بالمناسبة، هل تعرفه؟"

"كلا، أعرف (جاك) الموت يا تارك الصلاة.. من الأفضل لك أن تعرّج على أقرب مزبلة وترمي فيها اقتباساتك ومعها قصائدك، لا أمل عندي فيك ولا في شعب عقله في أمعائه ويعتبر الكرّش هيبة".

"المشكلة تكمن في الطفيليين وأشباه المثقفين أمثالك، تثقف واقرأ عنه، لأن السؤال المطروح والمّح الآن هو، هل يتمثل دورنا في تحويل الأدب إلى واقع أم تحويل الواقع إلى أدب؟"

"لا أدب ولا قلة أدب، لتعلم انك لو أردت أن تكون محبوباً، فما عليك إلا أن تكون تافهاً، ولكي تحب نفسك، اسخر من كل شيء واضحك على كل شيء، ذلك هو مبدئي في الحياة".

تطول السهرة على هذا النحو، ولا يخرج لفظة إلا عند منتصف الليل بعد أن يشاهد فيلماً إباحياً ويتناقشان في محاور ثلاثة لا غير، السياسة والأدب والمرأة، ويظلان على هذا المنوال في أغلب الليالي.

- تظل تخدمهما وتكون نادلاً في جلساتهما يا وحيد، لم تفكر يوماً بأن تشاركهما في الحديث أو السمر، ولم تجرؤ أن تعترض على ضجيجهما، أو حتى تبادلهما الرأي فيما يقولان، جعلت محمود يستغلك كما يشاء.

* * *

في أحد الأيام، طلب مني محمود مساعدته في استخراج عُدّة الطلاء من المخزن، كانت عملية شاقة تتطلب حذراً وصبراً نظراً لاكتظاظ المكان بأغراض متراكمة وغير مترتبة، تجعل

استخراج ما نحتاجه أمراً بالغ الصعوبة.. بعد أن فحص ما أخرجه من المخزن وتأكد من صلاحها لعمل يوم غد، أمرني بالقول:

"ستخرج معي باكراً لتساعدني في طلاء أحد البيوت، سأعلمك ما يجب عمله، لا تعتقد إنها عملية صعبة، فلقد تعلمتها حين كنت يافعاً يوم مات والدي وصرت أعيل والدتي وأخواتي الأربعة.. كنتُ أعمل صَبَّاحاً من الصباح الباكر حتى وقت متأخر، أذهب بعد ذلك للدراسة في مدرسة مسائية حتى أكملت الإعدادية، وكان عندي الوقت الكافي لأطالع الكتب وأتتقف، يومها كان الحرمان والعوز ينهشاني، لكن إيماني بغد أفضل جعلني أمضي، آملاً أنه سيأتي يوم أحيا فيه حياة مرقّهة وأعيش كإنسان.. كم كنت أتألم، حينما أعرف أن والدتي تذهب إلى السوق لتجمع الخضار التالفة بعد تخلص البائعين منها لتطبخ منها وجبة! صرْتُ أضع رأسي على المخدة وأحلم بأنني سأفوز بجائزة يانصيب تغيّر حياتي، حتى جاء اليوم الذي ماتت فيه أمي وأختي بسبب فقر الدم الحاد وعانيت أنا من الفاقة والعوز.. لم يتحسن الوضع ولم يأت الغد الأفضل المنتظر، لذا تعلمت أن أدوس على الماضي المليء بذكريات الثورة وأحلام الانتصار، صرت أسخر من كل قواعد المجتمع ومثالية المتحذلقين، رافضاً أن ينقضي عمري في الجدّ والنضال.. أنا اليوم وحيد مثلك، لا ينتظرني أحد ولا أنتظر أحداً، لأن الانتظار أشد من القتل".

- ليس ثمة رادع أخلاقي لمحمود أمام أي هدف، لو عانى كل منا في حياته وصار مثله، لبررنا وجود الشر على الأرض، خيباته لا تغفر له ما يفعله اليوم، ولا أستطيع تفسير

سبب ذهابك إلى أبعد الحدود في طاعته وتنفيذ طلباته يا وحيد.. لماذا تستهلك طاقتك مع ناس صعبين؟ أنت فقدت القدرة على التمييز والشعور بعزة النفس حتى صرت ذليلاً.

يقرأ محمود عروض الأسواق وما يبعثونه من دعايات ورقية، كأنها واجب مدرسي مقرر، يؤشر على كل عرض رخيص ينوي شراءه ليذهب ويشتري من كل سوق حاجة حسب السعر، وإذا لم يتوفر عرض مغرٍ، يطلب مني الذهاب إلى المحلات التجارية قبل إغلاقها، الوقت الذي يجرون فيه تخفيضات على منتجات ينتهي تاريخ صلاحيتها الليلة ذاتها:

"سنذهب لتسوق لنا الآن، ما عليك سوى الانتظار والصبر، اتبع العامل المكلف بتخفيض السعر واخطف منه البضاعة قبل أن يمدّ متبضع آخر يده إليها، انتبه ولا تجعل عينك تغفل عنه.. عندما ترجع، سنذهب معاً إلى ناصية الشارع لتساعدني في حمل بعض الأغراض التي تركها أصحابها مع ورقة مكتوب عليها، خذني رجاءً".

يعتقد نبيل بأن الخطأ والخطيئة هما من سمات الإنسان، وأن ما يقوم به محمود ليس خطيئة بل خطأ، جرّاء معاناته من ظروف خاصة وإصابته بمتلازمة الاكتناز القهري التي من أبرز أعراضها، إيجاد صعوبة كبيرة في التخلي عن المقتنيات، كما وأنّ إيمانه على المراهنات والمقامرة، هو شكل من أشكال الأمراض النفسية الشائعة.

- ما كنت تتفق مع نبيل في الرأي، في الوقت نفسه، لا ترى جدوى من مناقشته وإقناعه بأن محمود كان يستخدم الحيلة والخداع في التعامل مع الآخرين.. لم تخبره انه دعاك للذهاب معه إلى عيادة طبية خاصة، لتجريب بعض الأدوية

الجديدة مقابل مبلغ من المال، وانه لجأ إلى بيع سائله المنوي للأزواج العقيمين.

أكثر ما كان يسعد محمود هو ما يكسبه مجاناً من أشياء يرميها أصحابها، يجمعها ويكدّسها في المخزن، وحتى العلب الفارغة، تجد لها مكاناً في خزانة مطبخه، التي ما أن تفتحها، حتى يتساقط ما فيها على الأرض، لكن حينما يفيض ما يخزنه عن الحاجة ويضيق به المكان، يترك ما يريد رمية في الصالة فترة من الزمن، ثم يقربه من الباب لفترة ثانية، وبعد ذلك يضعه عند الباب الخارجية لفترة زمنية أخرى، حتى يقوى بعد ذلك على الاستغناء عنه.. يستغني أحياناً عن أشياءه مقابل مصلحة ما، بيد انه ما أن يعطي أي شيء في إحدى نوبات كرمه النادرة، حتى ترسم على وجهه ملامح الوجوم والتردد لبرهة، وتتمّ نظرته عن ندم بسبب تعجّله في العطاء.

لا أحد يعلم ما هو عمل محمود وما هي مهنته، فتارة يكون تاجراً للمواد المستعملة والأنتيكات، وتارة أخرى يعمل في مكتب لتأجير البيوت للسوّاح العرب القادمين إلى لندن في العطلة الصيفية، ثم تسمع أنه يبحث عن بيوت في المزادات، وخاصة تلك التي عليها مشاكل بين الورثة، أو حتى بيوت قديمة آيلة للسقوط، يعمرها بمساعدة من يعرفهم بأجور زهيدة ويبيعها بعد التصليح.. يتباهى بأنه تحايل على الدولة فيستلم مساعدات الإعاقة بعد ادّعاء إصابته بالكآبة، ولكن جرّاء إيمانه على المقامرة، يخسر كل موارده.

- كيف كنت تصمت وترضخ له؟ كان عليك أن تصرخ بوجهه أو تخرج له لسانك، أو ترفع له أصبعك الأوسط، مثلما يفعل هو رداً على كل ما لا يعجبه، غير انك تخفي ما تفكر به

وما يلزم عمله وتحفظ به لنفسك، تكفي بالسمع والنظر
فحسب والرجوع إلى الغرفة- الصندوق لظمر نفسك فيها حتى
يدنو أجلك.

* * *

كلما أقبل على النوم، يمتصني الفراغ وعممة المكان، تغطس
الغرفة بظلام دامس ويشخّ الهواء فيها، أتلمس حواف النافذة
بأصابع ضجرة من بعضها، لكي أتأكد من أنها ليست بوابة
قبر، تستحوذ على عقلي وتؤلمني أفكار كقطع وشظايا من
زجاج متهشم.. أرى من جديد أبي مقبلاً نحوي بفانيلته الزرقاء
رافعاً حزامه الجلدي باتجاهي والشرر يتطاير من عينيه، بينما
أشاهد أمي تبكي بصمت عند نافذة الحديقة، وينعب الغراب
على شجرة التوت العجوز.. أعدّل الوسادة عدة مرات، أثقلب
في الفراش، ورغم ذلك لا أحظى بنوم مريح، يغادر الهواء
الغرفة الصندوق، وأنا لا أغادرها لأيام إلا حين يجيء نبيل
سائلاً عني، مثلما فعل في ذلك المساء:

"أين وحيد، وكيف هو؟"

انبرى محمود ولفتة في ذمي بقبيح الكلام، كنت أسمع كل ما
يقولانه من درفة الباب المفتوح قليلاً، اختلط صوتاهما متحاملاً
عليّ:

"تقصد الرجل القانط؟ كيف نعرف أين هو بأحواله الغريبة
والغامضة؟ نظنه ليس بالدار.. وحيد شخص ممل قلماً يتكلم،
ولمّا يفتح فمه لا يستطيع إنهاء جملة واحدة، يتوقف على لسانه
الكلام ويهيم عقله في غمامة سوداء، تتحرك يداه لا إرادياً
وبشكل عصبي لتساعداه على استخراج أفكاره، وبعد جهد

جهيد، لا تخرج من رأسه فكرة واحدة أو جملة مفيدة ومفهومة.. ليس لديه اهتمامات ولا حماس لشيء، ينسحب نحو نفسه في كل مرة، مستخدماً صمته كآلية للتغطية على ضعف اجتماعي وفكري، ومن الجائز أنه يلجأ إلى تلك الوسيلة لإنكار وجوده ولجلب الشفقة إلى نفسه".

"ذاته عصية على الفهم، ليس بمقدوره أن يعبر عنها، رغم أنه دودة كتب ويقرأ بغزارة، لكنه لم يفصح يوماً عن أي معلومة، ربما عنده ثقب في رأسه.. ما جدوى كل هذا العناء إذا كان لا يحسن من حياته ويبقى كما هو؟ لا يقوى وحيداً إلا على القيام بعمل روتيني، لا يستلزم منه جهداً فكرياً أو جسدياً كبيراً، أنه مجرد من المشاعر، لا يسير وراء خطواته بل وراء خطوات الآخرين، ولا يشعر بالوجود ولا حتى المكان بنقصانه إن غاب".

- يبدو لي أن الكل يعرفك جيداً ما عداك، أنت لا تعرف نفسك، تتساءل ذلك السؤال الفادح بتعجب، هل أنا هكذا حقاً، من أنا وماذا أريد؟

انبرى نبيل مدافعاً عني:

" ليس ثمة مدعاة لكل هذا الكلام.. لكن أين يخرج في تلك الساعة؟ أترأه مريضاً وراقداً في الغرفة؟"

واصل محمود كلامه عني:

"لا فائدة تُرجى من إنسان يقضي ثلاثة أرباع عمره في النوم، حضوره يشفط الأوكسجين من الجو يسحب الألوان من اللوحة، ولا يستخدم شفثيه للابتسام، اسمه ووجهه غائمان، كم هو شخص مفسد للبهجة! لو يعملون تمثالاً للكآبة لتجسد في

وحيد، أشكّ بصحة هذا الرجل العقلية، عنده عوق عقلي أو لوثة وربما ورث جينات الجنون من أمه الـ...".

نزلتُ من الغرفة ولم يلحظ أحد وجودي.. تعود نبيل على الهدوء في مثل تلك المواقف، وتدرّب على التحدث برباطة جأش ورؤية، غير أنه هذه المرّة، تكلم بفم جاف وغضب مكتوم، صارت يده ترتعش ولم يتمكن من السيطرة عليها:

"ما أعلمه جيداً هو أن الثقافة ليست معرفة مجرّدة، بل هي حسن سلوك وسلامة مواقف، وبما إننا لم نختر لوننا ولا شكلنا ولا جنسنا، فأرى أن ثقافة ازدراكم للمريض عقلياً والمعاق جسدياً وللمرأة ولإنسانيتها، أمر مهين، وكذلك سخريتكم من كبار السن ونكاتكم على المسنّين، التي أسمعها منكم مراراً.. العيب ليس في الشكل أو المرض أو اللون أو الانحدار العرقي والطبقي أو في العمر، تلك أمور لا يملك المرء إزاءها حيلة ولا اختياراً، وتندركم على العملية الجنسية هو محض هراء، لأنها حالة مقدسة للنماء والخصب البشري، وليست للتسلية والاستهزاء، علينا أن نحذر عندما نتحدث عن الأخلاق، فلا ينبغي أن نعني بذلك الجنس فحسب.. غير اني لا أرى سبباً معقولاً لكي تنهال الشتائم والألفاظ البذيئة على الأم أو الأخت في أي خلاف كان، وكلمات مثل ابن زانية، ابن كذا، أخ كذا، غير مقبولة ألبته.. أما أن لنا أن نتخلص من ارتباط مفهوم الشرف في الثقافة القبلية والعشائرية بالمرأة، أمّا وأختاً وزوجة؟ لكن يبدو ان حالنا هذا كان منذ زمن بعيد، فقد سرتِ العادة أن يكون الشتم باستخدام لفظ الأم، يخطر ببالي قول أحد الأوائل عن عدوّه، (ابن البوّالة على عقبيها).. ولليوم نسمي المرء لو كان سيئاً باسم أمه، (ابن صبة) أو أخو القحبة، لا أستثني بذلك بعض الأجانب، حينما يشتمون الشخص بوالدته

عند قولهم (ماذر فكر).. لا تشغلوا بالكم فيما يخص وحيد،
سأتي غداً وأخذه ليسكن معي، أو أدعه يسكن في شقة أجور
رود، وصدق من قال بأن الإنسان الملوث داخلياً لا يستوعب
وجود ناس أنقياء في حياته".

- لا يخامرني أدنى شك بأنك مختل عقلياً يا وحيد، كم مهين
أن تسمعهم يحطّون من شأنك وأنت ساكت!.. تترك الدكتور
نبيل يدافع عنك ولا تتدخل.. لا يهمني أن يهينوك، لكن كيف
تسمعهم يسبّون أمك وتظل ساكناً هكذا؟

* * *

لم أجد مشقة في الاستيقاظ رغم أن نومي كان مضطرباً في الليلة السابقة، لأنني أعتقد أن (المستقبل ملك الذين يستيقظون مبكراً).. خطرت على بالي جملة قرأتها يوم أمس في رواية ذئب البراري لهرمان هسه، يشير فيها إلى أن (الاستيقاظ وقت بانس له، يخافه ولم يجلب له أي خير)، لكن الأمر لم يكن كذلك عندي، وكنت أوّمن بأنني (كلما تأخرت في الاستيقاظ، كلما كان الثمن الذي سأدفعه باهضاً).. ضحكت في سرّي، إذ بدا واضحاً في تفكيري، تأثير ما ترجمته حول الاستعارات من الكتب، مع اني لا أحبّذ أن أكون أسيراً للنصوص.. وقفت برهة في الشرفة أتأمل شروق الشمس، ما أجملها وهي تنهض للحياة خريفية هادئة! تخلق ولادة النهار فرحاً جديداً في نفسي.. رمقتُ بفرح طائر (أبو الحناء) واقفاً على الشجرة، سعادة صغيرة تغمرني لحظة أرى هذا الطائر فوق شجرة، وأنا بكامل صحتي، أستنشق هواءً نقياً في يوم جديد يدعوني إلى اللحاق

بالحياة وترقب كل ما هو جيد من النهار.. علّ العمل اللاحق، يكون مختلفاً عن قضية وحيد فريد نعمان التي أنهيتُ ما يتعلق بخصوصها من تكليف بالترجمة، وما تبقى لدي هو الذهاب إلى شقة الدكتور نبيل والاطلاع على ما هو مكتوب على جدران المرافق الصحية بعد أن تمّ تنظيفها، احتساباً لأي أمر غفلتُ عنه التحقيقات في المرة الأولى.

بعد الرياضة والاستحمام وسماع نشرة أخبار بي بي سي، تناولت عصيدة الشوفان، شربت قهوتي وخرجت متوجهاً إلى محطة قطارات الأنفاق.

وصلتُ إلى شارع بينفولد، سالكاً طريقاً فرعياً يوصلني إلى الشقة، دون المرور بالسوق المزدحم في شارع چيرچ.. طلعتُ السلم وخففتُ من وقع خطاي في الممر المؤدي إلى الشقة، حتى لا تسمعي الجارة.. التقيتُ بالمحقق عند مدخل العمارة، فتح باب الشقة بعد أن ركبوا لها قفلاً جديداً، تملكني شعور بالرهبة لدى دخولي إلى الشقة واقشعرّ بدني، وجدتها مختلفة عن المرة السابقة، نظيفة وبدون رائحة كريهة على نحو ما، رغم أن التخطيطات والكتابة على الجدران، مازالت موجودة.. أخبرني المحقق بأنه سينتظرنني في الصالة ليعمل بعض المكالمات، وتركني لأصوّر ما هو مكتوب في المرافق الصحية التي اكتشفت فيما بعد بأنه محض تركيب حروف باللغة العربية لا معنى لها إطلاقاً.

أردت أن ألقى النظرة الأخيرة على شقة نبيل ووحيد.. أخذت وقتاً كافياً في التنقل بين المطبخ والصالة، أنظر ملياً إلى كل ما حولي.. تخيلتُ وحيد يجلس في الصالة، مصغياً إلى نصائح نبيل الذي كان يستمتع بشرب الشاي.. مشيتُ نحو الكرسي

الذي مات عليه نبيل، كان هناك جالساً، لا يتوانى في الحديث عن طيبة الناس وعن ضرورة مساعدتهم.. رأيت يده ترتجف أثناء ما كان يتناول الشاي، يهتز القدرح بين إصبعيه حينما يقربه من فمه، يتناول رشفة منه بتلذذ، ثم يضعه على الطاولة بيد ضعيفة الأعصاب مثلما رفعه.

صوّبت نظري نحو غرفة نبيل.. تقدمت نحوها، فتحت الباب ودخلت، جلستُ على سريره متأماً فرط نظافتها، وأناقة ترتيب كتب مرصوفة في مكتبة ثرية عامرة.. رأيتُ لوحة الصرخة المشهورة للنرويجي مونك، معلقة على الجدار فوق المكتب، بدت بتعبيريته الفنية وكأنها تفصح عن قلق فني بشأن حالة إنسانية.. يا لها من حياة لم نعرف عنها شيئاً! كيف انتهى ذلك الرجل بهذه الطريقة البشعة، وما الذي جرى له في أيامه الأخيرة، هل تراه صرخ بأسف، مثل صاحب الصرخة في تلك اللوحة، على حياة غير جديرة به؟ تمنيت لو كانت هناك كاميرا في الصالة، لأعرف ما حلّ به في ساعاته الأخيرة.. بحثتُ حولي عن أي أثر لوحيد في الغرفة، مثل كتابة أو فوضى، فلم أجد شيئاً، يبدو انه لم يطأها أبداً.. أغلقتُ الباب وذهبت إلى غرفة وحيد، رأيته جالساً عند الطاولة، منهمكاً في تخطيط لوحة لمظلوم الذي كان ممدداً على السرير، شابكاً يديه خلف رأسه.. جلستُ على حافة الطاولة متأماً تفاصيلها.. في هوائها المملّب، ما زالت ثمرة رائحة عالققة لإنسان متوجع، وأنفاس غير طازجة تحوم في أرجائها.. وقع نظري على لوحة أخرى، كانت معلقة فوق الجدار عند السرير، بورتريت الصبي الباكي واسعة الانتشار للإيطالي أماديو، خطر في بالي ما قرأته يوماً عن اللعنة التي ارتبطت بتلك اللوحة، بدت لي مائلة قليلاً، نهضتُ بدافع غريزي لكي أعدّلها، بيد إنها وقعت خلف

السريـر، مددت يدي لأخرجها ولأعقّـها في مكانها من جديد، فإذا بأصابعي تلمس شيئاً ما يشبه الورق والزجاجة تحتها، سحبْتُ اللوحة ومن بعدها بعض الأوراق وكان تحتها قارورة، تفحصت الكتابة والخط، اتضح لي اني أعرفه جيداً، أبلغت المحقق فوراً بشأن ما استجدّ من الأوراق، فطلب مني ببرود أن أترجمها، علّـها تفيد في الكشف عن مصير وحيد فريد نعمان وتدلّ على مكان اختبائه، لو كان مختبئاً، أعلمني بأن المحامي يبحث عنه ليرتبّ أمور ملكية الشقة.

في طريقي إلى البيت، اكتظ رأسي بفيض أفكار وبشعر إدغار آلان بو؛ (هل ثمة عطر في الأرض المقدسة؟ أتوسل إليك/ قل الحقيقة وأصدقني الخبر/ أجاب الغراب: لا عود).

ما الذي يمكن أن تحويه هذه الأوراق، هل فيها أسرار تقود إلى مكان اختفاء وحيد، ولم كان بعضها ليس بداخل قارورة، هل نفذ ما لديه من مخزونها؟ ربما كان قاصداً ألاّ يطّـع أحد عليها حين خبّأها هناك، أو ثمة أمر آخر كان من وراء ذلك المخبأ.

حينما وصلت إلى الشقة، جلست فوراً إلى مكتبي وانهمكت بقراءة أوراق كتبها وحيد ووضعتها في القارورة، يذكر فيها الدكتور نبيل، وأخرى متفرقة دوّنها عن نفسه، غير مرتبة أو متسلسلة وفقاً لتاريخ كتابتها، كما أعتقد.

* * *

قارورة وحيد

عن نبيل بهنام توما

كنتَ معي يا مظلوم، حين أشرعتُ ذاكرتي أبوابها على ذلك اليوم الذي هبطت فيه الطائرة في مطار هيثرو الدولي وأنا على متنها.. اتجهتُ صوبَ المرافق الصحية لإتلاف جواز سفري، مثلما أوصاني به عامر في المطار، فإن حدث وسألني أحد عنه ستكون إجابتي، "ليس لدي جواز سفر، أنا جئت طالباً اللجوء إلى بلدكم".

قابلني موظف المطار بوجه حيادي، طلب مني أن أرافق شرطياً آخر إلى غرفة قريبة للاستجواب، لم أستجب وتلعثمتُ في الكلام، فهمتُ منه بعد ذلك انهم سيطلبون لي مترجماً، بعدما خمنوا بأنني لا أجيد اللغة الإنجليزية.

طال الصمت في غرفة الانتظار، لم أعد أسمع سوى
قرقرات بطني الفارغة، تذكرتُ قول كاتب بأن الأمعاء الفارغة
أذكى من الدماغ لأنها تخبرك باحتياجاتها، وإن بمقدورها
التخلص مما هو غير مفيد، ليس كما العقل.. ظلّ مشهد عامر،
مع رجال غرباء يقتادونه، يوجع رأسي كمطرقة تدق على
مسمار.. كان الوقت متأخراً، قضيتُ الساعات المتبقية من الليل
في قاعة الاحتجاز بالمطار، وفي صباح اليوم التالي أخبروني
بأن المترجم في طريقه إليّ.

من نافذة تطل على الممر، رأيته حاثّ الخطى نحوي، يعلّق
على كتفه حقيبة جلدية ويضع فيها، كما أخبرني فيما بعد، كل
ما يحتاجه في يومه من أدوية وطعام خفيف ومنفضة سجائر
كان أصلها قوقعة أو محارة.. تحدّث مع شرطي واقف عند
المدخل، ويبدو أنه مزح معه مما حدا برجل الأمن إلى
الابتسام.. سمحوا له أن يجلس بقربي بانتظار ضابط أمن
المطار، حين اقترب مني، تقدّم أمامه ضوع عطر من ماركة
قديمة مشهورة، مدّ يده وصافحني مرحباً:

"نبيل بهنام توما.. أهلاً بـ.. وحيد فريد نعمان".

ضحك مقهقهاً، وعندما جلسنا، ضرب فخذي بكفه الممتلئ
مهوئاً:

"اسمك يذكرني بمطرب عربي يعجبني.. لا تقلق، القانون
إلى جانبك، يضمن لك حقك في اللجوء كإنسان".

جلس قبالي مبتسماً، الفتت نظري فيه مظاهر عديدة تصلح
كتخطيط وبورتريه، كضخامة جسم، كثافة تجاعيد وجه، فرط
أناقة، وربطة عنق بابينون، تحيط بياقة قميص ناصع البياض..
لاحظتُ نظافة أظافره المقلّمة بصورة مستقيمة وانتبهت إلى

ارتجافة بسيطة باننت على يده اليمنى، عندما رفعها إلى رأسه وصقّف شعراً رمادياً كثيفاً، شبيهاً بشوك القنفذ.. ظل يحكي كلاماً لم أنتبه إلى معظم تفاصيله، أفاض بالحديث عن جو لندن المتقلب الذي يقال بأنه يشبه قلب المرأة، يضطرّ المرء فيه، تحسباً من تغيّره بين لحظة وأخرى، إلى حمل مظلة وسترة صوفية في حقيبته، حتى في أيام الصيف، وقال كلاماً آخر لم أتذكره.. حينما كان يحكي، كنت أتمعن في وجهه، تولدت لديّ رغبة، في إنجاز رسم تخطيطي لتفاصيل بعضها هاربة نحو القسم الأعلى منه، مزدحمة بضيق جبهة، وهبوط حاجبين كثيفين على عينيّين صغيرتين، ثم أنف كبير وشفّتين رفيفتين، لتنتهي الوجنتان الواسعتان بذقن عريض.. ما هذا اللاتناسق المذهل، وكيف يعطي انطباعاً بالوسامة والراحة، لمن يراه لأول مرّة؟ ربما يرجع ذلك إلى شخصيته الحيوية وتلقائيته في الحديث، أو قد تنبع ملاحظته من ابتسامة مشرقة طالعة من الأعماق، تفصح عن طيبة وسماحة ولطف.. لاحظتُ أنه يغدو جميل المحيّا حين يبتسم بعينيّيه، فيضيء وجهه مثل مدينة أثرية تليدة أناروا فيها المصابيح فجأة.. لفتت انتباهي طريقة لفظه لحرف الجيم، يبدو كأنه يبذل جهداً مميزاً عند نطقه، يسحب شفّته السفلى وحنكه للأمام، فيفصح فمه عن صف أسنان ناعمة ولسان صغير.

تابعتُ حركة يديه وكفيه المكنزتين عندما كان يتكلم، معبراً عن كل جملة يقولها بحركات تمثيلية وبموسيقى تصويرية مطابقة للأحداث، وكلّما كان يضحك، تهتز كتفاه في ارتفاع وهبوط واضحين.

نظر نبيل نحوي مبتسماً، ضرب فخذي من جديد بكفه وقال بهمس:

"سيعيدون عليك الأسئلة نفسها عدة مرّات، وما عليك سوى أن تجيب بنفس الأجوبة، أمل أن ننتهي اليوم من ذلك الأمر سريعاً، قضيتك سهلة طالما أنك لم ترتبك ولم تتناقض في إجاباتك، كما قرأتها في المحضر الأولي.. هيا، أعطني أجمل ابتسامة، تنفس واسمح للأمور كلها بالمرور".

وهكذا فعلوا، سألوني أسئلة عديدة مرة ثانية وثالثة، وكانت إجاباتي متشابهة في كل مرّة.

في فترة الاستراحة، أخرج نبيل من حقيبته تفاحة وموزة وضعهما في يدي وخرج.. لم يذهب إلى بيته كي يرتاح، بل انتظر في المطار، ليطمئن على صدور قرار السماح لي بالبقاء في بريطانيا ومتابعة قضيتي لاحقاً.

- كيف أمنت جانب هذا الرجل بتلك السرعة وأنت المكرّس للريبة والخيبة؟ توجّب عليك إذن إظهار امتنانك لما فعله من أجلك، لكنك لم تفعل كعادتك ولم تبتسم مجاملة.. كان يظنّ أنك شخص متماسك وقوي حين ظهرت على ذلك النحو من الثبات والصبر، لم يكن يعلم بأنك متجرد من الإحساس، تبحر في تفاصيل الرجل وتفكر برسمه وأنت في موقف لا يحسدك أحد عليه.

يبتسم نبيل كلما يتذكر ذلك اليوم ويقول، "يا رجل، كيف كنت بكل هذا الهدوء، وكيف احتفظت برباطة جأشك وبرودك كأنك إنجليزي أباً عن جد؟ كم كنت بارعاً!"

* * *

نفث دخان سيجارته عالياً، أطفأ عقبها في قوقعة له معها قصة وجدانية، يحكيها بتلذذ في كل مرّة:

"جلبتها معي من العراق وأسميتها قرياقوس، أتذكر أنني وجدتتها عند كنيسة مار قرياقوس في بطنايا، ولا أدري مصدرها من أين، فلا يوجد بحر هناك.. في البداية أعطيتها إلى أبي، فصار يستخدمها كمنفضة كلما كان يدخن لأنه كان بالغ النظافة، يحرص على أن لا يوسخ الأرض برماد سيجارته، يقترن ذكراه وذكرى والدتي في خاطري برائحة نظافة وترتيب، كان كل شيء فيهما ناصع وشديد اللمعان.. نسرق، أصدقائي وأنا، واحدة من سجائر الوالد ونذهب خلف دارنا لتدخينها، ومنذ سن العاشرة لليوم لم أتوقف عن التدخين، باستثناء يوم الأحد عندما كنا نذهب إلى الكنيسة.. ما زلت لا أصغي لمنطق الطب أو لنداء الأمراض، لأن التدخين متعة صغيرة اعتدت عليها".

ينسى نفسه في معظم الأحيان وهو يتكلم عن قرية بطنايا وكنائسها وأديرتها، مار قرياقوس ودير مار أوراه، يردد التراتيل الدينية بمرح طفولي وبصوت قوي، يسترسل بحكاياه عن قريته وداره هناك:

"تنحدر أرضية فناء دارنا نحو بالوعة في الوسط، تتدفق نحوها مياه صابون الغسيل.. تبدأ والدتي نشاطها منذ مطلع الفجر، تنشر كل الفرش والأغطية على أسيجة الدار وفي السطح، تطلق الدجاج وتنظف قنّه قبل أن تنظف الدار وكل ما فيه، ثم تنهك بالطهي أو تجهيز مؤونة الطعام حسب الموسم، تنشر البرغل فوق سطح الدار، تجفف الخضروات وتخزن كل ما يمكن خزنه للشتاء.. كانت تعطينا، أنا وأختي وأخي الصغير، قطعة خبز وجوز وتطلب منا الذهاب خارجاً للعب، شريطة عدم توسيخ أيدينا وملابسنا.. كنا ننام وقت الظهيرة ونترك باب الدار مفتوحاً على مصراعيه، بعد أن نضع ستارة

من القماش تحجبه عن الشارع، لم تكن هناك أسيجة عالية ولا ستائر حديدية تحول دون التواصل الاجتماعي، ساد الأمان وقتذاك وأضفى على الإنسان راحة بال صافية، كانت الحياة بسيطة لا يكتنفها قلق ولا توتر نفسي".

أراقب فمًا، يبدو كأنه يتلمظ قطعة سكر كلما تحدث عن ماضيه، وعينين محتقتين يتجه طرفاهما نحو الأسفل، أراهما تلمعان بابتسامة مشرقة لدى تذكّره لبلدة مسقط رأسه.. يطلب مني أن أغمض عيني وأتخيل نفسي على تل في بطنانيا، أتنشق رائحة جوز وبلوط منبعثة من أشجار عالية وعامرة بالثمار، أطلّ من هناك على بستان، وأعبئ أنفاسي من رائحة مياه جارية وحطب محروق، وتراب مسّه ماء مطر صيفي للتو.

- ما كنتَ تتفاعل معه، أنّى يكون لك تعلق بمكان أو زمان، وأنت لست كما بقية البشر؟ لا تشعر بالحنين لبيتك القديم ولا إلى أماكن سكنتها فيما بعد، ألا تعتقد أنه أمر سيئ أن تكون رجلاً بلا حنين ولا تعلق؟

أنا مختلف كما يقول نبيل عني، ولا بأس في ذلك.. يواصل حديثه بزهو طفل صغير، فلا يدّخر أي تعبير من تعابير وجهه: "كنا محظوظين حقاً لأننا عشنا في بيئة شبابية خصبة، يافعين متحمسين، لا يقف بطريقنا شيء، وحين غادرنا قريتنا إلى منطقة الدورة في عالم بغداد الرحب، قضينا أياماً رائعة مفعمة بالأصالة والبساطة والنقاء، أتذكر أماكن طيبة عديدة؛ شارع الرشيد العظيم، مكتبة مكنزي، سوق السراي، باب المعظم، كلية الطب والحب الأول.. لا أتذكر اسم قائل هذه الأبيات، (أبغداد لا أهوى سواك مدينة/ ومالي عن أم العراق بديل/ خيالك في فكري وذكراك في فمي/ وحبك وسط القلب

ليس يزول).. لا أعني من وراء ذلك أن حياتنا اليوم غير جميلة وبلا إيجابيات، لكنها مقلقة ومعقدة لمن هم من جيلي، نتيجة انشغال الجميع بالأجهزة أكثر مما ينبغي.. كل ما حولنا أرقام ورموز سرية، التلفزيون والكمبيوتر وحسابات البنك، لو نسيتهما ستضيع.. كنا نعيش أجمل اللحظات دون أن نوثقها، أما اليوم فنوثق أجمل اللحظات دون أن نعيشها.. ليس لدي شك بأن الرقمنة، هي مفتاح العصر نحو التطور الحضاري، وأغلب ما في الثقافة والمعلومات غدا إلكترونياً وبصرياً وإدراكياً بالكامل، لكن كل شيء له نقيض وثن، فلقد نما جيل مدجن ميديوياً وازدهرت مؤسسات إعلامية كبيرة مدعومة، تحكمت بوعينا عن طريق الميديا والمعلوماتية ووسائل التواصل الاجتماعي والذكاء الاصطناعي.. بعد أن نقرض يا وحيد، سيبقى جيل آخر لا يعرف معاني عذبة كانت سائدة في زمننا، مثل الحب الذي كان ينمو وينتفش بالأغاني الرومانسية.. أرجو ألا تفهم من ذلك أنني أشكو وأتذمر، لأن كل ما يجري راهناً هو أمر طبيعي ينبغي علينا تفهمه وتقبله، إنه التطور والتقدم العلمي اللذان صنعا حضارة ومفاهيم مختلفة، وسيأتي يوم، تتغير فيه الحضارة الراهنة إلى شكل آخر أيضاً، لا أحد يعلم كيف، الكل يسعى للارتقاء، منطق التاريخ يعلمنا بذلك".

- النوستالجيا فكرة تتكثف بتقدم العمر، وما تبرح تراودنا للتحايل على الموت والتملص من هاجسه، قد تكون مؤشراً على أن النهاية غدت وشيكة، ومع ذلك، فالحاجة إليها إنسانية وملحة نفسياً.. غالباً ما يلجأ المرء إلى زمن قديم كالطفولة والشباب، يوم كانت فكرة الموت لا تجد مكاناً في باله، فما أن تكف أحلامه عن الاستحواذ على تفكيره ويغدو

مسكوناً بالتذكر والذكريات، اعلم انه قد هرم.. كنت تستمع إلى نبيل ويشرد ذهنك بعد دقائق من حديثه نحو اللاشيء، كان المسكين يتواصل في الحديث، ظناً منه بأنك تحسن الإصغاء، ولا تقاطعه من باب التهذيب، ألم يكن لديك أدنى فضول لمعرفة أي شيء؟

* * *

أفقتُ على صورة مشوشة لضوء شحيح تسرب من نافذة ليست بعيدة.. أين أنا؟ هذا ليس مكان سكني.. أبصرتُ نبيل يجلس مبتسماً عند سريري:
"كيف حالك الآن يا بطل؟"

تذكرتُ عندما جاء بي إلى المستشفى، وقّعت على ورقتين، ورقة التحذير العام، وورقة قبول إجراء صدمة كهربائية، هذا كل ما خطر على بالي حينها.

لم تجد معي نفعاً، كما ذكرت الطبيبة، جلسات اللقاء مع مرشديات ومرشدي الصحة النفسية، ومراجعة المزيد من الأطباء النفسيين المتخصصين، كان نبيل مقتنعاً بأنني أخلو من كل مرض، مردداً بثقة:

"ماذا به؟ لا شيء، هذا هو طبيعه"

كتبوا لي أدوية شائعة لعلاج الكآبة والقلق، لم أكن أتناولها، أحملها في جيبتي ولا أدري لماذا، أما أدوية مضادات الذهان ومثبتات المزاج، فكانت تجد طريقها إلى أنابيب الصرف الصحي، ولكن بعد نقاشات مطوّلة مع الطبيبة، أخذ نبيل بنصيحة الطب، فانتهى الأمر بي إلى المستشفى للخضوع إلى رجّة كهربائية.. شرحوا لي بهدوء طريقة تخديري وإيصال

قطبين كهربائيين إلى صدغي وجبهتي وإلى خلايا الدماغ، يمرّرون عبرها تياراً كهربائياً بسيطاً ومأموناً، لغرض التحفيز وخلق نوبة خفيفة من الصرع.

أحسستُ بعد خروجي من غرفة العمليات، بوجع في الصدغين وعضلات الوجه وكل الجسم تقريباً دام لزمناً.. نسيْتُ بعدها كل الحادثة، لكن نبيل ظلّ يتذكرها طويلاً فتدمع عيناه، لا أريد تكرار تلك التجربة بسبب ذلك، ولأن نبيل ظلّ جالساً جنب سريري في المستشفى، يتحدث بإسهاب.

- كان المسكين يظن أنك بحاجة إلى التسلية ونسيان التجربة، راح يتحدث مطولاً حتى يبعد عنك التفكير بالألم أو الضجر.

"الهروب من الألم يا وحيد ليس هو الحل، بل أن الاعتراف به ومحاولة تجاوزه، تساعد كثيراً على تخفيفه، عليك بالتقبل الذي لا أعني به الاستسلام، بل هو تجاوز ما فات والبدء بإصلاح الذات والتعافي.. كن يا وحيد بقلب الحياة، واختر عيشة متواضعة تجلب لك قدراً من البهجة والمعنى، لأنك أنت من يخلق معنى للحياة، وإن حدث يوماً وخسرت، فلا يكون ذلك مدعاة ليأسك وتوجعك، ثمة ربح وثمة خسارة فيها، حتى الانتصار مسؤولية وعبء ينبغي أن تكون مستعداً لحمله على الدوام.. لتكن على علم بأن حياتنا ما هي إلا تناغم واقعي بين متناقضين جيد وسيء، وحتى ما يبدو لنا سيئاً، يكون مفيداً أحياناً لأنه سيظهر لك جودة الأيام الأقل سوءاً، وفي الوقت نفسه يعطي للأيام الجيدة قيمة.. حريّ بك يا صديقي معرفة الناس ببساطة والنقاط صفة أو صفتين لديهم ترتاح لها وتتعامل معهم بموجبها.. لا تقم بجلد ذاتك كثيراً، تقبلها، أحياناً يكون

الاكتئاب رسالة ينبهنا جسمنا من خلالها، إلى أننا بحاجة إلى التغيير.. لتكون لديك ذائقة مستقلة، تتجاهل بها ما يزعجك، لو أردت لحياتك أن تستمر.....".

- لا ينتبه الرجل إلى ثأوبك، يواصل تحريك فمه ويديه بحماس، وكنت لا تركز على ما يقوله ولا تتفاعل مع حديثه.. أنت أناني لا تسمع إلا ذاتك، كان حرياً بك أن تشكر نبيل الذي يحاول أن يخفف من ألمك ويعطيك الوافر من وقته.. أن تختار شخصاً لتحكي له تفاصيل بسيطة ودروساً تعلمتها في الحياة، فذلك مؤشر على أنه يعني لك الكثير، وما أجمل أن تجد شخصاً تحكي له كل أفكارك دونما تجميل، ذلك يمنحك القدرة لكي تحب نفسك بكل نواقصها!

"بعض منا يا وحيد يمرّ بالأيام، وآخرون يجعلون الأيام تمر بهم.. ما زلنا نعيش حياة مقبولة، رغم الأوقات العصبية التي مررنا بها.. أنا مثلاً، عشت مضطهداً، بسبب دلال أخي الصغير وتفضيل والدي له، حتى صارت لديه عادة الاستحواذ على كل شيء لنفسه، أتذكر في يوم من الأيام اني اشتريت دراجة هوائية، بمال حصلت عليه من عملي في العطلة الصيفية عند خباز مدينتنا، لكن أخي الصغير المدلل، أصرّ أن يركبها، ترجتني أمي لألبي له رغبته ففعلت، وما أن ركبها حتى اصطدم بها وسقط على الأرض، لم يصب هو بأذى غير أن الدراجة لم تعد صالحة للركوب، حزنْتُ وقتها، لكن ذلك الحزن دفعني إلى أن أشتغل أكثر وأشتري دراجة أخرى، ثم دراجة نارية ومن بعدها سيارة حين كبرت.. هذا أخي نفسه الذي استولى اليوم على بيتنا في العراق، واضطررنا، أختي وأنا، إلى التنازل عنه رغم انه لم يكن بحاجة إلى المال، لأنني كنت أبعث لهما مبلغاً معيناً طوال فترة الحصار وما بعده.. ثمة ناس

فقراء لا يملكون سوى المال، لكنني كنت مؤمناً أشد الإيمان بأنه ليس مهماً أن يملك المرء أشياء كثيرة، بل أن يعرف قيمتها وكيفية استخدامها لخلق سعادته، صدّقني، سعادة صغيرة بسيطة تكفي، كأن نفرح لتفتح زهرة نرجس في مطلع ربيع.

أنت يا وحيد تستحق الحياة، شريطة ألا تخلق بين الواقع والتوقع هوة واسعة، وألا تحلل أي شيء طويلاً، أظن أن أسوأ أنواع الابتلاء والشقاء، هو التفكير المفرط والعميق وإدمان التفاصيل، ستشقى بذلك، في حين أن السعادة هي أن تجلس مرتاح البال معتدل المزاج، راضياً ومستمتعاً بحياتك، لست ملزماً أن تصلح أموراً راسخة، انجز لنفسك الطمأنينة والسعادة واسع من أجل إسعاد الآخرين الطيبين.. غير نفسك وتمرد على سؤئك، التفت بصورة خاطفة وبخفة نحو الماضي، لدينا ما يكفي من الماضي وما أكثره، ما علينا سوى الإمساك باللحظة، فإن العمر ما هو سوى لحظات، وبعض اللحظات هي عمر.. لا تنتظر إلى ما أخذ منك وما فقدته وما هو ليس لديك، انظر إلى ما لديك الآن، ولا بد أن تتجاوز الندم على معرفة أشخاص ألحقوا بك الأذى لتستمر حياتك، نحن بأمس الحاجة إلى مزيد من الحب اليوم".

- تومى برأسك له دلالة على الموافقة والاهتمام، في الوقت الذي كنت تتمنى أن تكون لوحدك ولا تسمع من كائن من كان أي صوت، لكن نبيل يكمل كلامه كعادته وأنت تصمت كعادتك.. كان يريد أن يعالجك نفسياً بالكلام حتى تدرك حالتك البائسة، رغم أنه يطنب في الحديث وينسى في بعض الأحيان، فيكرر كلاماً ذكره سابقاً.

"جد البهجة في حياتك يا وحيد، دع الحياة تجري بسهولة، لا

تزعجها وتزعج نفسك بقلق وتعقيدات، كل ما يتطلبه الأمر هو صفاء الذهن.. لا تكن تابعاً لمشاعرك بل كن أنت من تقودها في المقدمة.. عش وكأن الأخبار كلها سارة، أو ستكون هكذا، ليكن حزنك خفيف الوقع والوزن، ولقد قالوا بأن النسيان هو تدريب الخيال وإخضاعه لاحترام الواقع، لأن فترة وجودنا على هذه الأرض محدودة، والسؤال هو، ما نحن فاعلون بها؟ علينا ألا نفكر كيف سيذكرنا الناس عندما نرحل، لا يهمنا بعد الفناء شيء، سيكتبون على قبرك سنوات حياتك، يختصرونها بجملة، عاش من كذا سنة إلى كذا سنة، ولا يدركون أن الكثير حدث ما بين هذين التاريخين.. استمتع باليوم واللحظة، لأنه ما أن يتقدم بك العمر، حتى تتفادى الانعطافات الحادة في حياتك كتغيير مكان أو دائرة علاقات وتصبح عليك معظم الأمور، هيا قرر أن ترعى الابتهاج بداخلك، فاستدامة القهر والغم تقصر عمرنا الفيزيولوجي، حافظ على روعك لتحافظ على روعتك".

- كنت تغفو أحياناً بمنصف حديثه.. لكن كيف لك أن تتذكر وتكتسب كل تلك الحكم؟ لم يسعفك تفكيرك على الاستيعاب رغم علمك أن ما يقوله كان كلاماً سليماً، وبدا لك كأنه طلع توأ من كتاب المواعظ والأصول والحكم، أعرفك لا تحب المواعظ والوعظين لاعتقادك بأنه ليس من حق كبار السن منحنا منتجاً جاهزاً للحكمة، وإنما كلما نقع في أزمة، نصبح حكماء، ثم سرعان ما ننسى كل ذلك عندما نفرغ من متاعبنا.. هل نبهت نبيل، إلى أنه صار مكثراً في النصائح وكثير الكلام، وأنه يصلح كمحدث تحفيزي أو أستاذ تنمية بشرية؟ ولكن في الحقيقة، يصلح نبيل أيضاً ليكون مقياساً

للنقاء والطيبة، فمثلاً يقولون، خمسة بالمئة (نبيل)، أو معدل من واحد إلى عشرة (نبيل).

* * *

صارت حركته بطيئة، انخفضت بهجته وقلّ كلامه، ما خطبه هذه الأيام؟ انطفاً بريق الحماس في عينيه، واختفت الدهشة والانفعال الطفوليّان في ملامحه.. كنت أعجب من نمط حياة يعيشها بامتلاء، يجد فيها ما يدهشه ويتحمس له دائماً، هل مات ذلك الطفل في داخله؟ تغير فجأة وبدا حزنه، على شكل نوتات موسيقية موجعة للحن عراقي حزين، لم يكن هكذا في السنوات الأولى التي عرفته فيها، يؤجّ كالشلال من الفرح، حين يعمل إبريقاً من الشاي، أما حاله حين يطبخ أكلة من المطبخ العراقي ويدخّن سيجارة مع كأس من النبيذ في آن واحد، فلا تعادله عبارات مناسبة للبهجة.

جلب قدح الشاي من المطبخ إلى الصالة بيد مرتجفة ونظر نحوي مبتسماً، أخبرني بأنه يمكن أن يجيب برحابة صدر عن سؤال معيّن يطرحه عليه الكثيرون، انتظر مراراً أن يسمعه مني يوماً، والذي يتعلق بسبب تركه للطب كمهنة واشتغاله كمبرمج لفترة من حياته.. لبس وجهه حالة من الجذ بعد أن أخذ رشفة من شايبه المُنكّه بحبّات الهال، وقال:

"كنتُ أحب دائماً قول (إنّ أسعدَ الناس هو من أسعدَ الناس)، وكما تعرف أن أهلنا الطيبين، وبالذات من طالبي اللجوء، يحتاجون إلى مدّ يد العون على الدوام، وبما إنني قادر على تقديمها لهم، فلا غرابة في ذلك.. هذا هو سبب ممارستي

للترجمة، بعد تقاعدي عن عملي في المستشفى وحتى قبل ذلك،
فهؤلاء بحاجة ماسة لنا".

أشعل سيجارة وأخذ نفساً عميقاً، أخرج من حقيبته منفضة
السجائر القوقعة، ووضعها على الطاولة أمامه، طلعت كلماته
باسمة من شفتيه مع دخان نفثه:

"هل تعرف يا وحيد؟ انتشلت قرياقوس يوم أمس من القمامة
حيث رمته دورا، حين اكتشفت اني كنت أدخن خلسة في
المطبخ، بينما كنت أظن أنها نائمة، بداهة هي لا تسمح لي
بالتدخين حفاظاً على صحتي، كما أنها تكره رائحة الدخان..
أرجو ألا تنزعج أنت أيضاً من رائحته".

رفعتُ كتفي قليلاً، إشارة إلى عدم الاهتمام، بينما راح
يحدثني عن زوجته:

"يقترن اسمها في بالي بمنطقة الدورة في بغداد.. قضيتُ
هناك أحلى سنوات شبابي، حتى خرجت منها في أواخر
الستينات قادماً إلى لندن من أجل دراسة الطب، قابلتُ دورا في
جامعة مدينة ليدز، يوم كانت موضحة الشعر خفافس، والزلوف
والسراويل واسعة، وياقة القميص طويلة مدببة.. بدت لي
حزينة يومذاك لأن خطيبها هجرها، واسيتها بصدق فراحت
تبكي على كتفي.. علمتُ أن في بطنها جنيناً منه، ولو علموا
أهلها، لكانوا أرسلوها إلى الدير، لأنهم من الكاثوليك
المتشددين، قررت أن أتزوجها حتى بعد أن أجهضتُ طفلها،
ولم يمنحني الحظ فرصة أخرى لتمتد جيناتني من بعدي عبر
ذرية صالحة أو طالحة.. قد تكون الغربة صعبة والأمور سيئة
ولا يكون ثمة شيء بحوزتك، لكن يكفيك أن تحوز على قلب

طبيب يحبك ويجلب لك البهجة.. وقتها، كان معظم الإنجليز تقليديين في المدن البعيدة عن العاصمة، لو تخالف قواعدهم يندهشون ويستنكرون، يتعجبون مثلاً لو تسكب في قذح الشاي الحليب البارد قبل الماء الحار، لكن لندن كانت قصة أخرى بتنوعها العرقي وبحاناتها وشوارعها الضيقة، يغمرني فرح عارم حينما كنت أزورها آتياً من مدينة ليدز، لما أراه من اختلاف وحية فيها.. كان إيقاع الزمن الماضي وتفاصيل الحياة اليومية، هادئاً وديعاً في كل شيء، الجلوس في الحانات، السفرات إلى الريف، زيارة المعالم الحضارية، مسارح الـ(ويست ايند)، والاستمتاع بالأغاني.. طالما استمعنا إلى مطربين، مثل فرانك سيناثرا، بوب ديلن، فرقة البيتلز، وخاصة أغنية "تخيّل" لجون لينون، ما أروعها! (تخيّل أن كل الناس يعيشون بسلام..).. كانت دورا من أشد المعجبين بها، يا لطيفة هذه المرأة!"

- اكتفيت بتقطيب حاجبيك والبقاء على تخوم الحديث، اخترت عدم التفاعل معه، لم تستسغ كلامه عن طيبة دورا ولم تجرؤ على القول بأنها لا تبدو طيبة كما يتصور، كنت كلما تذهب إلى بيته لتعيّنه إثر مرضه، تراها لا تبالي بحاله ولا تعني به.. وكالعادة لم تفصح عما يدور بخاطرك بدافع محبتك له كما تبرر، كفى خرساً انطق وعبر عما يجول بخاطرك من كلام.. كنت تصمت وتجعله يواصل حديثاً يريحه:

"كم تمنيت أمراً ربما ستندهش لو أخبرتك به.. رجوت أن تكون حياتي قصيرة في الوقت الذي أكون فيه مستمتعاً بكل مباحج الحياة.. طول العمر ليس له طعم، وعلى وجه

الخصوص الشطر الأخير منه، فهو ممل وكئيب، تعتوره أمراض وعلل وحرمانات وتفوح منه رائحة أدوية.. لكن هل يمكنك أن توازن بين ما تنهل من متع الحياة وبين التمكن من العيش طويلاً؟ أنا لا أستطيع، على العكس من دورا تماماً التي مازالت تفضل العيش طويلاً، باتباع حياة صارمة والاستمتاع بأشياء محدودة فقط.. معظم الناس لا يرون الأشياء الصغيرة اللذيذة أمامهم مع ذلك يتمنون العيش طويلاً.. الحياة لا رضا فيها، تلك هي الواقعية، حياتنا بنظري عادية لا تتطلب أكثر من إدراكنا العادي".

- هذه المرة ربما أتفق مع دورا.. قضى نبيل عمره يساعد الآخرين ويحتويهم، بعد أن أهمل نفسه وصحته، ماذا جنى غير رضاه عن نفسه؟ لم يتغير شيء، لا الواقع ولا ما في نفوسهم، وحتى زوجته، لم تسع لأن تتغير من أجله.. أمر طبيعي ألا تفهم دورا ما لمنطقة الدورة في قلب نبيل من معزة، أو من أي أمر آخر يخص العراق وأهله، وأن لا تتفق معه في أن السعادة تتحقق بإسعاد الناس، لأنها تؤمن أن أسعد الناس هو من أسعد نفسه ومن قال نفسي أولاً.. ارتبط نبيل بها، وصار رباطه وثاق شرف وكرم أخلاق، حتى بعد أن غدا تواصلهما محض ملصقات ورقية، تكتب فيها ما تريد إخباره به دونما كلام، ويكتب هو لها الجواب، وكأجواء بريطانيا الباردة، دخلت العلاقة بينهما في قالب من الجليد، تسافر مع صديقاتها وتتركه لوحده، مع علمها انه بحاجة إلى رعايتها.

نبيل ودورا كانا غير متكاملين مع بعضهما، ليس سفرها

هو سبب الاختلاف الوحيد بينهما، بل عدم انسجامها مع ثقافته وتفكيره، وثمة أمور أخرى عرفتھا حينما كنت أذهب إلى بيته وأرعاہ، كانت لا ترتاح لوجودي ولا تهتم بنبييل الذي أفنى شبابه في إسعادھا.

* * *

دق دقّته المألوفة على إيقاع نغم جورجينا، أدار المفتاح في ثقب الباب وفتحها، سبقته رائحة عطر أراميس الذي حرص على استخدامه منذ شبابه، ظل يمسح حذاءه بممسحة الأرجل طويلاً، وكان برفقة صبي البقال العراقي الذي ودّع نبيل وسلّم عليّ، أشّر هذا بيده نحو نبيل، هامساً وغامزاً لي قبل أن يغادر مسرعاً، كأنه كان يريد أن يذكرني بواجبي، وينبّهني إلى ضرورة الاهتمام بالدكتور وعدم تركه هائماً لوحده في الشوارع.. سبق لنبييل أن تاه وأضاع هاتفه في لجة الزحمة وفي غمرة نسيانه.

استقبلته وأخذتُ منه عربة التسوق، انتبهت إلى لهائه وتعبه، رغم سلامه الذي أجهد نفسه ليكون مرحاً، دخل مبتسماً بتناقل وبدا حين تكلم بصوت خافت النبرات، كأنه برم الشفتين، ضائع، ليس كما اعتدت على سماعه:

"السر في هذه الطبخة الخرافية، هو الكثير من ضلوع لحم الغنم، الكثير من الطماطم مع الكثير من الثوم.. اليوم ستذوق أطيب بامية عراقية مع رز بسمتي ماركة تيلدا."

هذه ليست المرة الأولى التي لا يعرف فيها نبيل طريقه إلى شقته، فيأتي به صبي البقالية الذي اعتاد أن يتبضع منها ويوصله إلى الشقة مقابل إكرامية سخية.

في الأسبوع الماضي، حدث أمر غريب حينما رغب في طبخة مقلوقة باذنجان، قضينا نهراً كاملاً في إعدادها وأخذت من وقتنا وجهنا الكثير، أخبرني بعد تناول الطعام انه بحاجة إلى قيلوللة ودخل إلى غرفته، لكنه استيقظ بعد فترة قصيرة وخرج مرتدياً معطفاً فوق بيجامته.. فاجأني بالقول:

"أبحث عن زجاجة النبيذ التي اشتريتها يوم أمس، أين هي؟ سأشرب كأساً ثم أخرج لأزور دكتور رشيد، لم أره منذ زمن".

- يا للغرابة! ما الذي حلّ به؟ هل حقاً لا يتذكر أن دكتور رشيد كان قد توفي منذ خمس سنوات، وكيف حزن عليه كثيراً يومها، نظراً لما بينهما من صداقة متينة؟ ماذا جرى لذاكرته، لماذا صار ينسى كثيراً، وهل ستتكرر هذه الحالة؟ ظل يتأمل وجهي الصامت بغرابة مقطّباً حاجبيه:

"من أنت، هل أعرفك أنا، ماذا تفعل هنا؟"

- لا بد ان ذلك كان وهماً، كنتَ تظن انه يحلم، وبعد لحظات سيستجمع وعيه ويتذكر كل شيء فيضحك قائلاً، إنه كان يمزح معك.. لماذا صمت ولم تجب على أسئلته؟ أنت تائه وبلا ذاكرة أكثر منه.

"حذّرتك ألا تترك باب الثلاجة مفتوحاً وأن تغلق صنبور المياه جيداً وتحكم إغلاق علبة القهوة، ولكنك لا تصغي إليّ.. هل بقي من رز الباقلاء الذي طبخته اليوم شيئاً؟ أنا جائع، لم أتناول شيئاً منذ الصباح، هل أتيت عليه كله؟ دوراً، دوراً، أوصلي هذا الغريب إلى الباب، ولا تفتحي له مرة ثانية".

مشيئاً وراءه، عندما توجه صوب الباب الخارجي بخطى ثقيلة، لكي يخرج، صرخ عليّ عندما حاولت الاقتراب منه

ولمسه، وحرّك أصبعه بهزة تحذيرية إلى الأمام والخلف.. صار يغضب بسرعة ويرتفع صوته عليّ أحياناً، أخبرته بهدوء بأنه يمكن تأجيل زيارة صديقه إلى وقت آخر، غير انه صمت ووقف برهة في مكانه، ثم عاد إلى غرفته صافقاً بابها خلفه بقوة.

تبين لناظريّ اليوم، تهدل شفته السفلى واعوجاج بارز في الجانب الأيسر من فمه، مما جعل كلامه متراخياً وبطيئاً.. قلّ مشيه وتناقلت خطواته هذه الأيام، بينما كان يمشي ساعة في الصباح وأخرى في المساء، معتبراً تلك الرياضة روتيناً يومياً، واضب على ممارسته طويلاً وفي كل الظروف الجوية، أسرته تلك الممارسة مع عادات أخرى، مثل قميص خشن يصعب عليه نزعه، لكنه سرعان ما تخلّى عنها وخفتت حيويته، حتى بدا وكأنه فقد حماسه لكل شيء.. صار ينسي حلق ذقنه مثلما يفعل كل يوم، بهتت ضحكته العالية ولم تعد كتفاه تهتزان ارتفاعاً وهبوطاً.. لاحظتُ أيضاً انه صار لا يلتزم بمواعيده، في حين كان دقيقاً مثل ساعة سويسرية.. عرفته مهووساً بالحياة حد اللعنة، وها هو اليوم يتيه عن شقته وينسى ما أكله.

دخلَ هذا الصباح إلى غرفته وخلع بدلته، علّقها مع القميص بعناية، قبل أن يرتدى بيجامته ويأتي إلى الصالة.. شغلّت له التلفزيون على برنامج وثائقي حول تصنيع الطائرات، غير انه لم يندesh ويندمج معه كما كان يفعل سابقاً، أخبرني يوماً بأنه لو لم يدرس الطب لتمنى أن يصبح طياراً.. أغلق الجهار ولحقني إلى المطبخ، جلس في ركن منه وصار يعطيني إرشادات حول طريقة غسل الخضار، دون أن يساعدني في عملية الطبخ التي تسره كما تعود.

- لو أخذته للتنزه خارج الشقة، أو إلى متحف القوة الجوية الذي يهوى، لكان يُسعد ويستعيد شغفه، لكنك أجَلت التفكير بذلك كعادتك، كنت تتضايق عندما تسيران معاً ويتوقف هو فجأة في منتصف الطريق، بغرض جلب الاهتمام إلى أمر يتصوره هاماً في حديثه، مما يضطرك إلى التوقف على بعد خطوات أمامه والالتفات نحوه.. أنت أناني وضعيف وجبان، خفت أن تسأله عن سبب شحوب وجهه وتغير شكل فمه اليوم.

أفرغتُ محتويات ما جالبه على حوض الغسيل في المطبخ، بينما نهض نبيل ليغسل يديه، وقرر فجأة أن يساهم معي في إعداد الطعام، اتجه نحو خزانة المطبخ، أخرج قدرًا كبيراً ووضع فيه اللحم ليطبخه، طلب مني غسل الطماطم وعصرها، أخذ البامية وجلس في الصالة لتقطيعها بيده المرتعشة، أخبرته عن عطل آلة طحن الحبوب، ظننته سيشمر عن ساعديه ويقوم بإصلاحها كالسابق، قائلاً، "انظر ما أبسط ذلك، ها قد أصلحتها لك"، لكنه أخبرني بأن أذكره لاحقاً ليشتري واحدة أخرى جديدة.

بينما انتظرنا أن ينضج اللحم، طبخ نبيل الرز، كنت أراقب ارتعاش يديه التي يحاول جاهداً أن يسيطر عليه ويجعله طبيعياً، تحدثت بصوت مرتجف:

"ما أحوالنا في هذا الزمن إلى العدالة البطينية، صراعنا كله بسبب بطن منتفخة وأخرى فارغة، لقد أدركتُ اليوم يا وحيد، أن تعاطفنا مع الفقراء لا يحسن أوضاعهم، لا جدوى من الحلول الخيرية والإصلاحية، وللأسف، إن الوضع المعاشي للطبقات الدنيا يزداد سوءاً، في الوقت الذي يزداد ثراء الأغنياء

المتنعمين.. توزيع الثروات غير العادل، هو السبب الأزلي في انعدام العدالة الاجتماعية والتفاوت الطبقي.. لكن هل يمكن أن تتساوى الطبقات يوماً ما؟ برأيي كلا، يبقى الغني غنياً، يجتهد ويرث ويرتقي، يسعى بكل ما يستطيع لإبقاء الفقراء على هذا النحو لأنه بحاجة لهم، لذلك علينا تمكين البسطاء من النهوض فكرياً واقتصادياً واجتماعياً، للحد من جشع النظام الرأسمالي القاسي الذي تُكثّر فيه المنافسة أنيابها، وتسود الفردانية ونسبة الأرباح على العدالة والمساواة فيه.. إنس ما أقوله لك الآن وشغل لنا أغنيتي المفضلة.. تذكر دائماً أن تعالج سواد النفس بالموسيقى، وإنّ أجمل الأشياء هي تلك التي يراها قلبك وتستعذبها أذنك".

امتلاً جو الشقة بلحن أغنية (يا نبعة الريحان) البطيء، لفرقة الإنشاد العراقية القديمة، راح نبيل يندندن بوهن مع اللحن معلّقاً:
"طالما تهزّك أغنية من الأعماق، فحياتك تكون صعبة لكنها جميلة، بل رائعة"

غالباً ما كان الكلام يندفع من فمه متدفقاً، إلى الحد الذي يبدو فيه مثل طفل صغير، كلما يتفاعل مع موضوع يخصّ لعبه وألعابه، لكنه اليوم ينسى أشياء ويتذكر أخرى، وأحياناً يتوقف عن الحديث ويشرد.

فرشنا المائدة وجلبثُ الصحن بنفسي بعدما فشل نبيل في تلك المهمة، أدركتُ أنه لن يتمكن بعد اليوم من السيطرة على يديه أو سحب قدميه لمسافات طويلة، وضعتُ وسادة خلف ظهره رغم اعتراضه وجلسنا نأكل.. شمّر عن ذراعية، طوى أكمام قميص بيجامته وراح يأكل بطريقته الخاصة، كان لا يحب مزج الطعام في البداية، يتذوق ملعقة من الرز لوحده ثم

يتناول بعدها ملعقة من طبخة البامية، راح يهزّ رأسه طرباً مستمتعاً بالطعام وبأغنية (يا نبعة الريحان).. حين تراه يأكل، ستدرك ما يولّده الإحساس اللذيذ بالطعام من مباهج، ترى أساريه تنفرج على نحو واسع وكأنه يلتهم كل ما في الحياة من مسرات.

- وكنت أنت تأكل بدون تفكير وبلا إحساس بطعم ولا بنكهة، كأنك في مهمة ثقيلة، وأن الأكل كان عندك كالواجب، همك الوحيد هو أن تحشو معدتك لا غير.

حين انتهينا من الطعام، حملتُ الصحن الفارغة إلى المطبخ.. وصلتُ إلى أنفي رائحة دخان سجائر، فعرفت أنّ نبيل شرع بتدخين سيجارة، أسرعتُ نحوه ناظراً إليه وإلى منفضة قرياقوس وما فيها من رماد، باستغراب وعتب.

- لا تتكلم بعينك فقط، حدّره بلسانك من مغبة التدخين حفاظاً على صحته، لا تأخذك العاطفة وتقول، سادعه لنشوته ولا أحرمه منها، خذها وارمها في سلة المهملات، انك تقتله هكذا بتساهلك.

كدتُ على وشك قول ذلك، لكنه لاحظ نيّتي وسبقني قائلاً:

"اليوم بامية وسيجارة وغداً سكون وحجارة، سأكون مرتاحاً لو كان تدخين سيجارة واحدة هو آخر ما أفعله في حياتي.. تعرف يا وحيد ماذا أتمنى ساعة موتي؟ سأخبرك.. لو يكون بمقدوري فعل ثلاثة أشياء، سأغض عيني بعدها وأرحل مرتاحاً عن هذه الدنيا، بداية، أن أفعل شيئاً ما تعمّ فائدته على شخص أعزّه لكي أسعده بعد موتي، ثانياً، أن أكل وأشرب ما هو ممنوع عني وأدخن سيجارة، وأخيراً أن أستمع إلى أغنية يا نبعة الريحان وأنا أغيب للأبد".

"يا نبعة الريحان، حنّي على الولهان، حنّي على الولهان..
جسمي نحل والروح ذابت وعظمي بان، ذابت وعظمي بان".
أغنية تغلغت في ثنايا النفس والمكان والزمن.

- يعيش نبيل مع جثث الأغاني القديمة والحزينة، كيف
يطرب عليها وهي بهذا الكمّ من الحزن؟ يبدو أن لكما وجهتي
نظر مختلفتين في تعاملكما مع الحياة الماضية، هو لا يخشى
من التمرغ بالذكريات والتلذذ بحكاياتها، وأنت تريد الهروب
منها قدر الإمكان، ورغم زعمك أن التفكير بالماضي أمر لا
يهمك، فانه لا يبرح تكوينك وعصارة خلاياك، بدليل أنك تكتب
عنه.

استحوذت على بالي فكرة الموت، التي سبق أن لخصها نبيل
بقوله:

"الحياة ستمضي مهما حدث يا وحيد، سينتهي هذا العالم
ونغادره كلنا مثل مركب قديم على وشك أن يتحلل في مياه
البحر، لا شيء يبقى بما في ذلك مشاكلنا.. الخوف من الموت
هو الذي صنع فكرة الأديان، فأضحت الحياة بعد الموت مطلباً
نفسياً بهدف رفض فكرة الفناء، يحضرني قول شكسبير في
إحدى مسرحياته: (في داخلي توق إلى الخلود، غير أن طوق
الفناء حول رقبتني).. قل لي أنت، لماذا نخشى الموت؟ هل
نخاف من فكرة العدم والزوال في آخر المطاف، كيف سنعرف
ما سيجري لنا بعد فنائنا وزوالنا؟ هل تعرف يا وحيد، إنني
كلما أمرّ بالقرب من دار صديق متوف، ساعتها فقط أتذكر بأنه
تنتظرنا جميعاً نهاية حتمية.. ما حياتنا إلا خطى عابرة من
العدم إلى العدم وما علينا إلا أن نحسن سيرها، وأن نستمتع
بوقتها ووقتها ونبقى مشتغلين في تلك الومضة.. ليأت ذلك

اليوم، أنا لا أخشاه، كنت أريد فقط أن أبقى متوهجاً دائماً قبل الانطفاء، وإذا كنت أنتشبت بالحياة وأبعد عني فكرة الموت، فسبب ذلك يعود إلى أن ثمة أناساً طيبين كانوا يتكئون عليّ، لكن لا حيلة لي اليوم، رعاش، جلطات، سرطان، عجز قلب وفقدان ذاكرة، ومع ذلك، ما زلت أتعلم من الحياة، ولو مُنحت فرصة أخرى للعيش، سأعيش الحياة السابقة نفسها، عمري ما ندمت على شيء".

تقدمت ناحيته لأمسح الطاولة، لاحظت وجود وصفة طبية والى جانبها علبة دواء، فرعنتُ لَمَّا عرفت بأنها فارغة، أدركتُ ما يتوجب عليّ القيام به، وما كدتُ أفعل ذلك، حتى وضع نبيل يده فجأة على يدي الممدودة نحو الوصفة الطبية، بآخر قوة واهنة يملكها، نظرتُ إلى عينيهِ ساعتها، أرعبني ما فيها من مشاعر عنيفة متباينة؛ ألم وتعَب، يأس ودموع، ارتجاف وتوسل، وأقوى من ذلك إصرار على قرار.. ظل ممسكاً بيدي الممتدة ومتشبثاً بها للحظات، ثبّت عينيهِ في عيني، نفذتُ نظراته، بل كل ما في داخله من أفكار، إلى عقلي.. بقينا هكذا لفترة دون أن نتكلم، سحبْتُ يدي من يده على مهل وتركتُ كل شيء على حاله كما يشاء.. لم أر نبيل بهذا الوضع من قبل، لم يسبق له أن اشتكى من حالة مرضية عسيرة، لأنه كان يمتلك طاقة مدهشة على الأمل، بدا وكأنه كان يقول اليوم برجاء، اترك الطبيعة تأخذ مجراها دون تدخل علاجي، لم أعد الرجل الجامح الذي كنته، أخشى ما أخشاه هو العجز لرجل بعمرى، ينشف ويجف مثل ثمرة تين.

صار منذ مدة، يأتي إليّ أو أذهب إلى بيته كلما يأخذ العلاج الكيميائي لسرطان الغدد اللمفاوية، لأنّ زوجته دورا ضاقت ذرعاً به ولم تحتمل أن تكون له ممرضة وترعاه في هذا

العمر، وغير ذلك، فهي كانت كثيرة الأسفار، قلما تمكث في البيت لفترة طويلة.

ذهبت إلى المطبخ لأجلب له كأساً من الماء، جاء صوته واهناً، مردداً مقطعاً من الأغنية:

"دائي صعب ودواي، ما يعرفه إنسان، ما يعرفه إنسان.."

ارتعشت يده بصورة واضحة عندما ناولته الكأس وانسكب الماء على ملابسه، أرجع كتفه إلى ظهر الأريكة مسترخياً متحسراً، خمنت أنه يريد أن يأخذ قيلولته المعتادة، مفضلاً البقاء لوحده، مختلياً مع نفسه ومستمتعاً بالأغنية.

رحت إلى المطبخ لأغسل الأطباق وأنا في حالة صراع وتشوش.

- كنت تعرف جيداً أن على نبيل أخذ دواء القلب وإلا سيموت، كان عليك الإسراع إلى أقرب صيدلية وجلبه، لا يكفي أن تحترم رغبته عندما ضغط على يدك وتضرع بعينه ألا تفعل، لكنك انشغلت بالتنظيف وتركته يواجه مصيره.. ستقتل نبيل الذي تحب يا وحيد، مثلما قتلتي وقتلت أمك وأباك وصديقك عامر.

ظلت أغنيته المفضلة تتكرر وتطغى على سكون الشقة، لم أعد أشم رائحة دخان سيجارته الذي أخاله انسحب من الهواء ورجع إليها.. أخذت وقتاً كافياً في تنشيف الصحون وترتيب المطبخ لكي أرضيه، لأنه يحب أن يكون كل شيء كامل النظافة والترتيب بعد الفروغ من الطعام مباشرة، تأكدت من إغلاق باب الثلاجة ثانية، ووقفت أتأمل كل ما في المطبخ.. خشيئت من الذهاب إلى الصالة قبل التأكد من أن كل شيء على

ما يرام، أو ربما كانت خشيتي من أمر آخر، أحاول إبعاده عن ذهني.. لم أعد أسمع صوت نبيل الواهن يتمتم مع الأغنية، جلستُ على أرض المطبخ، لا أعرف ما أنا فاعل.

- ما كان عليك أن تصمت وتتجاهله أبداً.. لو كنت تكلمت معه وبيّنت له خطأه، لو كنت عتبت عليه بقول صريح وواضح، لو كنت واجهته ولمّته، لما حدث الذي حدث ولما فات الأوان.

* * *

أوراق أخيرة متفرقة

يذرع مظلوم الغرفة جيئة وذهاباً، يبدو حائراً، يجلس محرّكاً قدمه بعصبية ويغمغم لائماً:

- الصيدلية بضعة أمتار من الشقة أيها الأحمق، هناك عند ناصية الشارع، لماذا لم تذهب إليها أيها المجرم؟ بلغت عفونة داخلك إلى الحد الذي لم تهرع فيه وتجلب الدواء إلى نبيل، بقيت تتفلسف منتظراً أن تحدث معجزة، فضّلت أن تكون حاضراً غائباً.. من هو مثلك، لا يفتأ يعيش في الزمان والمكان ولكنه لا ينتمي إلى كليهما.. إن لم تستطع تشكيل حياتك كما ينبغي، فعلى الأقل حاول ألا تبذلها - قالها كافافيس قبلي.

لا أخشى الأماكن الداكنة، فالوحش قائم في أعماقي مثل لون غرابي الأسود ورحم رضية التقيّة عندما كنت في بطنها.. ما أطول عزفي لسيمفونية الوحدة!.. ماذا لو كان لنا عمر محدّد أو رقم محفور على ذراعنا ينبئنا بموعد موتنا؟ يا وحيد يا ابن

رضيَّة، أنت ستموت بتاريخ كذا فأعرف أنا ذلك، ومتى ما تحلَّ نهايتي، لا أتفاجأ.. أو أن تتحدد سنوات البشر كلهم بعمر معين، كأن يموت الجميع بعمر 75، فلا يظل هذا الهاجس الغامض المجهول يلاحقنا بظله الثقيل.. المفجع في الموت هو انه لا يكون منصفاً، يأتي بعد أن ننضج ونكتسب التجارب، أملين أن نتحسن حياتنا، فيباغتتنا دون أن نتهيأ له.. لماذا نحلّ فترة في الحياة وننتهي بعدها، وما جدوى أن يمضي كل ما تعلمناه واكتسبناه في وقت النضج، بما إننا لن نستخدمه اذا كنا سنرحل؟

- أسئلة وجودية عتيقة، كثيراً ما يسألها بنو البشر.. لكنك من غير المعقول أن تعتبر نفسك حياً، ما هي تجاربك وخبراتك العظيمة التي اكتسبتها، وأنت تعيش في سجن جسدك، لم تتغير ولم تزد إلا عمراً؟ غالباً ما يجد الناس طريقة للمضي، مثل موهبة وهبتها الطبيعة لهم، شغفاً أو هدفاً ما، لكي يعيشوا، أما أنت فلا تمتلك أي شيء.. ثمة أمور كان عليك فعلها منذ زمن، فهي ما أن تأخرت، فسوف لن تحقق متعة ولا فائدة بعد فوات الفرصة.. ليس لديك أسس عقلانية لما حسبته صواباً أو خطأ، لم تكن حزيناً أو فرحاً ونسيت كيف تعيش ولماذا، أنت لا تعيش يومك وتصرّ على دخول أيامك من نفس أبوابها، حياتك بلهاء، تعربشت عليها أيام بائسة مثل نبات حلفاء يابسة، تخنقك بأغصانها الجافة وأشواكها المدببة، تبقى منتظراً أن تعيشها لكي تموت.

هل نستطيع أن نعيش دون أن نحزن ونتذكر ما هو مؤلم، وكيف يمكن للذكريات أن تتلاشى ليغدو الرأس أجوف تماماً من كل شيء، هل أجد الجواب عند غراب واقف على رأسي وعلى شجرة التوت العجوز، أم في دموع أمي وحزام أبي

الجلدي؟ سوف لن يؤلمني رحيلك أيها العمر الأحمق، كل ما أحتاحه هو السكينة وبدون أن أرى كوابيس الليل.. هل أكملت ولادتي يا أمي أم ما زلت، وهل تدركين معنى أن يموت ابنك قبل أن يعيش؟

- تبكي أمك وترفع كفيها ووجهها نحو السماء، داعية لك: "يا إلهي وأنت جاهي، ليغلب جانب الخير على الشر في نفس وحيد ابن رضية، إلهي وأنت جاهي، دع قنديل الخير يضيء له دروب الصواب".. رغم أنك حنثت بوعدك لها ولنفسك في أن تجعلها سعيدة.

تزورني أمي كل يوم في مناماتي، أراها باكية ودموعها ملونة، تارة زرقاء وتارة أخرى خضراء، تصلي وتتمتم بالدعاء.. لا تتعبني نفسك يا أمي، لا جدوى من الدعاء، كم أسعى لأكون حراً في عزلتي دون تدخل من ثرثرة أخي مظلوم! لكنني لن ولم أتمكن من ذلك.. الشيء الوحيد الذي يريحني الآن هو التخلص من كلينا.

* * *

في وجودي المتلاشي، مضت الساعات وربما الأيام والشهور دون أن تمر بي، مات الوقت عندي وماتت ساعة الحائط في المطبخ، التي كان نبيل آخر من بدّل بطاريتها.. أي فصل حلّ على هذه الأرض وأي وقت من أوقات اليوم نحن فيه، هل حلّ المساء أم أن الصباح قد أطل بشمسه على البشر؟ أحسّ بأن الوقت طويل وعالق في ذرات الهواء العطنة، يثقل ويسيل ببطء.. لا يخطر في بالي سوى هاجس وفكرة واحدة، وهي أنك رحلت بعيداً عن هنا يا نبيل، سافرت إلى مكان ما في

منشورات «آف ياء» Alfyaa

الأرض، رحّت مع دورا كما كنتما تخططان وكما كنت تحب،
إلا أنّ ذلك لم يحدث إطلاقاً وأنت صامت في الصالة، نائم ولم
تتحرك، ما الذي أصابك، هل رحلت حقاً؟ سأبقى جالساً على
أرض المطبخ بانتظار أن تصحو من قيلولتك وتعود لكلينا،
سأظلّ محدّقاً بالفراغ، مستنشقا الوحدة ومنصتاً إلى الصمت،
علني أسمع صوتك يغني من جديد، بصوت مبجوح عذب:

"يا نبعة الريحان جنّي على الولهان، حنّي على الول.."

يخلع جسدي أعضائه، تتساقط أصابعي أرضاً، كما أنّ حلقي
يغصّ بكلمات حادة الأطراف لا أستطيع إخراجها لكي تقطع
حبال الصمت.. تنتابني حمى قاهرة ويثقل رأسي صداع
عدائي، أتطلع من مكاني إلى ما حولي بلا طائل، لا أتمكن من
فعل أي شيء حتى فنجان قهوة، وبالأحرى لم أكن أفكر
بتناولها.. لم أتمكن من فتح العلبة من بعدك، كنت أنت آخر من
أغلقها بإحكام شديد كعادتك، وسوف لن أتناول منها شيئاً، لا
أستطيع ولن أفعل، حتى تأتي أنت بنفسك وتفتحها فنشرب
قهوتنا سوية.

كم كنت مذهلاً يا نبيل! احتفظ لك بذاكرة عطرية جمة
الروعة، حسبك من السعادة ضمير نقي ونفس هادئة وقلب
نظيف، لا يلهث وراء الفرح ولا يسعى إليه لأنه موجود
بداخله.. كان ثمة شيء من الصواب حتى في خطأك، ورغم
ذلك كنت أريد أن أقول لك، إرأف بنفسك وبني وعدّ إلينا.

عُدّ.. لا شيء يسندني بعد اليوم.. عدّ، فأغنية يا نبعة
الريحان تنتظرك، دعني أسمعها بصوتك حتى لو كان واهناً
مرتجفاً.. هيا عُد يا أنقى من عليها، عد لتفوح منك رائحة طيبة
وموسيقى حنان ونبعة ريحان وحنين ولهان.. لن تمطر الدنيا

نبيلاً ونبلاء دائماً، كم كنت تنتعش أكثر من الزهرة عندما تسقيها وتروي عطشها، وتسند كثيرين وتطعمهم قمح قلبك، كما سندتني وأمسيت فناراً مضيئاً في وحدتي وغربتي!.. أيها القدر، إمله قليلاً، لا تأخذه بمثل تلك العجالة، دعه يمدني بالأمل والحياة.

* * *

ها هم قادمون يسبقهم مظلوم فريد نعمان.. ناس حولي، ناس في داخلي، شخص طلع من المطبخ، آخر خرج توأ من الثلاجة، انسلّ الثالث من تحت السرير.. يراقبني كثير منهم في الرواق وفي الغرفة، طوراً أكونهم وطوراً آخر يكونونني، أعرفهم ولا أعرفهم، أسمع أصواتهم، أحسهم في داخلي تماماً أقرب مني إليّ، نتشاجر ونتصالح، يغضبون ويهينونني ثم يعتذرون، متناقضون ومتصالحون في آن واحد، يخرجون مني بلا ملامح، يتحدثون بالنيابة عني بلا ألسنة، أكون اثنين أو أكثر، لأنني أكلت توأمي في بطن أمي وكل شظايا الأشياء والناس والأحداث.

- ها نحن قادمون، نختبئ بين فراغات رأسك وأرض الغرفة وشقوق الجدران، ننتهز فرصة ملائمة للانقضاض عليك.. سارع إلى عزلتك يا وحيد يا ابن رضية، فكل طرقاتك تؤدي إلى خيبتك وغبتك، لن تتمكن مطلقاً من ترتيب فوضاك بعد اليوم، أنت كتلة من حطام تنتظر الذي يرميها في القمامة.

هلالويا، أنا الدر الأنور والياقوت الأبهـر والزرع الأزهر، وحيد فريد نعمان كامل الاسم وكامل الدسم، أنا وحيد عصره وزمانه، ذكره كوكب ذهبي، يكاد نوره يضيء ولو لم تمسسه

نار، على رأسه ياقوتة لنداقية، لندنية - عراقية، أنا مستر نو مان، ابن المصادفة والشقاء، سيد اللا شيء، بل أنا گلگامش، ذائع الصيت متين البنيان، أنا على أسوارك يا أوروک، ابن الثور النطوح، جئتم بأخبار زمن الطوفان، أنا الذي اختارني خمبابا لأكون وريثه، سأنزل إلى العالم السفلي وأضاجع نفسي فأنتج ملايين مني.. احذروا، في هذه الغرفة في بينفولد رود، يوجد أشرس إنسان في الكون قارع الحياة، رأى كل شيء وعرف كل شيء.

- هيا إذن، ابصق بلعابك المبارك على الجميع وانشر عليهم مخاطك المقدس، تزوج القارورة فهي ملاذك.. جنّ، سيطلق الجنون كل خيالاتك ويفك عقدة لسانك، حين تكون مجنوناً، لا أحد سيحكم على أفعالك، سيكون بإمكانك فعل ما تشاء.. الحياة العاقلة دعاية فجّة، يستحسن أن تغادرها فوراً يا عفن الخبز، متى آخر مرة شعرت بشيء حسن اتجاه أي أمر كان؟ لا تغصّ في تلافيفك، لو ثابرت على هذه الحماقة، فمالك التبدد في الفراغ.

هراء، أنا تائه فقط، جثتي المنتشرة حولي أكثر من أن تُحصى وأكثر من أن يضمها قبر، فهي تحتاج إلى مقبرة جماعية، هذه الحياة أكلت عمري حتى لم يبقَ للموت شيء، وتسرق ذهني أفكار لصة، لا تمنحني طاقة الاستمرار.. كنتُ أظن أنني سأصل حتى لو كنت ممزقاً وسترمني حلاوة الآتي والوصول، لكن متى سأصل وإلى أين، وهل أنا هو أنا؟

- أنت هو أنا الذي تريد أن تكونه، أينما ذهبت ستصحبني معك كحديثك، أنا نفسك المفقودة أيها الرجل المرّ، لكنك لن تكونني أبداً، لأنك صنيعة زمن تعيش فيه بشروط الآخرين..

أنت الرجل الذي باع رأسه.. كم تدهشني هشاشتك! اغلق هذه الباب عليك للأبد، تحلل هنا، ستظل تحمل أعباء ثقيلة على الدوام إن بقيت على قيد الضياع، حاكم كل من جعلك وحيداً وعاقب كل الذين أسأوا إلى تكوينك.

* * *

عزلة سوداء وسكون صاخب في رأسي، إنني متعب فحسب، متعب مني، أشعر كأنني سبب كل الهزائم والكوارث والنكسات والفواجع في هذا الكون، كم عشتُ فداحة أن أكون موجوداً!

- ماهر أنت في التبرير والاستسلام، لا ترى مبرراً لتحريك شفتيك وتفعيل حنجرتك، أما تعلم أن الصمت وانعدام الغضب وانمحاء الرغبات والانسحاب إلى الداخل، كلها موت؟ الظفر الوحيد الذي حققته هو، لما كنت حيواناً منوياً سريعاً نجح في الدخول إلى بويضة رضية، أخرج منها، اصرخ يا وحيد لتشهد ولادتك ولتلدك أمك من جديد، اخرج من ظلام رحمها، ألمس الظلام في جوفك، لا تكن مثل تمثال في وجومه، عاجزاً عن إزالة فضلات الحمام من فوق رأسه.

أنا وحيد معزول، لكن بين ضلوعي زحاماً، أنا أسيان، أخذتني أحزاني في هبوط كاسح إلى طبقات النفس العميقة واستهلكتني تبدلات الأيام.

- أنت قاتل قدر كأي خنفساء أو دودة تدب في أرجاء هذه الغرفة، وستدخل إلى البالوعة بعد لحظات أو إلى بطن فأر جائع.. كنت الشخص نفسه طوال حياتك، لا تثير أحداً ولا أي شيء، حتى الغبار الذي حولك، يهزأ منك ويظل راكداً، لم تكن

من أولئك المتحذلقين الذين يحاولون جعل الحياة استثنائية لأجل أن يرغب بهم الآخرون ويخلدون بعد موتهم، لذلك فأنت لست بحاجة إلى ترك بصمة في هذا العالم، كل ما سيبقى منك هو رماد تافه أو عفن مقرف.. تحولت إلى ظل في قارورة وإلى قشر إنسان.. هيا لملم ظلك، اجمع دموع الباكين في هذه الأرض بقارورتك يا جامع الغيوم والهموم.. انغمرت في اللاشيئية وغدوت غير ملموس ولا محسوس، حياتك عبء عليك، لا أعرف لماذا تتمسك بها.. نفسك كانت تأمل أن يسكنها رجل غيرك يكون أحسن منك، وأن أكون أنا بداخلك أكثر منك.. استرقك الآخرون، بعد أن سمحت لهم أنت بذلك.. أنت عبد، تسمح لهم أن يرسموا لك حياتك، تلك هي أسوأ أنواع العبودية.

لا جدوى من كل ذلك العبث اليوم.. أنا مثلك يا نبيل، ضيعت حياتي كلها، مع أشخاص خطأ وأيام خطأ.. أين ذهبت، أين أنت، ما خطبك، ولماذا لا أسمع لك صوتاً؟ يا نبعة الريحان حتي على.. ترى هل ستعود لو غنيت لك أغنيتك.. أسمعني؟ لماذا تعجلت الرحيل ولم ترحل بتمهل، هل حقاً ذهبت مضرراً بطيبتك؟ لطالما كنت تمتدح الناس الطيبين، هل أتعبك نقاؤك؟

- ثمة خطأ في مفرطي الطيبة، ما فائدة طيب لكن مغلوب على أمره، تضحك الناس عليه وتستغله، وما جدوى أن تكون نظيفاً في منجم فحم؟ هل لاحظت كيف تخلى الناس عن نبيل حينما مرض وبقي في بيته رافضاً أن يغادره؟ لم يسأل عنه أحد إلا حينما كانت تتطلب مصالحهم، ما انفك يتنازل عن حقه لهم، حتى تصوّر الآخرون أن ذلك من حقهم بعد أن تعودوا على دماثته وتضحيته، لكنه ظلّ يردد إنهم طيبون حتى انتهى.

سأنضو عني ثياب التردد وأنهض من ركامي، أريد استعادة حياتي، أن أكون جديداً.. سأعيش الحياة بكل متعها كما نصحني نبيل وامتزجُ بمكوناتي الطبيعية، بالشمس والاخضرار والماء، سأقوم بتجهيز حقيبة سفر كما لم أفعل سابقاً، وسأسافر بعيداً.. لكن أين سأذهب؟ سأفكر بذلك لاحقاً بعد أن أقضي على هؤلاء الذين في رأسي، سأغلق الباب وأمضي غير أبه بهم، وأنت أولهم يا مظلوم.

- أنت تغار مني، كان أبي محقاً حين قال، كان من المفروض أن تموت أنت بدلاً مني، ومع ذلك سأرشدك إلى طريق الخلاص.. اسمعي أيتها الحشرات، ها هو وحيد فريد نعمان يسدل الستائر في الشقة، والستائر على نفسه بإحكام، سيقول لكم، "شكراً، نكتفي بهذا القدر من الحياة"، سيخرج ويرمي بنفسه في النهر، شريطة ألا يتقيأ السمك، أو سيهيم في الشوارع مثل كثير من المتشردين، ما الذي يدفعه للتشبث بحياة بائسة؟ من المروع أن يعيش في دورة اللاشعف واللالون وتسقط عيناه وأذناه وفمه من وجهه، فيصبح إنساناً بلا ملامح.. هل ينتظر أن ينقذه نبيل آخر، ومتى سيجد هذا النبيل الجديد؟

هيا يا وحيد، طرّ لنهايتك حتى لو كنت بلا أجنحة، لا تبق محتجزاً في جسدك، كل الناس وحيدون قاحلون، وبعيدون عن رذاذ المسرات، فلا تكن مثلهم، يريدون ما لا يعرفون، ولا يعرفون ما يريدون، لا يحدث لهم ما يحبّون، ولا يحبّون ما يحدث لهم.. ارحل أيها المحذوف من قائمة الاطمئنان والراحة، يا أيها المكرّس للشقاء، عجل، فلم يبق من الوقت سوى أجزاء قليلة، عشت الحياة وخبرتها واليوم ستفارقها، آن لك أن تستريح، نقذ ما كان يجب عليك فعله منذ زمن.

من أنتم، حياتي ليست من شأنكم، لست ملزماً أن أسير وفق توقعاتكم، لست معنياً بتوجيهاتكم، سأتعامل مع وحدتي بطريقي الخاصة، سأضحك، أقفز، أرقص، في هذا الحيز من الشقة في بينفولد رود.. لكن لن أذهب إلى الصالة، أخشى النظر إلى حيث الساكن الصامت وهو هامد بمكانه المفضل.

أيها النبيل، من الأكرم أنك متّ، قبل أن يلقي عليك الآخرون نظرة شفقة، أو أن يأتي يوم تبول فيه بسرّوالك وأنت بين الناس.. لكن لا، لا تمت يا نبيل، أفقّ، تعال وانظر إلى ما سأفعله من أجلك، سأحكم إغلاق كل العلب بقوة، مثلما كنت توصيني، وأعدّد أكياس المواد الغذائية جيداً كما كنت تفعل.. سأرتّب الدار كما تشتتهي وأغسل الصحون بعد الانتهاء من الوجبة مباشرة، سأنشفها جيداً وفق طريقتك ولا أنسى غسل يديّ، بعد كل وجبة كما عودتني.. سوف لن أتدخل في طريقة ترتيبك لحاجياتك في حقيبة السفر، وسأفعل كل ما يريحك، لن أقول إنك صعب المراس بعد اليوم أو أنفر من عتابك وغضبك، سأدعك تعتب عليّ وتغضب كما تشاء وأستمع إلى نصائحك.. ما عليك إلا أن تأتي، لا تغب عني هكذا، أحتفّ بالحياة كما كنتَ معي في السابق حتى لو لم يكن لها معنى، أما تراني وحيداً يا صديقي ويا أمي ورفيقي؟ سأشتاق إلينا يا نبيل، ما كنتُ أعلم أن هذه السعادة لن تدوم، كل فراق وأنت بوصلتي الراقية تجاه المعنى والبهجة، لو كنتُ أخبرتني مسبقاً بأنك ستغادرني، لكنّك تفهمت وتدبّرت أمري، لكن اليوم لا حيلة لديّ.. أودّعك أيها الحبيب وأنا على علم أنك لن تعود أبداً.

* * *

بين انتباهات الصحو واختلاسات النوم، وجدتُ نفسي نائماً

على البلاط وفي عقلي تنبت أفكار مجنونة.. أبحث عن أذري، مثل أخطبوط ثمل، لكي أتخلص من رأسي فيستعصي عليّ الأمر، أجد بدله غابة كثيفة متشابكة من عناكب وغربان، ورغم ضعف حاسة الشم عندي، تنفذ إلى أنفي رائحة روث حيواني، أحسّها تخرج من أذني ومسامات جلدي كلها.. لم أستحم منذ زمن طويل، أمدّ يدي تحت إبطي، أسحبها فأشتم رائحة غريبة، أشمئز وأكره نفسي أكثر، لا أقرف من رائحة نتنة لقذاراتي، لأن المكان كان يغصّ برائحة أقوى منها، رائحة وداع ورحيل، رائحة موت قاهر ظافر غازٍ، أشتمّ معها رائحة احتراق قلبي.. أعني يا مظلوم أن أنتصر على الموت.

- كيف يتسنى لك أن تنتصر بترهاتك وقذارتك على ما يجري، وكل هزائمك وهزائم التاريخ بداخلك يا نكرة؟ غسل يديك من خطاياك لا تعني أنها ستزول، وبما أنك فقدت شهيتك للضوء، فلن تتمكن من أن تنير الليل الذي في قرارة نفسك، الخلاص يكمن فيك لا محالة، أنقر من داخلك، فالحياة تخرج من داخل البيضة، وبعكس ذلك يحلّ الموت، فيما لو كان النقر من خارج القشرة.

يا وحيد القهر، أنت حيوان ذو طبيعة انغزالية، جلدك مُغطّى بالقذارة لأنك عادةً ما تتمرّع بالوحل، بوحلك أنت، صرت تتغوط في المكان الذي تأكل فيه، حتى صوتك أصبح صوت حيوان، أصخّ السمع جيداً، ثمّة صخب غريب يخرج من فمك، نصفه خوار ونصفه الآخر عواء، صرت تعيش في حنجرة كلب هرم.. انظر يا وحيد يا فريد، ها أنت تفقد كونك بشراً ويطلع من جبهتك نتوء قرني طويل مدبّب، ينمو كل يوم ويصل إلى سقف هذه المقبرة التي دفنت نفسك في قاعها، لاحظ كيف تنمو أوراقك الميتة وكيف تنبت لك رجل ثالثة

وذراع رابعة، أنت مخلوق كايميرا خرافي برأسين، قتل توأمه يوم ولادته فترك آثاره على جسده المليء بالندوب.. بعد أن انتهى ما لديك من طعام، صرت تحشو حنجرتك بملابسك الداخلية القذرة، وتعمل حساءً من هذا العنكبوت الذي دسته بقدمك مع حشرات أخرى في الشقة، كانت تظن طوال مدة وجودها معك، أنك رفيق سكنها.. أنج بنفسك يا رجل القاع قبل أن تسقط أرضاً وينبت لك عنق زرافة ملتون نحو مؤخرتها، يلحق فضلات ذكريات تحاول نحرها.

أنا مع نبيل الحي الذي علّمني، أن أسوء أنواع الابتلاء والشقاء هو التفكير المفرط والعميق وإدمان التفاصيل والذكريات، "كن مفعماً بالأمل، لا تحلل طويلاً وتعتد الأمور يا وحيد، عش حياتك ببساطة وبحب، عالج نفسك بمزيد من الحب".

- وهل سيصلح "مزيد من الحب" الأمور أيها الأخرق؟ كيف يتسنى لك أن تسعى وتستمتع بالحب، وحاضرك مشوش بلا ملامح و"ابن فضيلة" كما تصفه آلاء، ما الذي سيتحسن بفضلك في هذا العالم؟ لا شيء.. كنت على هذه الأرض أكثر من خمسين سنة مع وابل من الخيبات، فما جدواك، ما الحكمة من وجودك؟ ليس لديك القدرة على الحب ولا على إصلاح نفسك، فكيف يتهيأ لك، أنك قادر على إصلاح العالم بمزيد من الحب؟

انكسر، تصدع، تهشم، لتعيد بناءك من جديد، تشظّ إلى عدة قطع، أكتب مرثية أيامك بحبر الغراب، أنا سأحميك منك، سأغلق تلك الباب على كلينا إلى الأبد، هذا الوحيد الفريد لا وجود له، إنه أكذوبة كبيرة، مثل أشياء كثيرة في هذا الكون..

كم يبلغ طول وسمك الجدار اللانهائي الذي بنيته حولك يا وحيد يا ابن رضية، كم سنة وأنت جزء من ذلك العبت؟ إن لم تستطع تشكيل حياتك، فمت أيها الأحق، لفّ الأنشطة حول عنق أيامك التي مهما كان من أمرها، فليس فيها عِظة أو تأثير على أحد، من يبالي بك يا نكرة لو اختفيت من هذا الكون، من يابه لموتك؟ حتى الموت لم ينتبه إليك ولم يأخذك على محمل الجد.

وحيد الشائب الخائب بكل حماقاته، لا يعني شيئاً لهذا العالم.. لا تلتصق نفسك و ترممها، لا تلممها، دعها منشورة.. حلق خارج حدود المكان والزمان إلى النهاية المحتممة أيها المنسي.. لا أمل لك في البقاء أيها المسخ.. حتى يوم ولدت، تعثرت بحبك السري وخنقت توأمك.. أهرب، حتى لو كنت ملطخاً بالخدوش.. أهرب.. ألا ترى قبحك عندما تمر من أمام المرأة؟ امسحها، أمح صورتك بفضلاتك ليتلاشى عالمك بأسره.. يا بطل العالم في النحاس والحائز على جائزة الكآبة، حكم عليك الموت غرقاً بدموع ذرفتها أمك رضية النقية، ولتعلم أنّ أجمل عزاء لحياة مملة كئيبة كما حياتك هو طق عنقها ورميها في القمامة.. تخلص منك يا وحيد، إمض معي إلى عالمي.

* * *

أسوأ وقت للتفكير وثرثرة العقل هو ما قبل النوم، لذلك أحاول تجنبه قدر الإمكان، اعتدت ألا أدع الشوارع تصحو وأنا ما زلت نائماً، اصحو لأرى الشمس تطلّ بين فينة وأخرى من بين أغشية سحب تتراكم عليها وتختفي.. أثناء ما كنت أخلق ذقني وأتناول فطوري، ترنّمتُ بأغنية خريفية، أحبها بصوت بياف، (أوراق الخريف، تتجرف عند نافذتي، حمراء وذهبية....)، وبما أنّ اليوم عطلة نهاية الأسبوع، سألتقي في الهايد بارك بسلمى التي قدمتُ إلى لندن بعد إكمال امتحانات الدور الأول.

بدّلْتُ القطار الشمالي من محطة كنگز كروز إلى الخط المركزي، ونزلت في محطة ماربل آرج القريبة من هايد بارك، وانتظرتُ سلمى عند مصطبة قريبة من ركن المتحدثين.. لم تعد هذه الزاوية مكاناً لطرح الخُطب، كما كانت سابقاً في عهد الصراعات البرلمانية الإصلاحية.. ثمة خطيب يقف متحدثاً عن ضرورة العودة إلى الإنجيل، وفي الجهة

المقابلة منه، يدعو آخر إلى الدخول في الدين الإسلامي، يتحلق حولهما جمهرة من الناس، بعضهم مشاغب حضر للتشويش على الحديث.. تذكرت التاريخ ومن وقف هناك، من أمثال تشرشل وماركس وأورويل وغيرهم من المشاهير.. ترى ماذا لو كانت وسائل التواصل الإلكترونية متوفرة آنذاك، هل سيضطرون إلى الوقوف في تلك البقعة؟

ما أن جلستُ قليلاً على إحدى المصطبات، حتى رأيت سلمى من بعيد تهرع نحوي مبتسمة.. لم أدرك بأنني كنت بمزاج آخر حتى قالت لي:

- ما بك تبدو مهموماً؟ انتهت قضية الترجمة منذ أكثر من أسبوعين، واليوم عطلة نهاية الأسبوع، وأنا سعيدة لأننا التقينا، خفف قليلاً من التفكير بعملك.

كأنني كنت أنتظرها لتأتي بحديث يتعلق بالعمل وبذلك القضية بالذات حتى أفيض.. رغم سرية وخصوصية عملي، إلا أنني حكيت لسلمى عن تفاصيلها بعد إغلاق ملفها، لعلمي أنها لن تتحدث لأحد بما تسمعه مني.. أخبرتها بأنني سعيد أيضاً بلقائها، لكن قضية وحيد فريد نعمان غير منتهية بعد من وجهة نظري، طالما أن مصيره مازال مجهولاً وإن جملة "اختفى في ظروف غامضة" غير كافية.. أين اختفى وكيف، هل ابتلعه الأرض؟ ما أسرع ما نفقت الشرطة يدها من الأمر، بعدما تأكدوا من أن موت نبيل كان طبيعياً جراء أزمة قلبية، وحين أدركوا أن كتابات الجدران بشأن المنظمات الإرهابية، لم تكن بتلك الخطورة التي اعتقدوها في البداية، عزوا الأمر إلى تخطيط كاتبها وعقده وأمراضه النفسية، وبالتالي ظلت القضية عند المحامي الذي ينتظر حضور وحيد، إن كان

حيًا، لكي يوقع على أوراق نقل ملكية الشقة، وألا ستذهب إلى السيدة توما أو إلى الدولة بعد حين.

- هل أخبرتم من كانوا يعرفونه بما جرى لاحقاً؟

- اتصلنا بهم جميعاً، أخبرتنا الجارة بأنه ليس من المستبعد أن يكون وحيد قد تعرف على إحدى النساء وتزوجها، فنسي الدنيا وما فيها بعد ذلك، وربما تكون قد سحرت له فأبقته إلى جانبها أو منعه من الاتصال بأحد، ووعدتنا بأن عينيها ستبقى مفتوحتين وتترقب عودته، لتكون أول من تخبره بنبا امتلاكه للشقة.. أما آلاء، فتحدثت عن احتمال خروجه من الشقة حائراً ومشوشاً بعد اعتكافه فيها لفترة طويلة، فصار يدور في الشوارع باحثاً عن شيء يأكله، وربما صدمته سيارة ويرقد اليوم في إحدى المستشفيات، بحالة من فقدان الذاكرة.. ولمحمود رأي آخر إذ قال بأن وحيد أحسّ بعدم جدواه، وبأنه فائض عن الحاجة في هذه الدنيا فانتحر بطريقة غير مألوفة، أو انه خرج إلى الشارع وهو يهذي، فأخذته الشرطة إلى أقرب مستشفى للأمراض العقلية، واستفسر عن إمكانية أن يكون وكيلاً له فيما يخص ملكية الشقة.. وبالنسبة إلى مونيكا، فهي مازالت مصرّة على قضية اختطافه وتهريبه لبلده في جريمة، حسب ظنّها، لا ينبغي سكوت الرأي العام عنها، وبدأت بالكتابة إلى السفارة العراقية ولدائرتها البرلمانية، حول ضرورة التحقيق في الأمر والاقتصاص من الخاطفين.

لكني ما زلت أعتقد بأن هناك بعض الكتابات الناقصة، غير التي وجدناها في الشقة، تحتوي على أسرار مهمة أخرى، ولو واصلنا البحث أكثر لكنا عثرنا على سر اختفائه، أو لكنا عرفنا

طريقة إنهائه لحياته، إن فعل ذلك حقاً، بيد أنهم تخلصوا من كل محتويات الشقة بعد أن نظفوها كلياً.

رَبَّتْ سلمى على كتفي مطمئنة وذكرت بأن أكثر ما يتعبنا، هو التفكير بالغاز وأمور ليس باستطاعتنا حلّها، وما علينا سوى أن نرمي كل الأمور خلف ظهورنا، لأن الحياة سريعة وأمورها عابرة، وستظهر لنا يومياً قضايا جديدة تنسينا ما فات.. ابترسمتُ قائلة:

- ما عليك التفكير به الآن هو كيف سنقضي يومنا هذا وأين سنأكل، ما رأيك أن نذهب الآن إلى أقرب مطعم، لأنني أشعر بجوع شديد؟

أومأتُ برأسي موافقاً.. سرنا باتجاه أجور رود، ورحنا نتطلع إلى الواجهات الزجاجية لبعض المطاعم العربية في بدايته، وإلى قائمة مأكولاتها المعروضة.

وبينما كنّا نمشي نحو مطعم معروف في أحد الفروع، لمحْتُ شخصاً مشرداً بمظهر رثّ ومزِر، أعادت ملامحه إلى ذاكرتي فجأة صورة وحيد فريد نعمان.. تسمّرتُ في مكاني لا ألوي على شيء.. تنبه الرجل إليّ عندما شاهدني أقف منذهلاً، محدّقاً نحوه بدهشة وفضول، رمقني برهة بنظرة غريبة وحكّ شعر رأسه الأشعث بقلق، وسرعان ما انعطف نحو شارع فرعي مظلم.

- انه هو، انه وحيد، أنا متأكد.

- هل من المعقول انك ما زلت في دوامة هذا الشخص؟ لا يمكن أن تكون متأكداً هكذا، سبق وان قلت لي بأن النجاة من حياة ماضية، هي أن نتذكرها مثل سهم في قوس، نرجعه إلى

الوراء ثم ندعه ينطلق إلى الأمام.. إلى أين أنت ذاهب؟
انتظ..

لم أسمع باقي كلامها.. مضيتُ مسرعاً، نحو الزقاق الذي
اختفى فيه المتشرد، رأيته على مقربة خطوات مني، يمدّ يده
نحو سلة القمامة ويخرج كارتونة فيها بعض مما تبقى من بيتزا
قديمة ويلتهمها بنهم.

ناديته باسمه:

- وحيد.. أليس أنت وحيد فريد نعمان؟

تسمرتُ خطواته في مكانها، غير انه لم يلتفت نحوي،
واصل سيره بعد ذلك بخطوات أسرع، دلف شارعاً فرعياً آخر
ثم أطلق العنان لقدميه بعيداً عن خطوات متطفل يلاحقه.. تبعته
بخطى مسرعة، غير انه اختفى سريعاً وأفلت من ملاحقتي
وناظري.. عدت أدراجي إلى سلمى المندهشة:

- ماذا جرى لك، أين ذهبت كل هذا الوقت؟

بان كلامي مفتعلاً وقليلاً عند جلوسنا في المطعم، كنت غائباً
في عالم وحيد فريد، ووجه ذلك المتشرد الذي رأيته لا يغيب
عن ذهني، قد يكون هو بالذات مع أنني لست متأكداً.. في
طريق العودة، انتبهتُ إلى صوت سلمى يستحثني للقفز إلى
قطار الأنفاق والذي كاد أن يفوتنا.

* * *

مساء خفيض وبارد، أحسست فيه بتعب وأنا أطلع السلم،
يبدو أنني أرهقت ذهني اليوم بالدراسة والتحضير للأطروحة،
وجسمي أيضاً بإطالة التمارين البدنية في قاعة الرياضة.. لزاماً

عليّ أخذ حمام ساخن والنوم مبكراً الليلة. أخرجت مفاتيح شقتي من جيبي لأفتح الباب فارتطمت قدمي بشيء عندها، انحنيت لأرى ما هو، وكانت مفاجأتي كبيرة حينما وجدت قارورة بداخلها ورقة ملفوفة، حملتها معي وأنا في حالة من الذهول والتعجب، فتحت ضوء الصالة ومددت يدي نحو الورقة بداخل الزجاجاة، أخرجتها بسرعة، وجلست عند مكتبي دون أن أخلع حذائي ثم بدأت أقرأ بلهفة:

" إلى من يهمه الأمر..

من وحيد فريد نعمان..

إثر وفاة نبيل وبعد زمن غير معلوم، أدركت أن الضغط الشديد لمعاناتي، أجبر وعيي على الارتداد عن العبث وحث نفسي على الهدوء والتبصر، مما جعل فكري أكثر وضوحاً. أطلت التأمل في حالي وسألت نفسي: ما مغزى استمرارني بالعيش على هذا النحو؟ طغت عليّ الرغبة الغريزية في الوجود الإنساني، وأدركت أن مظلوم فريد نعمان ليس حقيقياً، بل هو وهم اخترعته أنا، عليّ رفضه والتخلص منه لكي أتححر من تأنيب الضمير. لا شيء يبقى للأبد، حتى مشاكلنا، جملة كان نبيل يكررها دائماً، وبما أنني تذوقت الكثير من الألم المقطر والمكثف، لذا ينبغي عليّ التخلص من كل ما هو مؤذٍ في رأسي، ومن أي شيء يسحبني نحو الضياع والتوهان، وعليّ أن أذهب إلى مكان أجد فيه نفسي الحقيقية. كان ينبغي عليّ أن أغادر الورق وحبر الغراب، بل أغادر الشقة كلها وأبتعد عن كل تلك القذارات التي حبست نفسي فيها لعدة أسابيع. تأكدت من أن أمر نبيل انتهى، لأنني لم أسمع له صوتاً منذ أيام طويلة، لا أدري كم عددها، لم أشأ إزعاجه وهو في

رقدته الأخيرة، رأيت أن من الأفضل أن أنفذ وصيته بأن يموت في مكان يرتاح فيه ومن غير قبر، لأنه كان لا يحب الدفن تحت تربة تنبعث منها غازات تفسخ الجسد الميت وتضرّ البيئة. كان عليّ أن أجد نفسي كما كان ينصّحني، أن آخذ روحه وذكراه معي ولا يهمني جسده. لم أنس أن آخذ معي أيضاً ما ادّخرته من مال يكفيني للشروع بعمل كان عليّ القيام به منذ زمن طويل.

بعد أن أفقت من كبوة رافقتني طوال سنوات عمري، قرّرتُ أن أبدّل سيرورة حياتي القادمة، لأعيش ما تبقى لي من أيام بحالة تصالح وتوافق مع ذاتي. قبل فترة قصيرة، ولحسن حظي، علمت من ابن خالي الذي اتصل بي، أن والدتي مازالت على قيد الحياة بعد أن أفاقت من غيبوبة السكر، إثر زيارة خالي لها في اليوم التالي لترحيلي من منطقة سكني مع الجيران التبعيين، لكنهم، وبطلب منها، أخفوا عليّ الأمر، لكي لا أتهوّر وأذهب للقائها، رافضاً مغادرة البلد ومعرّضاً نفسي للخطر. علمتُ منه أيضاً بأنه كان منذ زمن طويل يبذل جهوداً مضنية، من أجل الحصول على رقم تلفون أو عنوان شخص يعرفني، لأجل أن يبلغني بأمنية عمته في رؤية ابنها قبل أن تموت. كان ذلك الخبر حافزاً قوياً أعادني إلى الحياة وإلى طريق الصواب، فقررت أن أنفض عني غبار العبت والغربة وأرحل صوب أهلي وناسي، والأهم من ذلك كلّهُ، أن أرى أمي وأحقق أمنيّتي الدائمة في جعلها سعيدة، تضحك بدل أن تبكي، ولو لساعة واحدة من عمرها الدامع الحزين.

اقتنعتُ بأن الحياة ليست عادلة وأنها تتبدل على الدوام، وعليّ الاعتياد على ما هو جديد منذ اليوم، لذلك سأكون واقعياً،

أتقبل التغيير وأعتمد على نفسي. ألا يكفي هدف لقاء الوالدة وإسعادها سبباً للاحتفاء بحياتي القادمة؟

خرجتُ إلى النور مجدداً في حالة يرثى لها، اغتسلتُ في حمام عمومي، خلقتُ ذقني وشعري الطويلين عند حلاق، حجزتُ غرفة في فندق جيد، اشتريتُ حقيبة سفر، جهزتها بما يلزمي وحزمتُ فيها بعض الملابس الجديدة وجواز سفر إنجليزي حثني نبيل على استخراجهِ، والذي لم تطبع على أوراقهِ أي تأشيرة دخول لأي بلد. ذهبتُ إلى أقرب مكتب طيران في أجور رود وحجزتُ في نفس اليوم رحلة ذهاب فقط إلى بغداد بدون عودة. تناولتُ مشاوي مشكلة في مطعم أزمَر ثم حجزتُ تاكسياً أخذني مباشرة إلى المطار. في الطائرة، نمتُ نوماً عميقاً كأني لم أُنم طول حياتي. حينما وصلتُ إلى بغداد، وجدتُها قد تغيرت كثيراً، حتى خُلْتُ أني سوف لن أتذكر الطريق إلى بيتنا، استأجرتُ سيارة تاكسي وأعطيتُ سائقها العنوان حتى يوصلني إلى هناك.

كان الوقت غروباً حينما نزلتُ من السيارة، شعرتُ بقلبي يخفق بقوة، ودمع حار ينسكب من عيني، لأول مرة أحسّني بمشاعر إنسانية، اضطربُ وأفرحُ، وتمتلكني لهفة ورغبة بشيء. تسمّرتُ برهة أمام البيت، بدا لي طاعناً في القدم كئيباً ومع ذلك فلقد منحني شعوراً غامراً بالطمأنينة والألفة، أضفياً عليّ قوّة داخلية غريبة. قبل أن أستسلم لفيض ذكريات وجدانية، وجدتُ يدي تفتح الباب بمفتاح رافقني زمناً، وهو الشيء الوحيد الذي احتفظتُ به. ازداد خفقان قلبي عندما لم أجد شجرة التوت في مكانها ولم أسمع صوت نعيق الغراب، ولاح لي شبح والدتي من الشباك. توجهتُ إلى باب المطبخ ودخلتُ إلى الصالة، رأيتها قد كبرت كثيراً، وكانت تتكئ على

عصا عند المشي، فاجأتها بدخولي المباغت، اقتربت منها بسرعة دون أن أتكلم حتى لا يغمى عليها من هول المفاجأة، أكاد أجزم بأنها أحسّت بوجودي، إذ رأيته تقف وتمدّ يدها نحوي بشفتين مرتجفتين باسمتين، ركضت نحوها وعانقتها بقوة، شهقت وابتسمت ولم تنح وتبك كعادتها، أخبرتها بأني لا أود أن أسمعها تبكي بعد اليوم لأنني جئت أخيراً بهدف إسعادها حتى وإن غدت بأواخر عمرها. نفذت وعدي لها وها هي اليوم بين أحضان مبهجة ومبتسمة كطفلة صغيرة. أخيراً وجد وحيد فريد نعمان نفسه وخرج من قارورته".

* * *

لا أعرف طول الفترة التي قضيتها بعد قراءة القصاصة، وأنا جالس عند مكتبي بملايسي وبحذائي.

ما الذي يجري، وهل ما قرأته حدث حقاً، كيف عرف المرسل عنواني، ولماذا وضع الرسالة في قارورة عند بابي؟
....

أفقت مرتعباً على صوت طرق الباب، أدركت بأني غفوت على الكرسي حتى الصباح، وبرأسي تلك الأسئلة التي لم أجد لها جواباً شافياً، لاحظت أن الشمس قد دخلت إلى شقتي منذ زمن.

جاءني صوت سلمى من عند الباب:

- صح النوم، قلقْتُ عليك، كان تلفونك مغلقاً منذ عصر يوم أمس.

- لا يمكن لك أن تتخيلي كيف كانت ليلتي عجيبة، ربما سهرتُ حتى الفجر، لقد حدث أمس ما لا يمكن توقعه.

ضحكتُ سلمى ضحكة لا تتناسب مع أهمية المعلومات التي كنت أتحرق شوقاً لإبلاغها. واصلتُ بعجالة كلامي المفعم بالمفاجآت والدهشة والتساؤلات، بينما ظلت هي تضحك دون الإصغاء لما أقول. شعرتُ بعدم الارتياح لرد فعلها وتساؤلها:

- وحيد فريد مرة أخرى؟ يا للمصيبة! متى سينتهي هوسك بهذا الشخص؟

- صدّقيني، لا يوجد كلام يناسب الحدث، هل لك أن تتخيلي انه اليوم بالعراق قرب والدته...

- حسناً، هذا شيء جيد، لكن هل يمكنني أن أسألك سؤالاً واحداً فقط؟ هل لاحظت الفارق في الخط بين أوراق وحيد وفي تلك الورقة؟

صَمْتُ لثوانٍ.. بحثتُ عن الرسالة فوجدتها على الأرض، فتحتها وتفحصتُ خط كتابتها، اكتشفت فعلاً أن الخط مختلف تماماً عما في وريقات وحيد فريد السابقة:

- انه ليس نفس الخط حقاً، ما الذي يجري، ولماذا تضحكين هكذا باستمرار اليوم؟

صارحتني سلمى بما أدهشني.

أخبرتني بأنها منذ فترة، كانت تفكر بالكتابة عن نهاية خيالية سعيدة لحياة وحيد فريد، كما في الأفلام العربية الكلاسيكية، لعلها تجعلني مرتاحاً، ورأت أن تضع الورقة داخل قارورة مثلما كان يفعل. مرّت عليّ عصر أمس بزيارة مفاجئة، ولمّا لم تجدني، تركت القارورة عند الباب، ولكنها خشيت من رد فعلي بعد ذلك فحاولت الاتصال بي مراراً وإرسال رسائل حول الموضوع، إلا أنني كنت قد نسيت فتح تلفوني حينما كنت أقرأ

الورقة التي ظننتها من وحيد، ولهذا السبب زارتني مبكراً من أجل أن تطمئن عليّ.

صمتُ قليلاً لكي أرتّب أفكاري. خشيتُ سلمى من سكوتي وبادرتُ بالاعتذار:

- أسفة جداً لو كنت قد صدمتك وجعلتُ تفكيرك مشوشاً على هذا النحو، كنت أريد أن أمزح معك، وفي الحقيقة رأيتُ أن اهتمامك بتلك القضية ومصير صاحبها قد فاق الحد.

- مفاجأة غريبة حقاً. لكن هل تعرفين؟ كنت أتمنى أن تكون خاتمة وحيد فريد هكذا تماماً كما كتبتِ بعدما تشظّى زمناً وضاع، ظننتُ انه حصل على ما يريد في نهاية الأمر والعمر ووجد نفسه.

- وهل تعتقد أنّ من أضاع نفسه، يمكن أن يجدها في هذا الزمن؟

- (هل ثمة عطر في الأرض المقدسة؟ أتوسل إليك/ قل الحقيقة وأصدقني الخبر/ أجاب الغراب: لا عودٌ)..
لا عود أبداً.